عبد الكريم جويطي

زغاريد الموت

رواية

أفريقيا الشرق

زغــاريد المــوت

صدر للمؤلف : ليل الشمس رواية جائزة اتحاد كتاب
المغرب للأدباء الشباب 1991

الطبعـة الأولى 1996
رقـم الإيـداع الـقـانـونـي 1270 / 1996
ردمـــك : 0 - 060 - 25 - 9981

عبد الكريم جويطي

زغاريد الموت

أفريقيا الشرق

ولقد أدركت منذ تلك اللحظة أن أية أخلاق، أية فلسفة ، أي علم جمال، لن يتمكنوا من القيام بأي شيء ضد هذه القبيلة المخدرة .

(خوان بلا أرض)

خوان غويتيسولو

دمـــوع إيـــزا

قربة ماء، حفنتا تمر وتين مجفف، كيس شعير حائل، بضعة جوزات وصرة صغيرة بها عشرون ريالا محشوة داخل بسيسة محروقة، خرير ارتطام حوافر الأتان بالأرض الصلدة، وخلاء مقفر كبير، خطت فيه الطبيعة ذروة صور بلاغتها القاسية، أفق حجري ينأى باستمرار مبددا كل أمل في انبثاق لا متوقع لأثر حياة... وحدها الجوارح في السماء السحيقة تعاود بلا كلل رقصا دائريا محموما، تراقبهم وتنتظر، لم تكن علامات على حياة، كان وجودها أكثر من كاف لتعميق إحساسه بالخوف، إنهم يسيرون على حافة الموت والنور، كان الإنعكاس الشديد لأشعة الشمس على الحصى الأبيض، يخلف غلالة نور باهر يدمي البصر. ولما كانت رؤية الأفق مفجعة، ورؤية السماء مرعبة، ورؤية الفضاء الحصوي مؤلمة، فقد صار ثلاثتهم بأعين شبه مغمضة. كان عليهم أن يسلكوا هذه الطريق الوعرة لكي لا يذبحوا من أجل الأتان أو من أجل جلابيبهم الدكناء المهترئة، أو لأن قطاع الطرق لن يجدوا معهم شيئا ليأخذوه أثمن من أرواحهم.

لم تكن الطريق خطا مرئيا، خطته الحوافر والأقدام، بل خط وهمي مبهم يتبينه الحدس والدربة وحدهما، ينفلت الحصى الأملس أبدا ويطمس أثر كل من مر من هنا. برغم أن شيمون بلولو قد اجتاز بأمان نفس الطريق ست مرات إلى مراكش ذهابا وإيابا رفقة والده، فإن مخاوفه كانت تغلي في صدره، وتسد نفسه، وتلقي بماء الوهن في ركبتيه. كان اليقين الذي سنده في اليومين الأولين يتبدد تدريجيا، قال لنفسه حين أجمعوا أمرهم فجرا: لايمكنك أن تنسى معالم طريق مشيت فيها خائفا. ولم يعد قادرا على تثبيت

عينيه في عيني إيزا. كان يشيح بوجهه كلما استدارت نحوه في ركوبها المعذب فوق الأثان، فيتأجج عذابه: مهما حاول ليس بمقدوره أن يتأكد بأنه داس الحصى عينه..

حين أمعنت الشمس بعيدا داخل التلال ساحبة وراءها وشاح زهوها الأحمر الشفاف، وتفجرت الظلال هذيانا للعتمة القادمة وانتحب إسو الصغير من الخوف والتعب والألم الذي تسببه له باستمرار عيناه المرمدتان، وأمكن شيمون أن يتبين بكاء إيزا الصامت، التي كلمته بصوت مخنوق متهدج في شأن توقفهم للإستراحة. سيفكر لأول مرة وهو ممدد يحدق إلى الفضاء في العودة. طالما ساءل نفسه: أي عمى قاده إلى هذا الجنون الكامل؟ أهو الطواف المخزي بين الدواوير الصامتة ككومات الرماد، فوق اثان تجمع في كل لحظة عظامها المفككة والناتئة، وتتابع مشيتها المترنحة، تسكرها أحلام حشيش أخضر ينبثق في الطريق، بسلعة تبدو حين ينادي عليها وسط هياكل آدمية مسبولة لبست لون الأرض الجافة المقفرة كمزحة ثقيلة، قراطيس شمع، حناء، مرايا، العكر الفاسي، كتان خشن وآخر ملون، مشط، أساور وأقراط مطلية بماء الذهب، السواك والكحل، ودواوير لا تملك ما تقايض به البضاعة الرخيصة سوى موتها؟ أم تلك العودة الخائبة؟ حين تكون الاثان قد أنجزت معجزتها اليومية ببقائها حية، فيجري إسو ليرف بقشابته البيضاء ويديه الصغيرتين حول الأثان المهدودة كملاك مواساة، وتقف إيزا مستندة على رتاج الباب، يومض وجهها الشاحب الحزين ببارقة أمل، ولما ترى رأسه منكسة تتوارى قبل أن يصل، أم تلك الهمسة الحزينة كقطرة نور ولدت في بحر أرق لياليه السوداء عن رحيل آيت أو سردي، ولا يدري كيف احتضنها ودس رأسه في صدرها، لم يكن يجرؤ على الاقتراب منها، فقد نسج استرسال الأيام القاسية وعودته الخائبة أبدا جدارا من الإكتئاب والخوف والعذاب بينهما. لا، لم تحركه رغبة بددتها مهانة البقاء، بل رعبه من فكرة الرحيل ذاتها، لذا لم يكن يبحث في صدرها عن لذة بل عن حماية، في تلك الليلة والنهار الذي تلاها، ستغشاه رجفة من حين لحين،

وسيكلم أباه في قبره، وسينتحي ظلا بجانب الطريق ويبكي، كبرت دموعه وكبر عذاب قلبه، ففي الإكتفاء الأقصى بأقل ما يمكن أن يضمن البقاء، كان يجد بعض العزاء: هي أرضنا اقتسمنا معها الملح والماء، الشقوق الدامية والعطاء، الجدود الذين طواهم ترابها وما كفوا عن إحاطة الأحياء بثقل أرواحهم، والأبناء الذين يبرعمهم النشيج والقساوة.. في ذلك المساء، وهو قادم يتباطأ حتى يستره الليل، رأى إسو وبعض أبناء الجيران يأكلون قطعا من الصبار بعد أن نزعوا عنه أشواكه. كانت العصارة الخضراء تسيل على ذقونهم الصغيرة، وأفواههم مجلخة كالجراح القديمة... لن يأكل خطاه التردد إلا وهم يذرعون ظلمة الفجر الشفيفة، سينبش تراب ركنة البيت، ويستخرج القلوش الذي يحوي كل شقاء أبيه وشقائه من بعده، ويجهز زاد الطريق، ويبتاع لإسو ولإيزا جلابيتين قديمتين، ويستفسر كل من لقيه أو سار إليه في تلك الليلة عن أيسر وآمن المسالك إلى مكناس؛ وحين تتوقف إيزا لتسأله بالصوت الخفيض عمن يعرفون هناك وعن الطريق، يغمغم بسرعة كلاما مبهما كأنه يخشى إذا استرسل في الكلام أن تفتر حميته، كان يكوم متاع الدار كله في ركنة البيت، يسنده في تدفق حيويته العصبية فيض حسير من نور القنديل ويهرب التنامي المفاجئ لإصراره على الرحيل من كل الأسئلة والمخاوف، ويقاوم انبثاق الذكريات من الأشياء التي يثبت بعضها فوق بعض، وكانت إيزا يائسة، ضائعة، تراقب المشهد الغريب: البيت وهو يتحلل أمامها، وتختفي معالمه، وحين غطي الكل بحصير، لم تعد تنتحب، كان الواقع ومن خلال الأشياء الحميمية يغرق تدريجيا أمامها حتى اختفى تماما وصار البيت خلاء غريبا، لم تكن إذ ذاك قادرة على الرحيل فقط، بل مستعدة للموت أيضا...

في منتصف الليل، كان عليهم أن يخرجوا رغم البرد الشديد اللافح، تهاوت إيزا فوق الصرة حاضنة إسو النائم في حجرها، بينما انهمك شيمون في إعداد خليط كبير من الطين والماء والحشائش الميتة، ولما استطاع أن يحمي ذؤابة القنديل من الهبات المفاجئة للريح، أخذ يقيم جدارا بموازاة

الباب الخشبي. لم يكن البيت، والجدار يعلو، يستحيل في عيني إيزا إلى كتلة صماء محايدة وغريبة فقط، بل كان الزمن ومن خلاله أيضا يتوارى أمام عينيها، كان كل ماضيها فيه، ولحظات سعادتها النادرة تذوب في كتل الطين اللزجة وتضيع، لم يكن شيمون يبني جدارا، بل ينمي نقطة اللاعودة، ويبدد حلم التراجع... وحين اختفى الباب تماما كما اختفت أشياء البيت، ومهما تجلدت، تساقطت دموعها فوق وجه إسو فصحا وأخذ يبكي، ووسط جلبة نباح الكلاب المجهد والصيحات الأولى للديوك الباقية وبكاء إسو الخافت والمتواصل وبعد أن ورد الاثان، ذرعوا القرية، وهناك قرب شجيرات اللوز العشر، التي ورثها عن أمه، اجتاحته كل المرارات التي اعتصرت قلب إيزا، وعرف كل عذاب التردد، جدار الطين وراءه طريا وقابلا للتفتت مع أول ضربة يد، والطريق أمامه يكتنف خلاصه الموعود فيه كل المخاطر والأهوال وضدا على قلبه الذي اشتعل بحنين قوي وآسر أسلم خطواته للمجهول، وإيزا تلتفت لتخزن كل الصور: بيت الطين الأحمر المسور بصمت يتعذر اختراقه، و حوش الصبار، الطريق الوعرة إلى العين، شجرة الخروب الوارفة، الأماكن الصغيرة العاجة بالذكريات، الألفة اليومية، خصومات مع الجارات، بوح وشكاوي يومية عن الصحة والزوج والأولاد والعين الحسود... صور سيالة وخانقة لم يرد شيمون أيضا أن يستسلم لإغرائها المؤلم، لو التفت مرة واحدة فقط لتوقف وأجهش بالبكاء وعاد. حين غيبتهم التلال الصخرية تماما وأمعنوا صعدا ونزلا في طرق ملتوية ومتشابهة وسط طبيعة غرانيتية جرداء، كانت إيزا تحلم بأن يتخذوا يوما ما قرار العودة بنفس السرعة التي اتخذوا بها قرار الرحيل... وكان شيمون يعد الخطى الباقية نحو الذرى الصخرية الحادة، الخط السري الذي يحد عالمه الأليف والحميم، حتى أدنى نوع من هوام شقوقه، العالم الذي يعرفه كما يعرف كف يده، وبعده يأتي المجهول، التيه والأرض الخلاء... أطلت الشمس من ورائهم بأشعة باردة وسريعة الإنكسار. ترتع في أماكن استقرارها المصطفاة بهية وزعفرانية، والظلال ثقيلة في الأماكن الأخرى المنبوذة لم تحرر الأشياء بعد من عماها الليلي، كانوا يبدون من بعيد ببقايا

الظلمة المتمسكة بآخر نأمة حياة، وبالهالة النورانية التي تقذفها الأشعة الأولى وراءهم فتتشكل أماما خيالات هائلة، بالوحشة والنظرة الفزعة واليائسة التي يتابعون بها انبلاج النهار الفضاح كعائلة مقدسة خرجت في الخلجات الأولى للتاريخ لتبني بخطاها أصل العذاب الأبدي للبشرية.

ستبكي إيزا مرة أخرى حين سيتعمم شيمون بشريط من الثوب فاقع الخضرة، ويكون عليها أن تتلثم وتحكم قب الجلباب حول شعرها المحلول، تخف أوهن من رأس نعامة مغروس في الرمال لضمان التباس عين تراقب الطريق من بعيد: بؤس حياة وموت معلقين في لثام وعمامة، في استدرار لرحمة غير مضمونة من كل دلالات العذاب الواضحة، في لعب على اختلاف متوهم، لقد قيل لشيمون أن يفعل ذلك، لأن قطاع الطرق يحسبون كل يهودي تاجرا، يخفي تحته كنوزا من اللويز والنقرة. لم يستطع قلب إيزا أن يصدق بأن نجاتهم يمكن أن تكمن في تفاصيل صغيرة. وفي الفجاج المتوحشة حيث يعبث تجويف الصدى بأدنى نأمة فيصيرها دويا مكرورا، وبمحاذاة الغابات التي فسخها اللهب، وبين التلال والذرى الجرداء تتصدع خطوات شيمون ويلتفت بلا كلل نحو كل الجهات ليرى القادمين شاهرين -إن كانوا إنسا- سيوفهم وبنادقهم، أو سباعا وذئابا شاحذة أنيابها، وبين الأوقات المتباعدة جدا كان يخرج الصرة ويوزع بينهم ثلاث ثمرات فقط، من نوع البوزكراوي الصلب، لا يكاد هو يحس بعبور الثمرة حلقه؛ وتمضغ إيزا لإسو لأن فكيه الصغيرين يعجزان تماما عن النيل من قطعة الحجر الحلوة، ثم تلوك ثمرتها طويلا بلا رغبة، بل بقرف وامتعاض كأنها تلوك غصة الرحيل نفسها، حتى تذوب بين أضراسها؛ وحدها جرعة الماء تقرقر في بطنها حامية وثقيلة، من أجل إسو ينبغي أن تقاوم رغبتها في الموت؛ والصغير، ذابل، مجهد، أخذ يقضي وقته مناصفة بين البكاء والنوم، يهد يديها في نوبات بكائه بالهدهدة المتواصلة. وحين يستسلم للنوم من جديد مبللا بالعرق و مختنقا بعاطفة الأمومة المحمومة التي تدفعها لتطويقه بقوة بيديها في حضنها، والجلاليب التي كانت رحمة في الليل والصباح

صارت فرنا معذبا وعبئا ثقيلا، تمسح العرق عن جبينه وتشده إليها دأبا وكأنها في اعتصاره العصبي الخانق تحميه من الشمس وقطاع الطرق والوحوش وعذاب الطريق التي لانهاية لها وكل قساوات العالم الطافحة...

تمضي الاثان بالوتيرة ذاتها، تتلكأ طويلا في المرتفعات وبحذر تنزل الأماكن الواطئة، وتتوقف قليلا فينفطر قلب شيمون ظنا منه بأنها تخلت عنهم، لكنها تعاود السير من جديد، وتسف التراب وراء حشائش يابسة... لم يكن شيمون في حاجة لحثها على السير بعصاه، تتحامل في كبرياء مدهش على هزالها وجوعها وعطشها والثقل الثابت على ظهرها، حتى لقم الشعير التي يمد كفه بها لفمها، تقبل عليها بتثاقل كأنها تريده أن يدخرها لهم... وفي المجرى اليابس لواد صغير دَارِسٍ ستحجم طويلا عن الشرب من بقايا متفرقة لماء كدر حميم يخنقه الترابَ ويجذبه باستمرار للذوبان في الأرض. لعلها هي أيضا منقبضة ومنغلقة على كآبة خاصة، يمسك بأذنيها ويسحبها إلى الماء، فتغمس شدقيها مليا وترفعه مبللا وهي تنفث نفسا قويا (حسرة؟! يأس؟!) يشكل في البركة دوائر لا متناهية، وترفع إليه عينين متعبتين تشتهيان أشياء أخرى، فتزيد هي أيضا من وحشته وعزلته، لقد بدد الصمت الذي انسابت فيه خطواتهم منذ فجر اليوم الذي خرجوا فيه، ذلك التواصل الحميم والنفاذ، استجابات معينة مكرورة، مقاومات، رغبات موقوتة، تآزرا في أوقات الشدة وذاك التآلف العجيب لأنفاسهما المتقطعة في سيلان وعورة الطريق وإشراقات الصفاء والدعة. كانت ملكوت بوحه الأثير.

ساروا عبر أماكن تشبه بعضها البعض، ترتع فيها الشمس في تفرد ألوهي، يرجفون بصلوات يائسة ويتابعون برعب تراكب الخيالات والظلال المتحركة على طول المنحدرات حتى تصير قطاع طريق دمويين يتهافتون نزلا في صخب ولا يصلون. ساروا صامتين يكفكفون دموعا لاترى، كأنهم يشيعون جنازة كون هَدَّهُ لهبان الحر حتى رمض التراب.

في ليلتهم الثالثة، مكومين في العراء الصقيل، تَهْبَ هبات برد آخر الليل القاسية، إيزا تحضن بلا حراك إسو، تسند رأسها بصرة الحاجيات الصغيرة، وشيمون متكئ على ظهر الأثان الجاثية في غفوة يقظة ومنتبهة، عين نائمة وأخرى مفتحة، تقرأ تضاعيف الظلام وسطوره، وكل حواسه تصيخ سمع ما قد يعتمل في إبهام العتمة المحيطة من حركات مهددة، ويده لا تفارق العصا، سلاحه الوحيد في وجه كل ما قد يتفتق عنه الظلام... لحظات قليلة كانت كافية ليجد نفسه محاصرا بحشد من الكلاب المتطايرة كالشرر، النابحة كجلجلة الرعد. تمالك نفسه ولوح بعصاه قاعدا ثم واقفا، تراجعت... ترامت من جديد. من روعه كان شيمون يعتقد بأن المدى كله صار من حولهم كلابا... يبتلعها الظلام لحين، ثم تتداعى من جديد، محكمة طوقها عليه وحده، وكأنها لم تنتبه لايزا برغم صياحها الحاد... لقد انتهت الأرض الرمادية، الصامتة، بعد ثلاثة أيام من الإستدراج القاسي والتكتم، إلى إفراز كل عدائها المخبوء دفعة واحدة.. لم تكن كلابا بل تجسيدات لكل كائنات مخاوفه. فجأة وكما ظهرت اختفت لصفير خافت انبعث كرحمة من عالم آخر، وعندما لم تعد رجلا شيمون تسعفاه تهاوى إلى الأرض. كان قد أيقن بعزلته وضعفه فلم يعد قادرا حتى على الوقوف، فاكتفى بالتضرع للرجل ذي القامة القصيرة والملامح الضائعة في العتمة، لكن الرجل لم يهو عليه بعصاه، بل قال له بصوت خافت: "مَاتْخَافْشْ أولْدِي" ومد له يده بالسلام.

كان الرجل دليل ركب زوار يدلجون في ما تبقى من ظلام الليل، يخففون قساوة هبات الريح الباردة بأذكار جنائزية، تحاكي في تدفقها خبيب خطاهم، لم يكترث به أكثرهم. والقليلون الذين سلموا عليه دون أن ينتبهوا لإيزا، أبدوا دهشتهم إزاء المكان العاري الذي اختار المبيت فيه، وساروا، وحده دليلهم بقي بجانبه يستفسره.

كان الزوار يقصدون إحدى الذرى الصخرية قرب آيت عتاب، حيث توجد قبة مولاي بوعنان، الجد البعيد لقبيلة رحلها أحد السلاطين عن آخرها

إلى الجنوب. ومنذ ذلك الزمان الغابر دأبت القبيلة على لملمة شتاتها كل عام للذهاب لزيارته واستدرار بركاته. وأمام هذه الإلتفاتة الإلهية، لم يسع شيمون إلا أن يربط ممتنا مصيرهم بمصير الركب طيلة السبعة أيام التي تفصلهم عن القبة، وأن يخضع لسيرهم الدقيق والمريح بالقياس لاندفاعه الأخرق بإيزا وإسو. كان الركب يسير من منتصف الليل حتى الضحى ومن العصر حتى المغرب، فيتفادى أكثر أوقات النهار قسوة وإرهاقا. ولقد أمكن شيمون أن يتحرر من كل مخاوفه حين رأى مع الأشعة الأولى عالم الأشباح الذي يسيرون ضمنه، كان أكثر الركب يتكون من عجزة يكادون يسفون الأرض في مشيهم، ومن مرضى يسيرون على إيقاع أناتهم، وممسوسين يرنحهم السر العظيم التاوي في صدورهم، وأقطاب يجترحون وسط تسليم عام كرامات متتالية ليس أقلها التبول والتبرز على مرأى من الجميع، وبهائم أخذت تنبعث منها نتانة موتها القادم. وحده قطيع الماعز يطفح بالحيوية ويبدي صمودا مثيرا للغيرة في وجه الشمس والطريق، وإن كان يطفئ رغبته في الإحتجاج الشديد على يباب الأرض بضجيج لايكاد يتوقف. وتحررت إيزا من لثامها الخانق وأرخت قب الجلباب لتنفلت خصلات نافرة من شعرها أمام دهشة من خدعوا بتنكرها، وهم قلة قدر لإيزا أن توجد بجانبهم؛ أما الباقون، فقد كانوا مشغولين بآلامهم وعاهاتهم وقوة شوقهم للولي الصالح، وتجدد إيقاع سير الاتان هي الأخرى إذ لم تكن حالتها سيئة إذا ما قورنت بحالة أكثر البهائم التي، وبالإضافة إلى ركابها، كانت تنوء تحت أحمال تثقل عظامها وروحها. وضاع صراخ إسو في الجلبة العامة...

مر الركب بدواوير متقدة ومنتحبة، فلحق بهم أناس يريدون الموت في مكان آخر أكثر مما يريدون الزيارة، وتوقف في الساعات القائظة للإستراحة، فاقتسم الزوار بينهم التراب في التوهم الذي تخلقه شدة الحر والجوع. وحول جذوات النار في الليالي الطويلة الباردة، تحلق الرجال للذكر والحكي عن كرامات الجد، ورددت النساء أغانيهن الحزينة. وطيلة الرحلة كان شيمون يتوجس خيفة من صاحب العلم الأخضر، ذي الحاجبين المتشابكين والقامة

المديدة والمشية المنكسرة كمشية لقلاق، كان من رؤساء الركب الأكثر نفوذا وحركة، ومنذ أن رأى إيزا لم يسقط عينيه الماكرتين عنها، وبرغم أن حمله للعلم كان يقتضي وجوده في المقدمة، فإنه أخذ ينتحل أسبابا لتخلفه قرب النساء. في الليلة الخامسة صحا شيمون على خشخشة زحفه نحوها على أربع، فكح وتململ في موضعه، ودون خجل، توقف ذو القامة المديدة، وصفق بيديه: "الله الله، ياسلطان الجن، يَالَمْصَيَّرْ التراب سْمَنْ، لاَتْخَيَّبْنَاشْ يَامُولْ الديوَان والميزَان، قَاصْدِينَكْ أمُولاَيْ عبد الرحمان" إيذانا باستئناف المسير، وفيما بقي من الرحلة أخذ يرشق شيمون بنظرة حانقة ومتوعدة.

أدرك الركب أماكن مقفرة نفضت المشيئة يديها من العناية بها، أقسى من كل تلك التي رأوها، أراضي صالحة للزراعة مفسخة ومشقوقة كأنها فرشت ببيوت العنكبوت، كانت الحياة المعلقة في تويج النخل وحده بارقة أمل، فكت الأسارير المنقبضة للوجوه الكالحة المغبرة، تزاحم أناس الركب في زمن توقفه بالنهار على الظلال الهزيلة المتفرقة، وفي الليل على الأماكن المحمية بالجدوع الميتة من ضربات البرد، ومن أفواه الفلاحين اليائسين، علموا أمر الحروب الشرسة القائمة في كل البلاد بين المستعمرين الفرنسيين والقبائل المجاهدة، وأحصوا بأصابع أيديهم أسماء المدن التي سقطت وأسماء المدن التي تجري الحرب حولها، كانت طريق شيمون غير سالكة تماما من بني ملال إلى مكناس، فبلاد الأغراس أصبحت قرطاسا، نَزَّ عرق بارد من جبهته وامتلأ وجهه بأشد تعابير الإنقباض والألم، وتابع انفلات طائر أمله في الخلاص من صدره، وتبخره في الجو، واستسلم للدموع. كان بين طريقين آخرهما الموت، اقترب منه الدليل الذي حدس ضياعه وأكد له بأن بضعة ريالات للزطاطة يمكن أن توصل حتى طنجة، فهم يعرفون المسالك الآمنة وطبائع القبائل وتحركات قطاع الطرق وكمائنهم، بل إن بعضهم يموت ولاتمس شعرة من الذي استجار بهم.

في اليوم السابع وفي أول شواظ من نار الشمس لاحت القبة البيضاء للولي، هناك في الأعالي في آخر مسلك متعرج بين الصخور وفروع الصبار

وتعريشة الزقوم، يحاذي في كثير من المواضع منحدرات سحيقة مرعبة أجبرت الركب على أن يتسلل في خط تسند فيه خشية الانزلاق البهيمة البهيمة، وتشد اليد الثوب الذي أمامها في مجازفة جماعية، إذ كان يكفي أن لا تثبت رجل في مكانها لكي يدوي انهيار الكل في التجويف السحيق. انتشر الماعز صعدا بقفزات جذلى، وحده يملك سر الإنفلات من القانون المذل للجاذبية، وابتدعت الكلاب لاهثة، طرقا طويلة ولكنها غير خطرة، تردد شيمون قبل الصعود وكان سيغالب تجدد مخاوفه، ويدفعهم لرحلتهم المتوحدة، ولكن وأمام إلحاح دليل الركب، وحاجتهم للراحة، وأمل العثور على بعض أوراق الحبق التي تصلح عصارتها لشفاء الرمد هناك في القمة، والأهم من كل هذا أمام استماتة ذلك الإحساس بالأمان والحماية الذي منحته إياه قوة الركب الوحيدة: يقينه بوجود نهاية لكل عذاب، هناك في القبة المعلقة بين السماء والأرض، رغم ضعف أكثر من ضعفه، وعذاب وخوف كعذابه وخوفه، لم يستطع أن يقاوم رغبته في اختبار قوى الجد الخفية، وشهادة الصياغة الملغزة التي سيعدل بها مصير أحفاده القاسي.

تعالت التكبيرات والإبتهالات مع تكشف القبة لأول الطالعين: منبسط صغير، تربعت القبة في وسطه، وصف من شجيرات الصبار، وشجرة زيتون ذابلة، وحشد من الزوار ممددين على التراب، ومستندين على بعضهم أو على حوائجهم، تلهبهم شمس الهاجرة، وبضع مجانين تمسكهم في نوبات فوضى أجسادهم سلاسل ثقيلة وصدئة ومثبتة في حائط القبة، وبرغم وجود القبة في هذا العلو الساحق كان الجو خاملا ومتثاقلا سرعان ما امتص حماس الصاعدين ودفعهم هم أيضا للتثاؤب والصمت، فأدوا شعائر لقائهم بالولي غارقين في وقار كئيب. أخذ منهم البواب وباقي خدام القبة حق الزيارة وتركوهم يبللون بدموعهم غطاء القبر ويتلون مطالبهم الكثيرة والتي تفترض الإستجابة لها من طرف الولي ببساطة تغيير العالم. إنزوى شيمون بإيزا وإسو والاثان بعيدا قرب الصخرة المصقولة بأفواه اللاثمين، مثوى جلسات الجد التأملية الطويلة، ومنبر حجاجه المضني مع الجن، ورأى أحد

خدام القبة يعيد سوق قطيع الماعز عبر المسلك المتعرج، لم تكن هناك بئر بجانب القبة ولا عين جارية، كانت حاجة الزوار من الماء تصل في قلل فخارية كبيرة مشدودة بحبال فوق ظهر بغلة هيأها الولي لتتحمل بلا تلكؤ ولا شكوى العذاب اليومي للصعود والنزول الدائمين. لم اختار هذا المكان المتمنع لخلواته؟ لم جعل في آخر خطوات الفازعين إليه في اللحظات الحالكة عذاب المسلك المشرئب لعنان السماء؟ أكان يريد حقا من أحفاده أن يتحلقوا هكذا حوله؟ أم أراد أن يعيشوا مصير يتمهم بعيدا عنه؟...

في الليل تخاطفوا لقم كسكس ناشف حريف، وتحلقوا للذكر والأمداح في الوسعة القريبة من الباب، ثم أخرجوا بنادير كبيرة، وضعوا فوق كوانين حديدية بقاريج نحاسية كبيرة، وأخذوا يؤججون نارها. وسخنوا البنادير حتى أصبحت تصدر طنينا حادا ومدوخا، وبدأوا بأصوات مبحوحة مجهدة وعلى الإيقاع الرتيب لخبطهم يصدحون بأذكار حزينة مولهة، ثم تسارع الإيقاع واهتزت الأجساد، تخط له في الفضاء المعتم تجسيما حركيا، كانوا يهتزون من أعماق أرواحهم، لم يكن طربا، بل ذوبانا في استيهام استحالة العالم إلى إيقاع، تشظ للجسم المنغلق على نفسه والمنعزل عن العالم، ولحاقا بالجسم الكلي الراجف، المأخوذ بحمى التكرار. اعترضوا بأفواههم ماء البقاريج الحامي حتى تعالى بخاره، مضمضوا به أفواههم. ثم نفتوه عذبا زلالا. التسليم! وضربوا جباههم بمطاوي حادة حتى تفجرت دماؤهم. التسليم! ثم خروا إلى الأرض، صرعى توق مبهم لحفر الفناء في أجسامهم.

في الصباح استفاقوا على الركلات الخفيفة للبواب وباقي خدام القبة، علموا وقلوبهم تأكلها الدهشة والأسى، بأن الولي وقف على البواب في الهزيع الأخير من الليل، وأخبره بإذنه لهم بالإنصراف مباركين. جمعوا ذواتهم وقوفا حين ثقل الركل. وانحدروا، تمسح حرارة دموعهم الفائرة طراوة الصبح الندي. أخف حملا، غرقى في صمت خذلانهم، بعد أن ضاع الماعز الصاخب، منكسين علمهم الأخضر، وأعادهم لفح الشمس حين وصلوا المنبسط الشاسع للبدء القاسي: مهانة البقاء...

ابتعد الركب في رحلة عودته القاتلة، وشد الدليل هو أيضا على يد شيمون بحرارة، بعد أن بين له طريقة التعاقد مع الزطاط، والإحتياطات اللازمة، وأوصاه خصوصا بضرورة البقاء يقظا إزاءه فقد تتحول عنايته خلال الطريق إلى خطر حاذق، ودله على أقرب دوار ثم هرول حاثا الخطى وراء الركب. حين بقي شيمون مسمرا، فاغرا فاه ومتحفزا بكل قواه للصياح لم يكن يريد أن يوصل سؤالا آخر عن الطريق للدليل الذي أخذ يبتعد، كان فقط يريد أن يجيبه الركب كله عن سؤال مذهل:إلى أين ترجعون؟ إلى أين؟...

في اليوم الرابع عشر من شهر يوليوز ألف وتسعمائة وستة عشر، تحت شمس لاتطاق، وفوق آثار هروب أغلب أهل القصبة، كانت سريات الخيالة والمشاة وبطاريات المدافع وبغال المؤونة والعربات مصحوبة بموسيقى عسكرية مجهدة وحزينة تعزفها فرقة وصلت لتوها، تمر أمام عين الجنرال اليوطي الوماضة بالفرحة، في ساحة المطلق القديم. بينما ملأت طائرتان حربيتان سماء القصبة الصغيرة، فحلقتا على علو منخفض مرارا فوق الدور المهجورة التي ردمتها وأحرقتها قنابل الميلينيت، كان عرضا عسكريا مرتجلا حرص الجنرال على تحمل عناء حضوره شخصيا، ليؤشر على ان مقاومة قبائل سهل تادلة قد انتهت، وأن حرب الجبل الطويلة والقاسية قد بدأت.

في ورقة من مذكراته مؤرخة باليوم نفسه، سيكتب الكولونيل أوبير أحد قواد الحملة التي حققت ذلك "سقطت قصبة بني ملال في أيدينا للمرة الثانية بلا مقاومة تذكر، اللهم مقاومة الناموس والمالاريا".

الحملــــة والنامــــوس

عندما اضطر الكولونيل القاسي وبعد حروب خائبة إلى التراجع إلى حدود قصبة الزيدانية، وفرسان ائتلاف قبائل بني موسى وبني عمير -الذين استماتوا في الدفاع عن دار ولد زيدوح- يلاحقونه. حَصَّنَ موقعا هناك، وعسكر أياما نفض فيها عن نفسه وعن جنوده غبار الأرض الرخوة والهزيمة والرعب. وعوض أن يتراجعوا إلى مناطق أمنوها بفظاعات لا تحصى، كما اعتقد باقي الجنود، دفعهم إلى السير في خط شبه مستقيم نحو قصبة بني ملال. كان الكولونيل يريد نصرا، وبأي ثمن، وكان يؤمن بأن هزائمه السالفة، ترجع إلى أنه حارب بلا سند عدوا وهميا، جبانا، يتقن التراجع عند المواجهة، ثم يباغث حين لا تتوقعه، في أرض عارية ومفتوحة من الجهات الأربع. جرجرت المدافع والعربات وبغال المؤونة في أرض مليئة بالمستنقعات، وكانت كتيبة الكوم، التي بوسعها الموت في كل لحظة وبكل فدائية من أجل مجد فرنسا، ولكي لا يداهم الكولونيل أو باقي فصائل الجيش، في مقدمة تجفل في كل مرة لخشخشة سلحفاة أوقفزة ضفدعة إلى الماء، فيسب الكولونيل هيئة الأركان التي تجند الأطفال. والحملة تتقدم ببطء قرب أطلال تاكرارت، رأى الكولونيل بمنظاره قصبة بني ملال والقصر الرابض فوقها كفلك سيدنا نوح، ثم أمكنه أن يتبين بنادق بوحبة الطويلة تتدلى من فتحات أبراج سور المدينة، ابتسم، هو ذا عدوه كما يشتهيه، مرئيا وثابتا، قال لمقربيه بأنه يحب الوضوح حتى في الحرب، وأن ما خاضوه قرب دار ولد زيدوح كانت حربا بهيمية لاشكل لها ولا طعم، إلا طعم القسوة المجردة من السمو الإنساني. تحركت الحملة، كان بمقدور الكولونيل أن يتبين

بأن الخط الذي تسير فيه غير سالك. لقد غاصت أرجل كتيبة الإستطلاع حتى الركب، وخب الخيالة ببطء شديد كأنهم يسيرون على عجين، وأبت البغال أن تتقدم، واختفت بعض العربات. وبعد مئات الأمتار، ستدخل الحملة بساط السمار الموحش، المسمى الولجة، ملتقى مياه عين أسردون وعين داي وعين سيدي العربي حين لايحتاج الفلاحون مياهها. لكنه كان مأخوذا بتلك النقطة البيضاء الملتبسة التي ستمنحه مركزا حاسما لتطويع سهل تادلة كله. وهو يفكر بالأمر، داهمتهم أمواج الناموس الكثيفة الرمادية التي كانت هاجعة فوق أعواد السمار فسدت الأفق كالضبابة العوراء، وفككت انتظامية وتلاحم الحملة، انشغل الذين كانوا يحركون المدافع والعربات والبغال بدفع ضربات الناموس عن وجوههم، وفي المقدمة كان الكَوم الذين لم يعودوا يمدون بنادقهم في الفراغ فألقوها فوق أكتافهم بلا اكتراث يجثون في الماء الموحل حتى تجتاز رؤوسهم أسراب الناموس، ثم يعاودون الكرة من جديد. حاول الكولونيل أن يصرخ فيهم، لكن الناموس كاد يملأ فمه فخرج صوته مكتوما كأنة ألم مزمن. تابع برؤية مشوشة وبكل صخب قلبه، الخزي الذي يلحقه السود الذين اعتادوا العري، بزي فرنسا العسكري. اشتد الصهد، وصار الجنود هشيم نار بيضاء غير مرئية، نار فوارة، انطمست الحملة في رمادها. وأخذت عيون العرق التي تفجرت في صدغي الكولونيل تدحرج معه كميات من الناموس. كانت الحملة تراوح في مكانها منذ ساعات، وآلمه أشد الألم أنه في اللحظات التي أصبح فيها تحت رحمة عدوه، لم يعد في مقدوره المناورة فحسب، بل حرم أيضا مصدر شرف فخور مثله، وهو نعمة إصدار الأوامر، وليكن أمر التقهقر أو الإستسلام، وبعد حياة حافلة أصبح كأي من حثالة المقدمة، مغلوبا على أمره، يهش الناموس وينتظر الهلاك. حين يفتح الزنوج أفواههم وتبرق أسنانهم من شدة اللمعان لاتعرف هل ينتحبون أم يضحكون.

وعلى نحو ما توقع الكولونيل، وكإمعان في تعذيب وإذلال الحملة الهائمة، تسربت الشمس من بين فتحات سربل الضباب الشفاف الذي كان

يضاعف الصهد، ولكنه يقي من ضربات الشمس المركزة واللافحة. لم يكن بمقدوره رؤيتها مع غشاوة الناموس المنيعة. غير أنه أحس بها في مؤخرة رأسه ثقيلة نارية وكأنها تستهدفه هو بالأساس. وحين أخرج منديله الأبيض ومسح العرق ودهس في الطريق آلافا من الناموس، ثم حركه في الفراغ الراكد ليجلب هواء طريا، كان بمقدور أعضاء الفرقة الميكانيكية، وبغال المؤونة أن يروا من الخلف إن أمكنهم ذلك، مؤخرة الكولونيل المبللة بالعرق والمطرزة بالناموس وهو يقف فوق العربة ليستطلع في يأس مصير الحملة، وحين جلس كان قد أيقن بأنها قد استحالت سلسلة من العميان الضائعين. كبحار تحطمت سفينته في أعماق بحر لجي، وبدون حتى القدرة على الصياح، تمسك بآخر بصيص أمل، وهو أن يحرك منديله في الفراغ ليعجل عدوه بتخليصه. بعد محاولات عدة لثني عربة الكولونيل عما عزمت عليه، اضطر للانتقال إلى عربة أخرى غاصت هي الأخرى في الماء الموحل، وانتهى الأمر بالكولونيل محمولا فوق محفة مرتجلة. ينوء تحت ثقلها أربعة جنود سود، بينما انهمك آخران في هش الناموس عن وجهه، وقد دأبا في حالات سهو متكررة على مطاردة الناموس حتى بشرة الكولونيل، فيجن جنونه، ويتشنج، لكنه لايستطيع الصراخ.

تضاعفت أسراب الناموس. وحين كانت تتحرك مراوح السمار باتجاه وجه الكولونيل، كانت تدفع أمامها موجة منه. تتوزع على أذنيه اللتين ثقلتا، فأصبحتا توصلان الأصوات حفيفا متقطعا، وخياشيم أنفه، فلا يستطيع أن يكمل شهيقه لئلا يوصل الناموس إلى داخل صدره وعينيه اللتين سدهما نهائيا. ولما أحس الكولونيل رغم تحوطه الشديد في إحكام ربط حزام سرواله وزر قميصه جيدا، بالناموس يصل أمعاءه. لم يعد يطيق الصمت، أخرج مذكرته التي ما مسها أبدا إلا في الليل، فأخذ يكتب، بعينين مغمضتين وبخط يحاكي الناموس نفسه في ضآلته وتشتته، أوامره ويلقي بها إلى أيدي القريبين منه، وإلى الماء الموحل.:

- "قولوا للقردة أن يكفوا عن اللعب، وليشهروا بنادقهم".
- "أنقذوا المدافع، حتى ولو ضاع الباقي".
- "أقسم بمريم العذراء أنني سأقدم فرقة الإستطلاع للمحكمة".
- "أنقذوا العلم من الوحل...".

بالرغم من أن كل الأوراق إنتهت إلى الوحل، فقد كان من المستحيل على الذين تلقفوها فرز الخطوط عن بعضها بعينين شبه مغمضتين، ولقد خربش الكولونيل دون أن يتبين أوامره فوق كتابة سابقة، وحتى لو قرئت فإنه سيتعذر تماما تبليغها بالأحذية المثقلة بالماء الآسن، وقد ترك سديم الناموس منذ أول الخطوات التي خطوها فيه، كل واحد موكولا لنفسه، وترك الضياع التام للجميع، ضياع لاتتبين معه الذي بجنبك، و بالأحرى كتيبة الكوم التي مضت بعيدا، وحامل العلم الذي استعمله عكازا يسنده، والمدافع المشتتة التي عشش بداخلها الناموس. بالرغم من كل ذلك أحس الكولونيل بعودة روحه، وبأنه يمسك من جديد بزمام الأمور، لذا مزق بحماس المذكرة كلها، وخط سيلا من الأوامر لم يقرأها أحد، ولم تؤثر في الهيام العام للحملة، وبعد الأوراق الأولى التي تساقطت، ولم يعد يعبأ المقربون منه بالإمساك بها، بدا وكأن الكولونيل، بمحفته وأوراقه المتطايرة من حوله، يقود حملة انتخابية فاشلة وليس حملة عسكرية.

بالحيطة والحذر، وبكل التؤدة اللازمة، كان الكولونيل قد قدر بأنه سيصل إلى قدم الجبل مع غروب الشمس، وبعد أن يستريح الجنود في الليل سيبدأ حربه الخاطفة مع فجر اليوم الموالي، لكنه أحس وهو يرى تلك القاسية المعذبة تميل للغروب بأن الحملة قد لاتصل إلى هدفها أبدا وبأنهم سيجدفون إلى ما لا نهاية في مستنقع الشيطان هذا، وبعد أن نفذت أوراقه أحس بعزلة قاتلة، ضاعفتها السرعة التي نبت بها الليل في بساط السمار الأخضر الغامق. بدون أن يعطي الأمر، خفت قبقبة الأحذية تدريجيا حتى توقفت، فركنت الحملة إلى سكون كالموت. في العربة التي نقل إليها الكولونيل

استسلم تحت دثار الناموس في غفواته المتقطعة لتهيؤات مرعبة، رأى خلالها نفسه يُذْبَحُ على أيدي أعراب غلاظ، بينما كان الگوم يسقطون متخبطين في الوحل من الإرهاق وعدم القدرة على النوم وقوفا، فيروع الكولونيل للصوت معتقدا أن الأعراب قد قدموا، ويكشط عن وجهه الناموس الهائج، ليرى القمر يومض ببسمة ساخرة ولامبالية، ومحمولا فوق فيض أشعته، أمكنه أن يرى جنوده مكومين فوق العربات، ويرى الخيالة يشبكون أيديهم حول أعناق خيلهم الجاثية لكي لا يسقطوا من الإرهاق، وساليغان ينامون وقوفا تسندهم البنادق والخوف من السقوط، أو يستعملون مدياتهم الحادة لقطع أكوام من السمار، ويشكلون حول بنادقهم أعشاشا لا يصلها الماء، ثم يقبعون فيها كالغربان.

كانت الحملة في الواقع بقايا محزنة لمعركة آلم الكولونيل جدا كونه لم يمنح الفرصة لخوضها، ولكي لايظل نهب اضطرامه الداخلي وضربات ضميره، انشغل بحصي نجوم ليل لن ينتهي. لكن، وبعيدا جدا جدا، ليس في زمن الله الغفل المماثل لذاته في كل حين، وإنما زمن الكولونيل اللزج الثقيل وعلى إيقاع آلام ضلوعه وظهره، وهبات قلبه، والارتهان القاسي لمصيره، وبعد زمن سحيق، عاد الصباح والناموس والشمس والسير المتعثر بلا هدى، وذلك الحفيف الذي وضع الكولونيل بعد أن اشتد الصهد مرة أخرى على عتبة الجنون: أينك أيها الخلاص.؟ انطفأ الكولونيل بعد حين في غفوة مستسلمة ويائسة مالبث أن استيقظ منها منتفضا. ولما تهاوى من فوق المحفة وغاص رأسه في الوحل، لم يكن يشك بأنه تلافى طلقة كانت ستخترق صدره، طلقة وحيدة، أمكنه أن يتبين بأنها لعلعت في المقدمة، وبعد ذلك جاء الرصاص من كل الجهات، حبا الكولونيل على أربع، كما حبا الذين كانوا بالقرب منه، وفي اللحظات الفاصلة بينه وبين الموت الأكيد، ووسط أنين الإستغاثة، وصياح الروع، والضربات القوية في الماء للبغال النافرة، ووابل الرصاص المنهمر، أصم مهجورا، يائسا. أمكنه فقط أن يصيح بكل قواه المبددة: المربع، شكلوا المربع... لكي لايحصد جنوده

رؤوس بعضهم في ردهم الفوضوي على عدو يأتيهم أبدا من كل الجهات، وأسلم نفسه للقبقبة والإختناق والغوص كلية في الماء الراكد، ولأن ضربة الرأس لادواء لها، فقد كانت مصدر عذاب زائد. فالرأس التي كان عليه أن يحميها داخل الماء، هي نفس الرأس التي كان عليه أن ينتزعها انتزاعا ليعب هواء مرا وثقيلا، لم يفعل طيلة تخبط الحملة في عالم الوهم المائع غير توطين نفسه على الإنتظار المستديم للموت، لكنه لم يفتح صدره للرصاص كما كان يعتقد أنه سيفعل، بل غرس يديه في الطين بوحشية دامية بحثا عن منفذ في تشبت رهيب بالحياة. كانت حربا ضروسا في محيط الكولونيل، جُنْدلَتْ فيها بعض البغال وسقط قتيل وبعض الجرحى برصاص لم يُعلم مصدَره، وضيع هو البقية من تماسكه و صلابته. وغير بعيد كان الزنوج يقيمون عرسا صغيرا فوق الأرض الصلبة التي وطئوها أخيرا، لقد شهق أولهم وهو يتحسس الأرض قوية تحت رجليه، ولم يتمالك نفسه مثلما فعل كولومبس وهو يرى أمريكا. فأخرج طلقة فرح وخلاص، أعقبتها صيحات وطلقات فجرها البعض في عماه ويأسه دفاعا عن النفس، تجاه عدو غير مرئي. كان فرحا مدمرا وقاتلا، وبين زخات الرصاص، وهم يلتقطون أنفاسهم، وكما في حلم يمزج النقائض، سمع المنبطحون في وسط ومؤخرة الحملة، ضحكات مجلجلة... واستمروا في الإحتماء وإطلاق الرصاص، فالعدو في تقدمه المظفر أتى على المقدمة وأمام تفاهة وفوضوية المقاومة أخذ يخترق صفوفهم بالضحك وحده، ضحك صاخب وحاد، ضحك أشد من القتل. سيعلم زنوج المقدمة، وبعد أن بددت فرق الوسط والمؤخرة قواها ورصاصها، بأنهم في الوراء لايشاركونهم فرحتهم، بل أن بعض زخات الرصاص آتية من هناك تمرق ملعلعة فوقهم أو بجانبهم، فيخوضون منبطحين مساجلة كلامية طويلة مع من كانوا يحملون محفة الكولونيل. شرحوا لهم فيها حقيقة الوضع، صمت على إثرها الرصاص. وخرج الكولونيل بعد حين كتمثال من طين، ولما وطأ الأرض الصلبة ماكان يشك بأنه وطأ حقيقة الأشياء. كل ما سلف توهم، بحر سحر اجتازه مغمض العينين. وخرجت تباعا مختلف فرق الحملة، لم يكونوا آدميين، بل كائنات غريبة أفرزتها

الخميرة الخاثرة للطين والماء والطحالب، تقدم الكولونيل بمشاعر متناقضة، فرحه بالنجاة وغضبه الشديد على الزنوج. لقد كف العالم عن الوجود بالنسبة لمعظم حواسه، فما عدا الأصوات الرتيبة للأرجل والعربات وهي تشق طريقا عصية، كان صمتا يسترخي بثقله الكاسح، تبدو معه تلك الأصوات كرفرفة جناح طائر صغير في سماء سحيقة، كان الصمت يسترد كل ما تصدره الحملة من أصوات، وعوض أن تكسره تقويه، فيضطر الكولونيل ليهمهم لنفسه ليتأكد بأنه لم يصب بالصمم، ولم تكن الحركات الفظة واستشاطة اليدين اللتين حارتا بين تحسس المسدس وتهديد الزنوج بالقبضة، إلا كمثل الحركات الرعناء التي يقوم بها ثور هائج فك إساره. وخارج بساط السمار كان الناموس في دكنته كوشاح حداد شفاف يلف كل شيء. أخيرا صار بوسعه أن يرى موطئ قدمه، وأن يلملم دفعة واحدة المنظر البئيس للحملة، ومن حسن حظ زنوج المقدمة أن فلاحين كانا منهمكين غير بعيد بتعديل شبكة تبن كبيرة فوق بغل قلق، افتر ثغراهما عن بسمة بريئة وهما يريان كوكبة من الزنوج يتقاطر الوحل من ثيابهم يحيطون بهما من كل جانب، ويقودونهما نحو الكولونيل، ليخوض تحقيقا مملا وخائبا، لقد أراد أن يعرف تحركات القبائل الأمازيغية في الجبل وعدد البنادق والخيل ومعنويات الناس، لكن الترجمان الذي كان يخلط نقله لكلام الكولونيل بالتهديد والوعيد، لم يحظ إلا بجواب وحيد: لانعرف. واستمر الشيخ ثاني الإثنين -رغم أعراض الغضب ونفاد الصبر التي بدت على وجه وحركات الكولونيل- يواجهه بنفس الإبتسامة الواثقة والمتعالية. ولما وجه أصبعه مباشرة إلى وجهه وأرعد، لم يجد الترجمان فائدة في تكرار الوعيد الشديد الذي تلفظ به الكولونيل. وبقيا وجها لوجه بلا كلام، ملئت بسمة الشيخ بشفقة لاحدود لها، وخيل للترجمان أنه سيربت على كتف الكولونيل ويحضنه قائلا: "لماذا تحمل نفسك كل هذا العناء" غير أن هذا الأخير حسم الموقف. وأخذت كوكبة الزنوج الشيخ إلى جدع شجرة قريبة وسووا ثيابه وعدلوا عمامته كأنهم سيأخذون له صورة، رجعوا بضعة خطوات، صوبوا بنادقهم، وحين فجروا الطلقات ظهرت علامات الرضا

على وجوههم، كأنهم أهدوه طلقات الرحمة والسكينة، يفعلون ذلك في كل الحروب التي خاضوها تحت العلم الفرنسي، يقتلون بلا تشنجات، ولاحقد على العدو، وكأنهم في حالة دفاع دائمة عن النفس، لقد ظلت بسمة الشيخ تشع من وجهه وفوهات البنادق مصوبة نحوه. وقال بهدوء للترجمان: « *قل له هنا حَدْ المخزن، كم شهدت هذه البلاد من حَرْكَات وحملات التأديب والتطويع... كم مرت من جيوش وخربت وحرقت وقتلت. لكنهم حين يمضون تزهر البلاد من جديد*». ولفرط مانفدوا من إعدامات، وصلت دربة الكوكبة درجة أهلتها لمنح الموت دفعة واحدة لكل عضو من أعضاء القتيل، ثمان طلقات توزعت على جبهته وقلبه وبطنه وعانته وكتفيه وركبتيه، لكل هدفه، هو ذا القتل العادل الذي لا تتجمع فيه الروح في عضو وتنتفض وتحشرج، بل تتسرب كالبخار من الثقوب الثمانية وتمضي... قبل أن يتهاوى الشيخ أزهرت في جبهته وتشاميره الأبيض ثمان أزهار حمراء كشقائق النعمان، وظلت بسمته خارج رعب الموت الذي يساق إليه، خارج التاريخ الذي جاءت الحملة لتصنعه هنا. وعندما ارتطم وجهه بالأرض خيل للكولونيل بأن التراب كله يتسم تحت أرجل جنود الحملة، ظل الفلاح الآخر، الأصغر سنا مهملا ومجمدا من الخوف، وحين أعطي الأمر للحملة بالتقدم اقترب منه الترجمان وأسر له بأن يهرب ويخبر القبيلة بكل ما رأى، ماكان يشك بأن الرصاص سيخرق مؤخرة رأسه ورقبته وظهره بعد بضع خطوات، لذا تسمرت رجلاه في المكان ذاته، فاغرا فاه، ومجيلا بصره ببلاهة ويأس، انتبه له الكولونيل وأخرج مسدسه وصوبه نحو جبهته. لكنه أرسل الرصاصة بين رجليه، وصاح الترجمان: إهرب. فمضى متعثرا بركبتين فاشلتين، يلوي عنقه ليرى الرصاص القادم، ويعوي ككلب جريح، وعندما أصبح بعيدا، انطلق كسهم نحو القصبة.

على بعد كيلومترين من القصبة، وقرب النخلة الوحيدة بالمنطقة التي قاومت الصقيع والغربة والعزلة حتى انتصبت شاهقة لاتسامى، حطت الحملة وصنعت تلالا من التبن والتراب والحشائش، نصبت فوقها المدافع.

وتخندق المشاة في أحزمة دفاعية أمام الخيام الصغيرة، وصباح اليوم الموالي وفي ظلمة الفجر الشفيفة أخذت المدافع تعصف بدور القصبة وغابات الزيتون المجاورة، وهناك في قمم الجبال المجاورة كان الملاليون يرون بمرارة وحزن كبيرين قصبتهم وقد استحالت شريطا من الدخان. رحلوا حين أخبرتهم عيونهم بأن عدوهم آت بقوة لاقبل لهم بها، وروعتهم أساسا تلك القدرة على القتل من بعيد، حيث لاتملك الضحية الفرصة لرؤية قاتلها، فتتجمد العينان على صورته كقطعة زجاج وتمضي بها إلى القبر، وتخلف الآه والإستغاثة جرحا في نفسه لايندمل. روعهم القتل النظيف المتقن، حيث تنزل القنابل من السماء كغضب الله ووابل المطر، فوق رؤوس الأبرياء الغافلة، سَرَوْا يدفعون أمامهم قطعانهم، ويحملون مااستطاعوا من متاعهم ومؤونتهم في دروب جبلية صعبة أجبرتهم على التخلي التدريجي عن أحمالهم، ولما استقروا، استقروا عرايا حفاة وجياعا...

لقد انسحبت بنادق بوحبة من فوق أبراج الأسوار، ولم تفتح الأبواب الثلاثة الكبيرة المقابلة: باب السوق وباب تادلة وباب بليزيد، كما كان يتوقع الكولونيل ليخرج منها الفرسان كهبات ريح قوية، يندفعون في حمى شهوة عارمة للخلاص، شاهرين صدورهم في وجه الرصاص المنهمر. إنهم يدركون بأنهم لن يصلوا عدوهم أبدا بخناجرهم ومداريهم وطلقات بنادقهم التي لاتتجاوز أعراف خيلهم، فليست صدور أعدائهم هي هدفهم، إنه توق إلى ماوراء مدهش وسعيد، يغذيه باستمرار الدين والثقافة والشعائر الإحتفالية المرافقة لاندفاعهم. لم تكن الحروب التي خاضها الكولونيل ضد القبائل الكثيرة كالطلح المنضود. هي ماتصوره قبلا الحرب الميكانيكية الباردة حيث ينجز الحديد بلمسات خفيفة فعله التاريخي الحاسم بأقل مايمكن من ألم، لقد جعل اللاتكافؤ الكبير بين المدفع والخنجر الحروب أعراسا مريرة للدم، وهذيانا للغرائز الوحشية الأكثر عتمة، الصرخات الحادة التي تجر السماء لتنطبق على الأرض، الإقدام الجسور، سحب الدخان والغبار، صليل عدة الخيل ورعد المدافع، والفرسان المضرجون في دمائهم

تلف وجوههم في النزع الأخير غلالة من رضا عن النفس، فلا شيء أسرع زوالا من نصر عسكري. يموت الفرسان وقد ثبتوا في أعينهم وميضا بعيدا ومتعاليا كنجم قصي، لا إستسلام ولاخضوع، والخيل الجاثية أو النافرة أو الممدة في ساحة المعركة تنفث زبد الجهد والعناء، والخيل الحائمة حول فرسانها الذين نثرتهم في الغبار الطلقات التي لاتخطئ والبنادير والطعاريج والمقصات المعلقة في السروج المذهبة، لا للإستنفار والتهييج، ولكن لضمان داخل الخبيب المروع نحو الموت الأكيد، ذلك الإلتباس التام بين الشجاعة والتهور...

إستمرت المدافع تقصف القصبة بجنون، والدخان يعلو ويعلو. ونفس الغموض والصمت يقابل وابل القذائف، لم تفتح الأبواب ولم تلح ولو إشارة حياة واحدة، فحول الكولونيل فوهات المدافع نحو الأغراس، وغابات الزيتون المتمنعة، لعل الفرسان يكمنون بين الأشجار ويتحينون فرصة تحركه نحو القصبة لمباغتته. مالت الشمس للمغيب والكولونيل يؤجج نار حربه الغريبة ضد الأشجار والصمت والغموض، ويحمس جنوده الذين أصابهم الملل والفتور، وتحولت الخفة والدقة اللتان كانوا يحشون بهما المدافع إلى تلكؤ وتمارض. فمع مرور الوقت فقدت المعركة في أعينهم سحرها ومبرراتها وصارت بلا معنى، لكن الكولونيل كان في منتهى الوضوح مع نفسه: إن أقوى أعداء فرنسا في حروبها هو التسرع، فلا المقيم العام ولاالضباط الكبار، ولاوزير الخارجية ولا الرئيس نفسه، ولاجوقة الصحافيين الثرثارين، يتفهمون المخاطر التي تجابه الحملات في كل متر من الأرض تجتازه. لذا لن يتقدم، ولن يذر حجرا فوق حجر، ولاغصنا فوق جدع، سيطمر عيون الماء، ويفسد الهواء بالدخان، ويحرض الغبار، سيجعلها عارية مفضوحة تشهر استسلامها من بعيد...

غارقا في بركة من العرق ومختنقا برائحة البارود أرقا من فرط الإجهاد ومن ضغط رغبته في استنفار الجيش في هذا الوقت من الليل لمعاودة قصف القصبة، فوجئ بخيال يتردد في اقتحام الخيمة. كان الأمر بالنسبة لطبيب

الحملة في غاية الأهمية، ومن شأن موقف عاجل أن يخفف من فداحة الإصابات غير أنه وأمام باب الخيمة تردد طويلا رحمة بالكولونيل الذي لم ير النوم من مدة طويلة، وحين داس فيض شفقته فوجئ بهذا الأخير جالسا على سريره وشاهرا مسدسه...

إنها المالاريا، وهناك حاليا سبع حالات عاينها الكولونيل شخصيا، ورأى أرواح أصحابها تتبخر على شكل هذيان دافق بفعل نار الحمى. ثم رأى الحملة الهائجة المرشحة كلها لأخذ العدوى، وقر قراره على أن حربه قد انتهت. كان الطبيب يكرر بإصرار تخالطه نبرة استعطافية: "يجب إخلاء المكان حالا"، وهو لايسمعه، بل يسائل أعماق الظلام في تلك الجهة التي تكومت فيها الدور على صمتها ومناعة تاريخها، فيردد المحيط الكثيف المعادي صدى مهيبا: "لقد خسرت". ومشوشا بصرير العربات، أخرج نصه الأثير وبحث طويلا عن فقرة معينة. كانت السفينة المكينة البناء قد وصلت بسرعة إلى جزيرة السيرانيس، إذ ساقتها إلى الأمام في طريقها ريح معتدلة رقيقة. بعد ذلك كفت الريح في الحال، وخيم سكون لاريح فيه، وأنام أحد الآلهة الأمواج، فنهض رفاقي ونشروا الشراع، وبسطوه في السفينة الواسعة، ثم اتخذوا أماكنهم عند المجاذيف، وأثاروا الزبد على وجه الماء بمجاذيفهم المصقولة، المصنوعة من خشب الشربين. أما أنا نفسي، فنهضت وأمسكت سيفي الحاد، وقطعت به قرصا من الشمع إلى قطع صغيرة، وعجنت القطع بيدي القويتين، فلان الشمع في الحال من الحرارة والضغط الشديد وأشعة السيد ميليوس هوبيريون، وبعد ذلك سددت آذان رفقائي بهذا الشمع، كل واحد بدوره، ثم ربطوني في السفينة، يدا وقدما، منتصبا عند أسفل السارية وربطوا أطراف الحبال في الصاري نفسه، ثم جلسوا، بعد ذلك، هم أنفسهم يضربون البحر السنجابي بمجاذيفهم، ولما صرنا على مدى سماع صياح المرء إذ يصيح، نشق طريقنا بسرعة وسط الماء، لم يفت السرينيتان رؤية السفينة السريعة وهي تقترب، فأخذتا تغنيان أغنيتهما الواضحة.. وتاق قلبي إلى الإصغاء، فأمرت زملائي بأن يفكوا قيودي، مشيرا إليهم بحاجتي، ولكنهم

انهمكوا في مجاذيفهم وراحوا يجذفون بجد.. واجتزنا جزيرة السيرانيس، ولم يكن في مقدورنا بعد ذلك أن نسمع صوتيهما أو غناءهما. لكن وهو يلتفت استطاع أن يتبين في أقصى الأفق الدور البيضاء وأبراج السور وبحر الزيتون الأخضر الموحش، والسماء الساكنة وتدفق الخوف من جديد في قلبه، ليست دورا مايراه بل عظام القتلى الذين أغوتهم الجزيرة بسحر منظرها وأصواتها، وأدار وجهه ليسلم نفسه للقراءة من جديد...

مبتدأ الأحوال وما بينها من الأخبار

في الكهوف الجبلية التي لازالت ترتسم عليها حفرا وتخطيطا مشاهد لكائنات تمد أقواسها ورماحها شاردة تجاه حيوانات غريبة تهب أعناقها للموت في أريحية كاملة. في المشهد المتوهج الذي يتكرر مفرغا من كل الدم والتوتر، وفجيعة البقاء المتنازع عليها، وكأن الحيوانات لن تقتل، وكأن الكائنات القاتلة أشكال لكيوبيد متنكر...

في بحبوحة هذا الزمن الذي لم تجتحه العصبيات بعد، ولا التاريخ؛ كان الإنسان الذي تسلل خلسة ـ كما تقول أول جملة من حكايتنا الكبرى يتعلمها الصغار ـ من شبه الجزيرة العربية عن طريق الحبشة ومصر، مثلا ملاك يرفل في نعمة النسيان، محفوفا بدبيب النسغ في الطين، وبكل ماتبذره الريح والمطر في انتشائهما المرح، كان العالم يكتمل في مشية متحسسة على أطراف الأصابع. فتنبثق الكائنات من رحم التكوين الحامي خجولة مندهشة في خفة لم تثقل بعد بالرغبات، في خفقة لم تسكن بعد بأخلاق المغالبة والقهر وسورة المنازعة...

عن إبن لهصمي شيخ رواة القبيلة : أن بني ملال لما لم يكن لها وجود البتة إلا في العلم الإلهي، كان البحر وسط سديم من الضباب الكثيف يضرب بأمواجه العاتية أطراف الجبال المجاورة، وكانت البراكين الفائرة ترمي حممها لتتشكل على هواها قمم وفجاج ومنحدرات صعبة، وفي دهشة التكوين هذه تنازعت بنتا عمومة الجبال المجاورة كما تنازعتا حب سيف بن ذي يزن، فكان من نصيب الكبرى الجبل الأزرق حتى مراكش لهذا سميت الثريا الزرقاء. وكان من نصيب الصغرى الجبل الأحمر حتى مكناس وفاس

فسميت الثريا الحمراء. ومع وله النساء الذي لا سبيل لكبحه، وبسبب كيدهن الغادر قيد لبني ملال وهي لم توجد بعد أن تحظى بالمجد الخالد لمرور سيف بن ذي يزن، وهو غراب، من سمائها في رحلة مسخه القاسية، بل إنه نزل في إحدى الذرى الجبلية المشرفة عليها، وذرف من كربه دمعة حارة فوارة تسللت بين الصخور حتى استقرت في رحم المياه المتلاطمة للبحر العاتي، فوهنت الأمواج وصارت حركة البحر جزرا مسترسلا بلا مد، لم تكن الدمعة عنصرا مائيا، بل ناري نفثته نفس مكلومة يحرقها الأسى.

ولدت بني ملال من دمعة حارة...

وجاءت القبائل تمتطي صهوة عصبيتها، جاءت القبائل مهتاجة تستنفر ضغينتها وغلها :

غل سراب الصحراء على قطوف الخصب.

غل الشمس على الماء.

غل القفر على غصن ورد.

غل العراء على الأماكن الدافئة.

غل وبر الخيام على الجدران.

غل البدو على الحضر.

وتتكوكب في اليباب ريح صرصر عاتية تنهب وتحرق وتقتل، وتمضي بالقبيلة دما في السيوف، ورائحة نفاذة في مواسير البنادق، وأسلابا مجرورة أو مكدسة في خرج البهائم والجيوب...

من يملك أن يوقف الريح ؟.

وجاءت حملات التطويع وجحافل الجند والمتعب الباحث عن نصر سهل، والمجد الكاذب والأحلام المتهافتة لعواصم بعيدة، وضياع القبيلة تحت سنابك الخيل المتلاحمة أو المتمطرة، والجثث المجندلة بالرعب والسيوف،

ومسارب القمح المنهوب، وشظايا قلل الزيت والسمن والعسل، والبهائم المبقورة أو المسلوخة على عجل، والتاريخ ذلك المختال الكبير المكتوب في العواصم البعيدة مخلوطا بالكذب والأوهام، المكتوب هنا والمطموس لتوه بالدم والحرائق والعشائر المبادة أو المرحلة بعيدا، حظيرة نتنة لعائلات متناحرة من أجل هباء السلطة، ولاشئ، الكراسي المذهبة، حروب بين شرعية وادعاء ما فتئا يتبادلان الأدوار. وردة تعفرها رغبات القواد الأكثر ابتذالا، وانحطاطية صغر الجند الشرسين.

من يملك أن يوقف الجند؟.

وجاءت الطائرات محومة كتجل فجائى لطائر خرافي ينفث النار، وحصدت الناس في ذلك الصيف الدامي، والمدافع مسحت الناس والعمران والأشجار. والضباط أنجزوا بحرفية مذهلة ماتعلموه في الأكاديميات الدموية من دروس الإبادة. والضربات الخاطفة، والواقية، والرادعة والقاضية، والحروب السريعة والشاملة، والإستنزافية. ورسالة فرنسا الحضارية المضنية وسط قساة متوحشين، لن تمدنهم إلا القنابل الملقاة سهوا في الأسواق وكثافة النيران وديناميه الرعب...

من يملك أن، يوقف التمدن ؟.

القبيلة والغرباء

من كان يصدق بيبينو حين يقول بأنه بسبب رهان رابح مع فرنسي في حانة قرب المرسى بالدار البيضاء امتشق عصا الترحال، وطرق كل الجهات ليخط بالجسد الضئيل الساقط ترجيعة البعد القصي عن مهوى قلبه كازا. لقد ناطح بيبينو۔ كما روى حتى الملل ـ فارسا ينتسب للأسطورة، يصطك تحته الإسفلت وتذيب أصابعه الحجر، ويجلس في الأصيل يتأمل البحر والسفن الكبيرة الباحثة عن الرسو تشبك حبالها الغليظة بأصابع رجله ولاتطرف له عين، وينهض ليفرغ في جوفه حمولة قارب من السمك المتطاير، ثم ينتهي إلى حانة مدام جورج ساحل إضطرابه وجبروته ليطوح بعاصفة من كؤوس الخمر، ثم يسحب جثته الهائلة إلى مستودع خرب ككلب جريح وينام.. ولم يكن هناك انصراف. يكفي أن يصل غطيطه إلى جنبات الميناء ليحس الإنسان بظله الإلهي جاثما كاسحا مقتدرا كأسد في أجمته، وبما أن أسدين لا يمكن أن يجتمعا في عرين واحد، فقد كان دخول بيبينو ذلك المساء إلى الحانة، حدثا استثنائيا في الإختلاطات اليومية الكثيرة. كان سيشرب كأسا ويعرج بعيدا، وقد قادته الكأس إلى كأس أخرى وأخرى... وأرادت في تلك الليلة بالذات مشيئة أسد الميناء أن يخرج كل الرواد ليبقى وجها لوجه مع مدام جورج، ليرفع لها كعادته عينيه المحمرتين النهمتين، ويدعوها لتسقيه، فتتقدم بحذر ما يفتأ أن يزول، حاملة قنينة خمره المفضلة، وتواجهه على الطاولة برباطة جأش مدهشة، مدام جورج تعرف بعامل التكرار والتعود، أن الأسد يتضاءل تدريجيا بفعل وهج عينيها وحده حتى يصير فأرا مغويا ذليلا لن يستطيع أكثر من مد يده الراجفة لتغوص في قناع الدهن السميك الحاجب لوجهها؛ أو لتلامس من فوق الثوب حلمتي ثدييها الكبيرين المتهدلين حتى العروة، وبالمقابل تربت هي

على خده بضربات خفيفة وتمسد شعره وتدعوه للإنصراف، فينصاع مخدرا منتشيا كأنه خارج لتوه من الفردوس أو من رحم الأم (سيان). في تلك الليلة خرج الجميع، وبقي بيبينو غير مكترث في البداية، ثم متصلبا ومتحفزا لما رأى الأسد يحدجه بنظرات قاسية ومنذرة. فبادله بنظرات مماثلة. لمع البرق في دخان الحانة، وتكلم الرعد وتطاير الشرر. فتبين لمدام جورج أن الحانة لامحالة ستؤول للإنسحاق التام تحت أرجل الجبارين، فعرضت حلا وسطا قضى بأن يتبارزا في الشرب حتى يسقط الواحد منهما الآخر. وعلى امتداد التاريخ المحلي وفي سياقاته المختلفة، كان بيبينو يكيف الوازع الذي دفعه لدخول التحدي بحسب مقتضيات الأحوال، فمرة مبعوث خلية سرية من خلايا المقاومة لكسر شوكة أحد رموز العنهجية الفرنسية، ومرة يفسر الحماسة التي خاض بها معركة الشرب بعاطفته الدينية المتوقدة، التي أحيت في تلك الليلة طقسا جهاديا لايقل أهمية عن معارك صلاح الدين، وفي معظم الأحوال يتذرع بدافع الشهامة والنبل، لقد أراد فقط تخليص تلك البئيسة، ذات الخمسين عاما الفائضة بالشحم ومرارة الترمل من سطوة دائمة، وأن ينشر العدل في سماء الميناء المظلمة؛ لذلك جرجر أسد الميناء في النهاية مدرجا في انكساره وقيئه وبرازه وبوله؛ وبقي متماسكا، يواصل الشرب لعيني مدام جورج الكبيرتين كعيني بقرة؛ الحالمتين في حضرة الرجولة الخارقة؛ لرموشها الخافقة في فتور؛ لذهولها المطبق وشفتيها الراجفتين بكلمات حب ساخنة... وماذا بعد غير خواتم أفعاله السافلة و التي تخلق دائما لدى من عرفه رصيدا لاينضب من المقت والإزدراء، فقد بصق في التجويف المعتم بين جذري ثدييها؛ وقلب الطاولة بما فيها؛ وأفرغ كل مافي الخزينة في جيبه، ثم خرج مزهوا ومدام جورج تشيعه بنظرات حالمة ممتنة؛ أوقع هذا حقا ؟ وماذا لو كان هذا الذي سمي أسد الميناء، ليس إلا بحارا محطما منخورا بالرطوبة والملح، جالس بيبينو في ركنة مهملة في حانة مقصية. ولما احمرت الأعين وثقلت الألسن، ارتطمت كلمات منفلتة بكلمات، فكان رهان بريئ على كأس أخرى وهما على حافة الإنهيار، وكانت أعصاب البحار ومعدته في الحضيض فسقط هو الأول ؟ وماذا لو كانت مدام جورج (لن يقال نحيفة، فكلهن في الحانات ثخينات كالعناكب. ينسجن خيوط غوايتهن في حذق ويسقن رجالا إلى الإفلاس والجنون والتشرد. وهن مترسبات في مجرى الزمن يراكمن الشحم فوق

اللحم) مكتنزة كبرميل وثدياها يتدليان في بحبوحة من أرضعت كل أطفال العالم أولا أحد، ووجهها ممسوحا بالطلاء الأبيض الكثيف، ونظراتها نهمة ومفتوحة على الجميع في دعوتها المستديمة. ولكن بالداخل صحراء باردة ينيخ بها الرجال كالجبال فيما يحسبونه ظلا ويتحررون قليلا من أحمالهم، قبل أن يعاودوا رحلة العطش واللامعنى. ان الرجال في الحانات يثيرون الشفقة لا الحب ...

لو كان إنسان غير بيبينو لانهد من فرط الإحراج حين كان يأتي من الدار البيضاء من يقول بأن تلك التي حاصرته بحبها وسلطت عليه قساة بمطاويهم الحادة يطلبون رأسه حيا أو ميتا لم توجد أبدا؛ وحين كان يبتسم بحارة قيد لهم في عبورهم للقبيلة أن يسمعوا الحكاية : حيث يوجد البحر العتي تكون العضلات هباء، والتسلط هباء. إنهم لم يعرفوا أسدا غير البحر، ويمضي بيبينو معاودا سرد نفس الحكاية ـ ولتنطحوا رؤوسكم بالحائط ـ لعل مدام جورج اختفت بعد ذلك، عادت إلى فرنسا أو أنها تهيم في الوديان والتلال والغابات زاهدة في الحياة تتموج في أذنيها كلمات بيبينو وتهتدي عيناها برفرفة صورته، والبحر بحر، والناس حيثما وجدوا تسلط بعضهم على بعض، ويبتسم في خبث للذين كانوا يمازحوه فيخبروه بأنهم رأوا نصرانية ثخينة في المحطة تسأل الناس عنه؛ من هو إذا بالضبط هذا الرجل القصير الذميم ؟ الذي صادف نزوله من حافلة شيمون بلولو في مساء يوم جمعة أضحى بعيدا، كارثة محلية.

كانت القبيلة تنوء تحت إقامة طويلة لضباب سخي كمد البحر، حين مزق خمولها دوي أعقبه صراخ وحين وصل الناس مبلولين إلى المكان، لم يعد هناك إلا أنين متقطع يصعده الخراب...

تفرق المسافرون كعادتهم بإتجاه كل المنافذ دون أن ينظروا في وجوه بعضهم، وبقي وحيدا غير عابئ بالمطر، يجيل بصره في فضاء الساحة، ثم تحرك بإتجاه السقاقي، وقرفص بالقرب من حانوت بائع الخبز وأخرج عقب سجارة كان قد جمعه من تحت رجل فرنسي في الحافلة، وعب منه بعمق

دفعات حتى احترقت شفتاه. كان الليل ينزل مع القطرات الرهيفة ويتجمع في الزوايا وانحناءات البنايات، والأبواب تصطك تباعا، ولمبات الغاز التي أشعلت لتوها ذؤابة صغيرة تختنق في الظلام، وما لبثت هي أيضا أن اختفت، فأكمل الليل إناخته الحزينة والموحشة فوق مغارة الحياة، بقي متجمعا على نفسه في وحدته القاسية، والريح الباردة القوية وراء الركائز كالجلمود، ترتطم بالفراغ المظلم وتواصل انحدارها المدمر باتجاه السهل...

كان يلبس في رجليه الصغيرتين كرجلي طفل، حذاء رياضيا أسود وبلا جوارب، وعند الكعب تجمع السروال الطويل الفضفاض في طيات كثيرة، والركبتان كنهدي عذراء، كان بلا ساقين ولافخدين والسروال مخنوق عند الحوض بحزام مشدود حتى آخر فتحة، وفوق الصدر أمسك بيديه المعروقتين اليابستين بطرف السترة الضيقة التي لاأصداف لها وشدها بقوة الواحد فوق الآخر، وكلما سقط ذقنه فوق صدره ووخزه بالشعيرات المتصلبة، في نوبات النعاس المجهضة والمتباعدة، كان يسحب يديه ثم ينتبه لنفسه ويتململ فيرخي رأسه على الجدار البارد...

في العتمة الليلية الوحشية، والسماء الخانقة تنطبق على الأرض، ولاحذاء يرتطم بأحجار الساحة، ولاصوت غير خشخشة المطر الرتيبة في قصدير سقف قريب، واندفاعات الريح المفاجئة، في امتداد وحدته اللانهائي، ولاانبثاق لومضة، ولاإشارة لحضور الآخر، حضور قد يكون مهددا، ولكنه مرغوب بقوة الإحساس الدافئ بأن هناك من يقتسم معك فضاضة العالم. كان واضحا تماما وشفافا. والحكايات الملتبسة المتناقضة التي ستحيط بشخصيته من صباح تلك الليلة في نقطة الصفر وجه كالح من طينة الوجوه التي خرجت إلى العالم معجونة بالفحم والتراب والجوع والبرد والضياع، بنية متهافتة تناوبت عليها الرزايا؛ رأس جرداء لازالت شعيرات قليلة في أطرافها متمسكة بوجود معذب، شعيرات ابيضت من مناطحة ما للزمن، وفوق الأنف الأفطس الذي سال على الوجنتين الحادتين، كانت هناك - للغرابة! - عينان متوهجتان لا وحشة فيهما ولادموع...

تؤوب القبيلة إلى نفسها في ليالي الشتاء الطويلة، وتستسلم لإنتشائها المكتوم، وحين تقفر الدروب ويستريح الماء في الطرقات، وتدوي الريح بعيدا وتمضي، ويسدل الضباب المحاصر بالجبل تغريبته الطويلة لايكون هناك وقت للغرباء. لم تكن القبيلة قادرة بعد على خلق هامشها، تلك الأماكن السرية، البسيطة التي ترقع الوجود في مصادفاته الدائمة،وجبات مرتجلة تقيم بالكاد الأود، وزوايا قد تغفو فيها وتحلم، أعقاب سجائر، سبسي يطوف بين الأفواه، حكايات مكرورة، هذيان محموم، وجوه متجهمة، ضحكات مبتسرة، ضربات بالأيدي والآلات الحادة، ترقب مستمر ومن غفل طارت عينه، مواويل حزينة، قمل وبرغوث، صراخ هيستيري، ويا ليل طل... لا مكان للغرباء إلا الطرقات المقفرة ومتكأ الجدران الباردة. وماذا غير ستة أسرة في فندق باريز، يعرض صاحبه بحس مباهاة في كل الأيام المشمشة ألحفتها البيضاء على الشرفات، لكنها كانت حكرا على الفرنسيين. وكان فندق الزهواني يستقبل رواده من الحمير والبغال ليلة الخميس فقط، ولمن شاء من السواقة أن ينام في أطراف الحوش بين البردعات والشواريات والسلع والركلات المحتملة للبهائم إضافة فرنك آخر. وفي الأيام العصيبة داهم لمخازنية بعصيهم الفندق وروعوا البهائم، وصفو النائمين بجانب الحائط وفتشوهم واحدا واحدا، وصادروا فرنكاتهم ومطاويهم.واستصدروا قرارا في الغد بفض الإشتباك الليلي بين البهائم وأصحابها، وتعهد الزهواني باستقبال البهائم فقط. وبعد شهور عادت الأمور كما كانت مع فرق بسيط وهو أن البهائم كانت تدخل في واضحة النهار مختالة في شرعيتها، بينما كان ينسل أصحابها وجلين إلى جانبهابعد أن يعسعس الليل، وقد يمر المخازنية من جديد لكنهم لا يرون شيئا ويروحون مبتسمين يحكون جيوبهم...

خبـــــــر :

(منذ أن فرض الفرنسيون سلامهم القهري بين الملاليين والأمازيغين، وانتهت الحرب الطويلة والمريرة للإستحواذ على ماء عين أسردون، تعطلت

بنادق القبيلة، ونكست الأعلام، وجفت الدماء في الأحراش والكهوف وجذوع الأشجار، وتآكلت الأحقاد وتصرم القتلى في مهوى سحيق بلاثأر ولانافورة دم، لقد كان النسيان سهلا أمام دوي المدافع، والتآخي العصي صار في الرعب وبالرعب ممكنا، ففتحت الصدور والدور في قمم الجبال في وجه الملايين في هروبهم الأول والثاني، آنذاك لم يعد الغريب الذي يذرع طرقات القبيلة مرغوبا،لم تعد عين القبيلة ترى فيه ساعدا وقوة ضغط على زناد شرفها وكبريائها. في أزمنة السيبة الطويلة، وموتى القبيلة لا يكفون لتأمين الماء، والدماء كالماء سواء، كان مبعوثون من الجماعة يجوبون البلاد عرضا وطولا ويصلون حتى البحر وتخوم الصحراء. وبفراسة تكاد لاتخطئ، كانوا يحدسون الجسارة : الإقدام، حب الحياة والاستخفاف بالموت، ولكنهم ـ وهذا ما كان يدفعهم لإرتياد الأماكن الخارجة لتوها من حرب دامية، نكبة أو مجاعة مهولة ـ كانوا يريدون الأهم : الرغبة في الإنتماء لمكان وقوم آخرين. كانوا يحصون زفرات التأفف، علامات القلق والتبرم، ويريدون عزابا وأيتاما ومكسورين، وتخرج القبيلة لاستقبال محاربيها الجدد بالحليب والتمر والزغاريد والحناء وشربة ماء من عين أسردون وبيت ونبتة زيتون يغرسها المحارب ويسقيها. في الليالي الباردة الطويلة،والخطوات الغادرة المتوجسة في مكان ما قريب، والأيدي متيبسة على البنادق، والبارود سيلعلع في الهواء ويطنطن في الصخور، حين يصير الموت رخيصا والقلب كقطعة فحم، يذكر المحارب عروسه تحت، ويذكر شجيرة الزيتون التي قد تختنق في الغد من العطش، فيصك على أسنانه ويضرب بلا رحمة...

ومنذ أن صارت قبائل بأسرها تنصب خيامها بجانب سور القبيلة وتطلب ضيافة الله، ولاتستطيع القبيلة إجلاءها ولا الفكاك من الوجوه اليابسة والأعين الغائرة التي تقتعد الطرقات وتموت وأيديها ممدودة للهباء،خبب الأنات، واسترخاء حالم بجانب الجدران، والأحداق تبحث في أفق بعيد عن لقمة، أنصاف موتى يزجون الوقت بحصي ضلوعهم ونقل موتاهم إلى مقابر جانبية، وأسراب القمل في هجرات كبرى تجوب الهياكل

التي نخرها الجوع، فضاء مطرز بسائل ذهبي تطرحه المؤخرات بلا انقطاع قطعا براقة في وجه الشمس، ويأكلون مالا يؤكل ولا يستقر في بطونهم : الحلبة، جذور إيرني وفروع الصبار...ويضربون بالبارود والعصي في أغراس القبيلة المليئة كهوف دورها بالقمح والشعير والذرة...

تاريخ تنكر وفظاظة مع الغرباء وعابري السبيل في أيام المجاعات،تاريخ كان طوع اهتزازات لحي شيوخ الجماعة وأنانيتهم الوحشية وإعراضهم المخزي عن القبائل التي تقتسم الموت البطئ بجانب السور وفي الطرقات برغم النظرة الفاجعة لجد ما اقتسم أهل القبيلة في زمن سحيق مع هذه القبائل الأخوة في دمائه. تاريخ متقلب ومخاتل سيدفع الجماعة للتراجع تحت ضربات المخزن التي لامرد لها، سطوة المدافع، اجتياح تلو اجتياح، ترسيخ مؤسسات كاملة للزجر والعقاب، قائد غر أملط لا مهابة للحي عنده لذا سيأمر بزجها... وعندما سيصير الشيوخ حطاما إنسانيا لا سلطة له ستستباح القبيلة وسيقهقه ذلك الجد بشماتة وجنون)...

حين أسلم بيبينونفسه للنوم في آخر الليل من فرط التعب، وسوى حنكه بالجدار البارد، يد تسنده فوق الأرض و الأخرى ممدودة في الفراغ تبحث عن همسة دافئة، عن أنفاس وخفقات قلب، كان الليل يخلي مواقعه، وعما قريب سيرى الذين خلدوا للراحة والذين خلدوا للعذاب صباحا آخر...

لم ينم غير ساعة، فقد جاء بائع الخبز وأحدث جلبة متعمدة فوق رأسه بصرير الأقفال، جمع بعدها بيبينو عظامه واستوى واقفا. حاول أن يضحك في وجه التاجر الذي لم يعبأ به ودخل، فقام بحركات رياضية خفيفة أمامه بدت مع حمرة عينيه وشحوب وجهه وفوضى شعيرات رأسه، رياء لاداعي له.

جال ببصره في فضاء الساحة التي أخذت تتضح معالمها، الأبواب التي تؤدي إليها يلقي أحدها بآدمي ليبتلعه آخر. وقد يمر قطيع بقر أو خراف يرج فضاء الساحة الصامت ويمضي. لأي سيسلم رجليه ؟ بقي وقتا قصيرا يتمعن

أو يراهن، وبدربة من خاض حياة تتوزعها الطرق الكثيرة والمتشابهة، وبغريزة بهيمية لاتخطئ، سار في الإتجاه الصحيح...

كان ميتا من الجوع والعياء، وبعد خطوات قليلة تلاحقت أنفاسه، وأحس بدوار خفيف وبرغبة في القئ توقف وفتش جيوبه كلها حتى المخروم منهالعله يجد عقب سيجارة منسي، وهو يذكر بأنه قام بذلك عدة مرات في الليل. تحامل على نفسه، وجمع بصقة أراد أن يعفر بها وجه القبيلة القاسي لكنه لم يملك طاقة دفعها بعيدا، فرست على صدره وعنقه، وعندما خرج من تحت السقاقي كانت الأشياء مستسلمة لدغدغة رذاذ خفيف وناعم؛ ورغم البرودة اللاذعة، كان انتشاء عميقا وعاما يدثرها وخصوصا أشجار التوت الكبيرة التي تتحرر لتوها من قطرات الليل الثقيلة، وتتنفس أغصانها العارية نور الصباح، أحس بانتعاش يدب كالخدر في تقاسيم وجهه، كان الزقاق خاليا أمامه تماما، والأبواب موصدة، والحيطان صماء، والأزقة الفرعية الضيقة تحمي ما بقي من عتمة الليل. الباب في وجه الباب كما لو أنهما يتبادلان الحراسة، والجدار يسند الجدار، والأعشاب على الحافتين المتقابلتين، تختلس القبل مع هبات الريح، وقطة تجتاز الفراغ الفاصل بأجفان مغمضة وحالمة، معمار طاعن في الشح والتكتم، لم يكن ليهز طاقة الإحتمال التي ادخرها بيبينو من طوافه الطويل بالبلاد. لقد اجتاز قرى تأكلها الشمس والغبار، ضائعة وسط أرض فاغرة صدرها المشقوق للماء؛ وسار هكذا جائعا ،متعبا في مدن منكوبة بالتيفوس والجذري وأيام بوهيوف،وانتزع لقمته في مختلف حالات شعب تقطع به الحبل. ودائما وفي مكان ما من المدينة أو القرية ومع إنسان مايخلع عزلته وينسج علاقة ينفذ من خلالها إلى خباياها وأسرارها، لذا خشي بيبينو فقط أن يفاجئه الباب الكبير ويلقيه للخلاء. بلافرصة واحدة لبداية كيفما كانت، لقد رأى القصبة والحافلة تنهب كلومتراتها الأخيرة من النافذة للمحة : دور مكومة على نفسها تركب بعضها البعض، يضغطها سور بأبواب كبيرة تحف بها أبراج شاهقة. رآها صغيرة ومتواضعة أمام الكلام الكثير الذي سمعه عنها...

بلا توقع وجد نفسه وسط ساحة أصغر من التي تركها. لكنها مليئة بالحيوية والحركة، وهناك إلى جانب حانوتين انهمك صاحباهما في نقل وصف مجموعة من الصناديق، رأى بدهشة مبتهجة مقهى منزوية غارقة في الصمت وفي الضوء الزائد عن الحاجة، الذي توفره لها لمبات الغاز الثلاثة. هل هناك أفضل من مقهى لبداية ما ؟ كان بضعة أشخاص ضائعين في جلاليبهم كفزاعات، موزعين على الكراسي والطاولات القليلة يرشفون بصمت من كؤوس الشاي والقهوة ويكحون من حين لحين، وبعضهم يمضغ خبزه بتأن شديد، وحين يتكلمون لضرورة، تخرج أصواتهم خشنة مبحوحة لاتستبان، وبالداخل وأمام غلاي كبير يرسل بخارا كثيفا، وقف رجل نحيف، وقد شمر عن ساعديه رغم البرودة، وانهمك بحركات عصبية في تدبير شؤون كثيرة. وحين التفت رأى بيبينو تحت العمامة الكبيرة عينين قاسيتين وشاربا هائلا يتفجر كثيفا بين الأنف والفم ويمضي متضائلا إلى ما لانهاية وكأنه يغزل الفضاء من حوله أو أويثبته، اليمين يمين، واليسار يسار، في الركنتين المتقابلتين،

في الزاوية المعتمة التي شكلها لقاء صف الصناديق بالحائط. وفي العراء المقابل الذي كان مقدمة انعطاف الساحة بإتجاه زنقة الحناجرة كان هناك رجل وكلب مقعيين على التراب، يرنوان بأعين شبه مغمضة وضارعة إلى أفواه الجالسين. وكلما خرج صاحب المحل يحمل كأسا وخبزا، يهتز الكلب ويبصبص بذيله، بينما يعدل الرجل من انبطاحه ويفرك يديه و يتلفظ، وحين يعود صاحب المحل إلى الداخل، يعود إلى التراب، ويلقي رأسه فوق فردة البلغة، ويضع الرجلين الحافيتين على الفردة الأخرى، ويدخل يده من تحت جلبابه ليحك إليتيه ويرنو...

كان بيبينو سيواصل السير لو لم ير أحدهم يلقي عقب سيجارة أخذ البلل سيري فيها، لكنها استمرت رغم ذلك ترسل خيطا رفيعا من الدخان؛ إنها تحتضر قبل أن تفسد تماما. التقت عيناهما لأول مرة. وارتدت نحوها. كانا يفكران في نفس الأمر. وهم بها بيبينو لولا رؤية الآخر يزحف نحوها

بخفة ويلتقطها بعصبية يعود ليعب منها بقوة وعمق، ومن خلال غلالة الدخان الكثيف الذي زفره بتلذذ شديد صعد النظر في بيبينو من القدمين إلى الرأس بأعين شامتة في الأول؛ وكما لو اجتاحه إحساس بالشفقة فرج شفتيه فيما يشبه ابتسامة، أو محاولة للكلام، وأشار إليه بالإقتراب. كان يجمع عقب السجارة بين أظافره الطويلة، وعندما دفعها لبيبينو ابتسم هذه المرة بوضوح، أخذها وقرفص بجانبه :

ـ منين الخوى ؟

ـ كازا ...

كانا يتبادلان الأسئلة والردود المقتضبة، وأعينهما متبثة على الطاولات والأيدي والكؤوس، على الحد الفاصل بين الإهتمام واللامبالاة. فقد كان بيبينو ينطق بكلمات لم يفكر فيها أصلا. وكان الآخر يسأل ويشيح بوجهه كأن أسئلته لار د لها.

لم يكن بيبينو يريد أكثر من الكلام، حتى ولو كان يائسا وبلا معنى. لقد فكر في الليل وقدر، ووجد بأنه خلق ليتكلم لا ليعيش ميتة الصمت حين تفيض ذاته وتطفو ويستحيل في ركنة جموده حجرا كالركائز والشرفات. كم ليلة قضاها معزولا ومجمعا على نفسه في دروب مقفرة و قاسية ينتظر الصباح كطائر بلاغريزة ولا حدس، تقوده أجنحته في توقه الأبدي للدفء والنور إلى حيث البرودة والظلام؛ لن يقول لأحد وطيلة العمر الطويل الذي قضاه ببني ملال بأنه كاد أن يجن في ليلته الأولى بها، فيخلع ملابسه التي كانت نافلة فوق جسمه لاتحميه من أي شئ، ويصرخ بقوة ويخبط الأبواب الموصدة، فكر لأول مرة في أن يلقي عصا الترحال بعيدا أو يكسرها ويستريح. وقد أعيته ساعات الصمت الطويلة. أكثر مما أعيته أيام الجوع والسير بلا هدى، والغفوات المعذبة المنتزعة بقوة من وادي الأرق الذي كانت تنساب فيه حياته عزلة متنبهة وقاتلة.

في هذه الليلة فهم بيبينو لماذا كانت أمه تحرص على أنينها وهي في أحلك لحظات احتضارها، لم تكن تئن من الألم، بقدر ماكانت تصرخ في وجه الصمت الكبير الذي تنقاد إليه روحها :

- كن راجل وغادي اتاكل حتى تشبع. قال له الرجل وهو يسحبه من يده : المهم، ماتكونش أجوبتك واضحة، إمضغ الكلام وغمغم...

لم يقو بيبينو على تخليص يده، كان الآخر يجذبه بقوة وإصرار غريبين، ومن حين لآخر يلتفت نحوه ويبتسم ابتسامة مشجعة ومطمئنة. انعطفا من جهة الصناديق ودخلا حارة ضيقة، كانت السطوح الواطئة تتخلص من المياه التي تجمعت فيها عبر أنابيب صغيرة وممدودة أفقيا في الفضاء، شلالات فضية براقة، وإيقاع منتظما لوقع ارتطام الماء بالأرض، قطعة موسيقية رتيبة مصاحبة لما يشبه مباراة بين الدور لإثبات فحولتها بأعضائها المنتصبة في وجد قذف أبدي، التصقا مرارا بالجدران حتى لا يدركهما الماء، وخرجا لاهثين إلى ساحة صغيرة، تجمع فيها الماء الموحل، كان يذرعها بضعة يهود بخفة مشمرين عن ثيابهم، ينطون إلى المواطئ القليلة البلل كآيائل فزعة، ويدخلون من باب خشبي هائل زين بدوائر نحاسية براقة. وفي تقدم بيبينو المتردد نحو الباب تناهى إلى سمعه صخب ترتيل جماعي حماسي. تعلو الأصوات فيه فوق بعضها في سعي حثيث لإدراك أذن الله البعيدة، ترتيل مشتت يجد وحدته في النغمة الجنائزية التي تغلف الأصوات كلها، في إبهامها تبدو كأنها خطاب موتى من العالم الآخر.

حاول أن يسل يده. لكن إصرار الآخر كان كاسحا، وعند الباب صار فظا ووحشيا لم يعد يمسكه بل غرس أظافره في معصمه، انتفض في وهنه الأقصى بلا جدوى، واجتاز به الآخر العتبة ودخلا القبو المعتم ولم يعد يجد بيبينو إلا دهشته وإصفرار وجهه، وتلك البسمة الطفولية المتفائلة التي ترى الآتي خيرا ليواجه هول مكان لم يفكر أبدا في حياته بأنه سيدخله...

اعترضهما الشماش الذي كان منهمكا في دق مسمار في حائط القبو. رجل طاعن في السن، لم يكونا ليلفتا نظر عينيه الكليلتين إلا بغرابة ثيابهما

القذرة، التي لا تلائم بأية حال قداسة السبت ومستلزماتها... ثم لقد حاذياه دون أن يحيياه وهو الذي لم يعتد أبدا مرور أحد أفراد العشيرة دون أن يفعل ذلك ويكلمه، ترجل عن الكرسي الذي كان يعتليه، ورأى أول ما رأى صلعة بيبينو المنورة في دياميس القبو. اتكأ الآخر على أذنه وهمس كلاما ارتج على إثره الشماش وأكب على يدي بيبينو يقبلها. لم تكن الفرحة الكبيرة التي استولت عليه تسع حتما القبو الضيق لذلك هرول متعثرا إلى الداخل، وجذب الآخر بيبينو بعنف شديد هذه المرة :

ـ أنت من سلالة الربّي شمعون بريوحاي... عاد وصلتي من فلسطين...غمم الكلام والباقي علي... ثم وهما قريبان من اللغط الذي عوض الترتيل داخل البيعة :

ـ ماتخافش... سبق لي جربتها في ابن أحمد...

خارت قوى بيبينو وسنده الآخر الذي أحس بتداعيه وفاجأهما الجمع الذي خرج يتدافع ليستقبلهما. يتصدره الحزان وشيوخ العشيرة مهللين، منتشين. دغل من الأيدي وفضاء من الصدور مر منه بيبينو، كان يلقي بنفسه عن طواعيه فوق الصدر المفتوح لعل هذ ا الحلم البغيض ينقشع و يتحسس ويشم الطيب الممزوج بالعرق ليتأكد بأنه لا يحضن أشباحا...

دخلوا به البيعة ورأى القناديل تحف بها والتي تبدو في ضعف نورها كنجوم قصية، رأى منبر القداس الأبنوسي الذي تكفيه أشعة صغيرة ليتألق، ورأى الثابوت المقدس والشمعدان والستائر المخملية الغامقة. ولم يتبين ولو إشارة واحدة تنبئه بأنه لازال في الأرض. أيكون قد مات ؟ وهو ذا العرش، وهي ذي النجوم وملائكة الرحمة والعذاب خلفه يدفعونه للحساب ويسدون باب العودة من ورائه. تلاشت بسمة الدهشة وأعقبتها للتو دمعتان لم يستطع بيبينو التحكم فيهما، فسرها الآخر مباشرة، بسعادة الحبر الرسول الغامرة فقد يئس مرارا من إمكانية الوصول إلى هنا لتحقيق أمر الهاتف الذي دعاه وهو في طبرية إلى الخروج في الفجر باتجاه المغرب الأقصى، حيث بلدة صغيرة تتفجر فيها العيون لوقع حوافر الحمير، ويسيل العسل فوق

أوراق شجر التين الوارف، ويتخثر الظل تحت سقف أغصان الزيتون الكثيفة. لقد قطعا سباسبا ورمالا ووهادا وجبالا. و أوشكا أن يموتا من العطش في صحراء برقة القاسية. وضيعا التراب المقدس في القيروان. وجردا من ثيابهما في تلمسان. واهتديا أبدا بالشعاع النوراني الذي كان يسبقهما و يرسم لهما خط المسير، وحين اختفى من أمامهما رأيا غابة الزيتون الغامضة التي لا تنفذ إليها الشمس، وتناهى إليهما من كل جانب خرير الماء يقطعه شدو مرح للطيور، فأيقنا أنهما يطآن أرضا لازالت تمور في براءة التكوين الأولى. ولم تكن تعوزه الأدلة، فقد كان وجهاهما وحدهما حجة دامغة، لرؤية شمس الصحاري التي لفحتهما، وتراب الطرق، وعذاب الجوع، وإجهاد الخوف والترقب والقلق. وكان الوصول يوم السبت وحده معجزة صغيرة جديرة بالإعتبار...

ألقى أحدهم بالطاليت فوق كتف الحبر الرسول الفاغر فمه، إذ أدرك بعد فوات الوقت بأنه وقع تحت رحمة الشيطان نفسه، وحرك باتجاه المنبرفي عقال إندهاشه. وكان تعثره في الدرجات القليلة التي بدا بأنه لن يصل منتهاها أبدا، مقدمة حتيمة لبياض الغيبوبة الثلجي الذي بدأ يجلل عينيه. وحين استقر مسنودا فوق أعلى درجة، وقبل أن يتهاوى رأى المؤمنين تحت، والذين لم تكن تنقصهم الحماسة بعد ترتيل الميكاموخا، يتهيأون لدخول طقس مهيب ستوشم به قلوبهم حتى الموت، ورأى الشيطان يعلق ابتسامة موزعة بين الشماتة والتشجيع، وكسر نظرته لتبين الموطئ الأقل قساوة وضررا الذي سترتطم به لامحالة رأسه، ثم أسلم رأسه للأرض. كان يريد أن يسند جبهته إلى كفه ليخفف وقع الصدمة على رأسه، لكن يده تعطلت في المسار الضيق للمنبر وسارت الرأس وحيدة...تفجر الدم...لم تكن جدرانا تلك التي كانت تعترض رؤيته الغائمة والهاربة، رؤية كالومض الخاطف،يعقبها للتو نوم ثقيل معذب بالوخز والكوابيس. كانت شيئا كثيفا، وطنيا، يمكنه أن يغوص فيه بأصبعه، تأتي أصوات متقطعة من تيهها البعيد جدا خافتة ومبهمة، ويأتي غمر الظلام بعد ذلك ثقيلا وطويلا ويصير خط النور مجرد ذكرى تدأب على الهروب بعيدا، ولكنها لجوجة، ففي نقطة تلاشيها الأكيد تعود لتوقف مسيرة الظلام، صحو مزعوم يسترده للتو نوم ثقيل.

بدايـــة ونهايـــة

كانت إحدى الحافلتين اللتين ربطتا القبيلة لأول مرة بشكل منتظم بباقي المناطق في ملك شيمون بلولو، والأخرى في ملك؛ سيئ حظ إسمه العلالي، وضع فيها كل ثروته وتفتت قلبه من المرارة والندامة، وهو يرى المحرك في الرحلات الأولى للحافلة التي شهدها رفقة السائق وبضعة ركاب وسيل من الرسائل التي لافائدة له منها ـ يكاد ينفجر في المسالك الوعرة للأطلس في رحلة العذاب تجاه خنيفرة. وبعد صمود بطولي لم يدم إلا أياما، إنهار تماسك الحافلة. وصار من الأمور الخارقة أن لاتتوقف في الرحلة الواحدة مرات عدة، فاضطر العلالي إلى سياقتها بنفسه وتحويل أجر السائق إلى ميكانيكي أخذ يرافق الحافلة بشكل دائم، وتفوق كثيرا في حدس عللها الكثيرة، وفي ابتداع وسائل الإصلاح غير المكلفة وفق اعتقاد سرع حتف الحافلة أكثر مما سرعته العقبات التي تجتازها، وهو أن الميكانيك فن أكثر مما هي علم، لذلك كان يستعمل و بضمير مهني مرتاح، الحبال وسدادات القنينات والقطع الخشبية و الخرق وقطع غيار من محركات أخرى لاعلاقة لها بمحرك الحافلة، في إعجاز ترميقي، جعل المحرك في أيامه الأخيرة يصبح تحفة أثرية من جيل المحركات البدائية الأولى.

في الأيام التي كان فيها الميكانيكي يحقق انتصاراته المتتالية ويدفع المحرك للسير برغم سحائب الدخان والفرقعات والاختناقات المزمنة والصرير، كان العلالي يضرب المقود ويقول مرة :«إن أولاد الحرام باعوه اللون الأحمر الفاقع فقط». ومرة، والحافلة تتأرجح في صعودها المستحيل :«الحافلة ليست عنزة»، ويلتفت للركاب، «هذه الطريق اللعينة تلزمها عنزة لا حافلة».

والركاب المتوحدون في الكراسي المقفرة يخنقهم الضجر والخوف من أن تتخلى عنهم الحافلة بين الغابات الموحشة. لقد أصبحت حافلة العلالي وبعد إصرارها النهائى على الموت حين أغمضت عينيها بلا رجعة قرب زاوية الشيخ، ولم تفلح في ثنيها على ذلك لا اللمسات العبقرية للمكانيكي ولاتكبيرات الركاب وصلاتهم على النبي وهم يدفعون هيكلها البارد الذي هجرته الروح. جزء من تراث محلي صدمته التكنولوجيا، وغذته دوما بالحكايات الملتبسة ذاكرة من قيد لهم أن يركبوها في غسق الصباح ويصلوا وهم على حافة الجنون في الليل البهيم، يهدهم تعب النهار وقد قضوه مناصفة مع الحافلة يدفعونها مرة وتحملهم مرة أخرى، وأصبحت في الركنة التي اختارها لها العلالي كمثوى أخير خلف محطة الوقود، أول تحفة في غد التكنولوجيا المتعثر بالقبيلة، وأول قطعة من نفاياتها...

لم يصدق في الشهور الأولى أن حلم غناه قد تبدد، ولم بفارقه الأمل في أن تنبعث من رماد شللها النهائى، وإلا لما تكلف العناء الرهيب لنقلها من زاوية الشيخ إلى هنا، ولكنه برغم حرصه على تلميع لونها وحراستها طيلة النهار، لم يستطع أن يمنع عنها لا الأيادي العابثة في الليل لممارسي الحب المعذب بين المقاعد، ولا المشردين الباحثين عن مأوى، ولا براز وبول القطط والكلاب البلدية الضالة. ولما أيقن أن المعجزة التي طالما انتظرها من الميكانيكي. الذي كان يتملكه الذهول وهو يتأمل المحرك بموضوعية كاملة تتبين لها في كل مرة وبعد فوات الأوان الحماقة التي كانت تدفعه للمجازفة بأرواح الناس في حماس الطريق الشاق لن تتحقق، سار إلى شيمون بلولو وكلمه بلهجة لا استعطاف فيها، وحذق في عينيه كغريم قاده الحظ العاثر فقط إلى الإستسلام لغريمه. ولما قبل تشغيله كمناد. ابتعد وفي ركنة مقصية أجهش العلالي بالبكاء طويلا لأنه لن يستطيع بعد اليوم العودة إلى سوق الزرع ليمارس كما كان، حرفة جدوده. وحاول وبمساعدة الخمر والكيف اللذين أدمن عليهما بوحشية، أن ينسف ذاكرته. في هذه المرحلة تعرف على بيبينو، آفة زمانه وإحدى المصائب التي نقلتها حافلة شيمون بلولو من

الدار كان العلالي يوفر لبيبينو كؤوس الشاي الدافئة والكيف والخمر، ولم يكن يريد من بيبينو إلا أن ينظر إليه بعينين لا شماتة فيهما، وأن يشاطره صراعه من أجل النسيان. النسيان فقط، برغم أن قلبه بقي متمسكا بشئ من الأمل والوهم يوزعه على الأيام لتذروه مع الريح. فقد كسر زجاج الحافلة تباعا، واقتلعت المقاعد، وحول الحداد ألوحا من حديدها إلى مجامير وأواني معدنية فظة، وشهد العلالي، بمرارة، هيكل الحافلة وهو يجر بعيدا دون أن يطلب منه الإذن، كأنه لم يدفع فيها دم جوفه. وحين اختفى نهائيا، أدرك أنه ماكان قلبه ليخفق داخل غشاوة من راحة لو لم ير هكذا غلطة عمره تختفي. ولم يعد يشده إلى المحطة سوى رؤية غريمه الذي اشترى حافلة جديدة، ودفعها إلى نفس المسالك الوعرة يساق إلى الإفلاس والجنون، وأن يتحول كرسي الخيزران الذي لايفارق مؤخرته طيلة النهار إلى مثوى للعذاب في الانتظارات الخائبة والحسابات الموجعة والهباء. لكن الحافلة كانت تمضي وتعود محترمة أوقاتها برغم ابتسامة الشماتة التي كان يشيعها بها العلالي، ابتسامة من يعرف المصير المحتوم لطموح جارف بلا حدود ارتطم أخيرا بصخرة صلدة. وبعد شهور اختفت ابتسامة العلالي ولم يفهم أين هي العقبات والإلتواءات والمسارات الضيقة والحافات التي تشرف على الهاوية ؟؛...وجاء شيمون بحافلة أخرى تسير هذه المرة إلى مراكش. وصار العلالي ينادي أو لاينادي، ولكنه موقن بأنهم باعوه اللون الأحمر الفاقع فقط... وفي دوائر الخيبة الشاملة تعود أن يجلس فوق الكرسي غارسا رأسه بين فخذيه، مضربا عن رؤية العالم من حوله، أو حاميا رأسه من هجوم شرس لطلقات شماتة غير مرئية، وبسبب حادث، كان سيمر بلا الأبعاد الكارثية التي اقتادته لها البلاغة الذكورية الفجة المرائية، سيهجر العلالي المحطة إلى الأبد.

كان حمام الشيكي يوزع يومه مناصفة بين النساء والرجال. وبقوة النار التي تخنق وتهد، كان الحمام الضيق يرغم رواده على الخروج مبكرا، ويدفع جدران الطين المفخخة والرخوة للتآكل البطئ والحاسم، وبرغم أن القيم على

الحمام حدس الكارثة وأنذر صاحبه، لكنه كان يرد إلى صواب التحلي بالصبر حتى التحقق من الدوي الهائل لإنهيار الجدارين الأماميين للحمام، وتناثر الأجساد العارية الهلعى في الزقاق الضيق للغديرة الحمراء الملأى دائما بالناس. وقع الكارثة لم يكن في الجدران الأمامية، وبفعل قوة سحرية للبخار المندفع سقطت إلى الخارج، بينما ظل السقف الخشبي ثابتا في ارتجاجه يحسم ترددا معذبا بين الرغبة في السير وراء الجدران أو البقاء في السموق العلوي، الكارثة كانت في الهرب الفوضوي والفاضح لنساء عاريات تماما كما ولدتهن أمهاتهن إلى البيوت المجاورة كان مشهدا فريدا وغير قابل للتكرار، عملت المخيلة المعذبة بالحرمان لرجال القبيلة ولزمن طويل على استنفاذه كلية، الحركة الرجراجة للنهود والأرداف، الانشقاقات الفاغرة في البقعة الغابية، حبيبات الماء اللامعة في وهج الشمس المتراقصة على صفحة الجسد الأبيض، والشعر المتطاير كالأغصان التي تطوحها العاصفة...لكن هدير الإنهيار القوي نقل الصدى حتى الفج العميق لعين الغازي علي في قدم الجبل، وروع القبيلة القديمة من أقصاها. القبيلة الراقدة فوق الكهوف المحفورة تحت الدور لتخزين القمح والتبن للبهائم في أيام السيبة المروعة، و أذهل البدو في رأس الزقاق عن بيضهم ودجاجهم وخضرهم، وجرى الناس يترافسون نحو المنافذ. لم يكن الوقت حتما وقت تملي الأجساد النافرة، لكن الناس تكلموا في مقهى الجزائري ومقهى المارشي كثيرا، حتى سيق الأزواج بقوة الإنشاءات الوصفية الركيكة التي كان يصوغها بتلذذ مدمنو الكلام إلى تطليق زوجاتهم، كانت أزمة إجتماعية كبيرة مزقت العائلات ورسبت الضغينة وتم فيها التراشق بالأواني والحجر والسباب والأيمان الغليظة. ونام من لم يكن مهيئا لها من الأزواج في العراء يطحنه الجوع والندم. وأبان رأي القبيلة العام الناشئ لتوه في المقاهي ومتكآت الجدران وظلال الأشجار عن مقدرة مذهلة في صناعة القرارات الأكثر فداحة وكلفة، وفي الإمساك بالخيوط العجيبة للإشاعة حين تولد وتشتعل في الألسن، وحين تخمد تدريجيا حتى تصبح رمادا تحت لهيب الكلام، وفي

الإستحواذ على نثار الخبر المسور بالصمت والأسرار والجدران الصلدة وحتى الضلوع...

تكلف بيبينو بنقل كلام الناس حرفا حرفا، بأمانة وقحة، حتى ما لا ينبغي قوله حول زوجة العلالي قاله، كان واضحا تماما بلا تلميحات ولا إيحاءات، استمع له الآخر، بلا غيظ ولا حزن حقيقيين كان مطرقا برأسه ينكث الأرض. تذهله صفاقة بيبينو، يتردد بين خيارين أيصفعه ثم يطرده إلى الأبد من الوكالة، أم يدعه يكمل مستسلما في صمت لشلال كلامه الثقيل ؟. لقد خمن بريق عيني بيبينو الصغيرتين مسلطا عليه من فوق، ينتظر الصياغة النهائية لتقاسيم وجهه في خضم الرجة التي يقوده لها.

أبدافع الفضول أم بدافع لذة تكتمل في إيذاء الآخرين يتفنن في الكلام فوق رأسه ؟ طلب منه العلالي أن يتركه، دون أن يرفع فيه وجهه. خرج بيبينو وعند الباب وبحركية مسرحية متقنة التفت ليفاجئ وجه العلالي معفرا بالذل والمهانة. لكنه اصطدم بالطاقية مرة أخرى والوجه مايزال غارقا بين الرجلين. فقال :«غيرها كثير» واختفى.

في الغد، وبعد آذان العصر، سار إلى البيت. كانت المسافة من الوكالة إلى زنقة القايد صالح قصيرة رغم السير المتعثر في زقاق الغديرة الحمراء المزدحم. والورقة ثقيلة فوق قلبه، أخرجها من جيب السترة ودسها في جيب السروال، وانحدر بعيدا عن الزقاق باتجاه البيرو، وانعطف جهة ساقية تامكنونت، سار بمحاذاتها تحت ظلال أشجار الميموزا.

كان يريد مزيدا من الوقت ليحسم تردده، أكان الخطأ خطأ الحيطان المتهالكة، أم خطأها هي في تشبثها المتهتك بالحياة ؟ ولاشك العلالي أن القضية من حيث الحجج فارغة تماما، والرعب يذهل المرأة عن رضيعها وبالأحرى ثيابها، «يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت. وتضع كل ذات حمل حملها. وترى الناس سكارى وماهم بسكارى..» ولكن ...كم تمنى في نار مضجعه الملتهبة وبمزيج من تأنيب الضمير والأسى، لو وجدت تحت

الحجر جريحة، أو حتى قتيلة، وليغفر الله شهيدة شرفه المصان بقوة الدم وحده المراق تحت الأنقاض.

عند قبة سيدي عبد الحليم توقف، وتزايد اضطرامه الداخلي. لم يبق إلا أن يلتف حول أحجار لالة ناقة من جهة اليسار، ليجد بعد خطوات المدخل المعتم الرطب للباب. لم تكن الطريق التي سلكها طويلة بالقدر الذي تصوره، والخطوات التي كان يعتقد بأنه يلقيها بطيئة وهنة. كانت في الواقع سريعة مصممة، كأن ليس له من الأمر شئ، وأن هيئته المترددة لم تكن إلا خدعة وتمويها عن ثبات لايحيد، وعواصف الأفكار المتصارعة التي اعتقد وهو يطول الطريق، أنه سيهتز لها ويتشظى، لم تكن إلا رعشات وهبات وهنة في صحراء البرودة التي ابتلعته. لقد سار في الصباح كالنائم إلى دار القاضي، وسوى بقلب بارد أمر النفقة والمتعة. ولما خرج كان لديه متسع من الوقت ليذهب إلى الدار ويعطيها الورقة قبل أن يصل حافلة مراكش، لكنه أراد أن يحافظ في هذا اليوم الفاصل ولآخر مرة على وقت ذهابه، الذي لم يكن يغيره. بعد الفراغ من صلاة العصر مباشرة، عاد إلى الوكالة وجلس فوق الكرسي بوداعة مزيفة تثقل جسده كله ورقة الشؤم والفجيعة، فلا يعرف أين يخبئها... قبل الباب بقليل ارتجل الهيئة التي سيدخل بها، وحدها الورقة لم يعرف ما يصنع بها. أيشهرها في يده، أم يتركها في جيبه حتى اللحظة الحاسمة ؟ وفوجئ لخبطه العنيف على الباب. وامتدت يده بلا قصد إلى الورقة و أخرجها مدعوكة بشراسة بين أصابعه. في تلك اللحظة القصيرة، والحركة التي انبعثت في الحجرة القاعية للبيت تتحرك باتجاه الباب، ذابت الغشاوة، وانتفض القلب البارد الميت في شهقة وضوح أخير امتزج فيه حنين الجسد وثقل الذكرى والألفة وبحر المشاعر الطريف منها والتليد. وعندما فتحت الباب دخل بوجه محمر وعينين مسبلتين إلى الأرض، مؤخرا وراء ظهره اليد الممسكة بالورقة. لكن ليس له من الأمر شئ... كان المشهد الأقل حزنا ضمن مشاهد التطليق الأخرى، مشهد غارق في الصمت كمشاهد الميم. أخذ بضعة لقم من الطعام الذي وضعته

أمامه بلا رغبة حقيقية في الأكل، نهض وأخذ يجمع حاجياته في سلة، اعتقدت أنه يريد أن يذهب للحمام...فأتته بالخرقة والمشط والصابون. كان صمت قاس وقاهر لامرد له، لم يستطع معه رد يدها الممدودة بحاجات الحمام، غير أنه وضعها جانبا وأخذ السلة وقبل الخروج وبحركة فخمة جهد في أن يحقق بداخلها رغبته القديمة في تعفير كبريائها، مد لها الورقة. وبعد بضعة خطوات فوجئ بها تفتح الباب بعنف وتقول : ـ «الما والشطابة حتى القاع البحر...»

مضى بين الأبواب الموصدة، يطاول بقامته الجدران الواطئة جدا لدور الزنقة، وظل المساء الغسقي يزحف على الأشعة الأخيرة المنسحبة بخفة من الأعشاب النابتة فوق حافة الجدران السميكة. إلى جانب دثار الصمت يتبدى سربل الظل كإمعان في حكمة موروثة وسرية، ممزوجة بالطين والماء يحيطها أهل قبالة بكل ما يمكن من التحوط والكتمان. وهو يذرع الزنقة في مشية الوداع، يذكر أنه كان شاهدا، ليست حيطان ما يبنيه القباليون، وهم ينصبون الألواح العريضة، ويدكون خليط الطين بسواعدهم السمراء الخارقة، بل تشكيل جمالي للأرض، وتوازن عصي ومحير بين الوجود والعدم، يمضون كالحنين الذي ينعش أغنياتهم الحزينة، الضابطة لإيقاع الأيدي والقلوب معا، الخافقة بالغربة والرحيل الدائم، مخلفين وراءهم صروحا فارعة وتجاويف سحيقة تحتها، وفي يوم ما، سيتفجر التراب ويتهاوى أحمر مثلما كان، زاحفا نحو منزله الأول، ويكون هناك متسع للبكاء ولكن بلا أطلال، لأن التراب لاينكر التراب ويتركه شاهدا بل يضمه ويأويه...

كم سيلزمه من الصبر أمام استماتة الحنين لهذه الجدران المنيعة، المنتصبة، التي لم تستسلم لغواية النوافذ والكوات والشرفات. كتل متراصة وعازلة، ومعمار متكتم مفتوح حين إغلاق الباب على الرؤية السماوية لله وحده.

وأي نوع من الخلاص يريد في الأمكنة المبهمة التي سيسير إليها ؟...في ذلك المساء لم يعد إلى الوكالة. بحث عن بيبينو بحرقة حتى انتشله من دار

إحدى البغايا بزنقة الحناجرة. وسكر العلالي ليلتها سكرة عمره. رأى فيها نديمه قردا وحمارا وأميرا وغادة هيفاء... وشربا في الجبل وعند رأس العين، وانحدرا حتى وصلا الوكالة في آخر الليل. وجاء السائق ومساعده وركنا الحافلة التي ستخرج إلى الدار البيضاء، وخبطا الباب، وصاحا من الشباك، وتجمهر المسافرون وضرب بعضهم بالحجر داخل الوكالة. لكنهما كانا يتململان فقط ويغمغمان كلاما غير مفهوم ويعودان للنوم. جيء بشيمون وهو يرشح بالعرق والإضطراب، يتدافع الخوف في عينيه وأسى الخروج من نعمة النوم. ولم يستطع أن يثبت المفتاح في قفل الباب، اختلطت عليه المفاتيح والفتحات، فضرب الباب برجله وتقدم السائق. وعندما دخل شيمون، ملئ صدره رعبا وغيظا.

كان العلالي و بيبينو مشتتين فوق الأرضية الإسمنتية للوكالة وسط القنينات الفارغة وحبات الفلفل وهياكل السمك البيضاء وقطعة خبز وفردة حذاء وسدادات ورائحة خانقة...وكان كرسي الخيزران الأثير لدى شيمون ينز بقطرات ثقيلة وقد تشكلت تحته بركة بول حامض، وبجانبها كومة براز ذهبي. أمام هذا المنظر البغيض لم يستطع شيمون أن يمسك رجله عن تسديد ركلة قوية لضلع بيبينو قلبه بها قلبتين فرأى وجها بلا ملامح وصدرا عاريا وسروالا بلا حزام ولا أزرار يطل منه عضو صغير أحمر متجمع على نفسه ومنهوك يتحدى في عزلته وبساطته كل أخلاقيات العالم...

رحلة الفارس الحزين الأخيرة

حين تنور أشجار اللوز هناك في الجبل زهورا بيضاء، وتتألق في شمس الربيع الدافئة وكأنها لازالت تحتفظ بنذف ثلج عنيدة، وحين يمر قطيع ماعز صاخب، ويطرح الصبار في الطرقات بلا مباهاة، أكواما من معجزته المنيعة وراء الأشواك التي اجترحها وسط اليباب، يهز الحنين شيمون بلولو ويرى في انبثاق هذه الأشياء اختلالا ما؛ عربدة مكانية تستهدفه هو بالأساس؛ نداء للعودة العاجلة يكسر بقوة الألفة التي شيدها يوما مع المكان الذي توقف فيه اضطرارا ثم صارت الإقامة اختيارا وارتباطا. في سنواته الأولى كانت ريح الحنين تفجر داخله إحساسا عارما ومعذبا بالذنب، لقد خان قبور الجدود وشجيرات اللوز التي ماتت من العطش والبيت وجدار الطين والأشياء المكومة في الإختناق الذي يسببه حصير الدوم الذي يغطيها وعفر النسيان. خان الحرفة والصبايا اللواتي يحطن به مستبشرات، والدواوير التي تنتظره بكامل رتابتها وصمتها وبهجة مدخراتها النادرة. والعهد الذي قطعه على نفسه في كل خطوة خطاها مبتعدا، ودموع إيزا، وعذاب الاثان، وصراخ إسو...

حين يداهمه الحنين، كان شيمون يعود لتوه إلى الدار باردا مرتعدا محمر العينين، فيحبس نفسه أياما في حجرة نومه لايمس الأكل ولايكلم أحدا، يصلي ويبتهل حتى لايعود جسده يسعفه وكأنه يوقع بنفسه العقاب اللازم للخلاص من المشاعر المعذبة التي تخلفها جريمة خيانته... ثم يخرج إلى الضيعة، وبالوداعة التي صنعها الإجهاد كان يجلس فوق كرسي الخيزران، الرجل فوق الرجل، النشاشة في اليد، شاردا معرضا عن صخب

البهائم والعمال. في تلك الأيام، تراه مستسلما لغنائية الحنين بدفق استعاراتها الموجعة، فيسر له التين الشوكي بكائية الغربة، ويتفهم نواح الماعز وبياض الاستسلام الذي يرفعه اللوز بعد طول مكابدة. ترى جسمه بأرض لكن فؤاده ومالكيه بأرض أخرى. كانت كل الأشياء التي تذكره بالدوار تطفح بمرارة النفي، ويقرئ الطيور التي تقصد الجنوب السلام والأشواق الملتاعة، ويعترض الريح التي تهب من هناك متشمما أنفاس الدوار البعيد..

كانت تلك الأزمات في السنوات الأولى تجدد أمل إيزا في العودة. وتكنس كل الضغينة التي تملأ قلبها نحوه حين يستعيده المكان، ويعود لسيرته المخزية مع مدام لانسو، وتخلي اللامبالاة والبرودة التي كانت تقابله بهما المكان لحماسة وفيض من العواطف المنبعثة لفك انطباق شفتيه عن القرار المنحبس وراءهما، فيقابل صمت الحجرة التي يسجن فيها نفسه حيوية ونشاطا وصخبا في باقي البيت، ولتلافي الفوضى المرتقبة للقرار المباغث كانت إيزا تخضع كل الأشياء الحميمة لتقييم عسير ينتهي أبدا إلى الصنافة ذاتها: الأشياء التي سيحتفظ بها، والتي ستباع، والتي ستعطى للجيران. وأخيرا الأشياء التي ستموت حتما، كأصص الحبق والغنباز واللواية الخضراء أبدا... ثم تطوف على الجارات فتودعهن دون أن يدرين وداعا أخيرا بدموع مكتومة تكفكفها فرحة الرحيل، ويصبح الزمن أكثر خفة ومرحا في اندفاعاته، والحياة تتخذ طعم فاكهة تهب كل حلاوتها قبل أن تدوسها سنابك الفصول... وعندما يخرج شيمون إلى الضيعة وتستعيد عيناه المنطفئتان بريق النهم والإقبال على الحياة، تحتمي من الواقع المرعب وخيبتها الكبرى، ببراءة إسو الصغير وحدها، وبتوالي الأزمات أفرغت خلوة شيمون بالنسبة لإيزا من كل اللهفة والتوتر والأسى، وتحول الإيقاع التراجيدي الذي ترقب به تقطر الزمن لحظات حاسمة قطرة إلى عدم اكثرات جدير بملهاة مستهجنة، لكن شيمون كان يكابد فعلا، غارقا في سيل من الهواجس والصلوات. وبعد أن خرج من الضيعة إلى عالم التجارة ثم إلى دنيا المحطة. ورسخ قدميه في متاهة المال بإقباله وإدباره، وصارت

مصالحه مشتتة بين الأمكنة الأكثر بعدا والأيدي، أضحت الأزمات طقسا مألوفا لايثير لامشاعر الأمل ولا السخرية...

وفي أحاديث ليلية متقطعة ونادرة كانت إيزا تفاتحه في شأن الرحيل، فيخلد للصمت أو يتعذر بأخطار الطريق التي لم تأمن بعد، وبصحة إسو والشغل واستمرار نكبة الجوع بالجنوب وقساوة الجو ووفرة الماء هنا.. ثم يفتح نافذة الآمال العريضة على خطى العودة القريبة. وفي كثير من الأحيان كان يردد كلمات من سفر يوشع، حفظها عن ظهر قلب للتفويض الإلهي الذي تتضمنه بالإقامة حيث هو "وأعطيتكم أرضا لم تتعبوا عليها ومدنا لم تبنوها وتسكنون بها ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون"، ثم يخلد لصفاء النوم وتصمت إيزا، وتمضي اللواية تثبت نفسها في تخاريم باب البيت الفوقية أولا، ثم تلعب مع ركيزة السطوان مشهد عناق حار ولكنه قصير، وفوق السطح تستريح قليلا، وتتابع سيرها فوق جدار واطئ فسختته الشمس، وباندفاعة آخر نفس تجتاح سقف بيت الجيران وتتهاوى على نحو مباغث وساحر فوق باحته، خضراء، طافحة بالحياة في وجه النية القاتلة لإيزا، متألقة ويانعة، تعضد ارتباطا لافكاك منه للبيت بباقي البيوت، وتنسج مصيرا محكوما بإقامة أبدية، مصير صنعته الصدفة في البداية هشا ومشوشا، ثم صيرته الحياة المخاتلة اللعوب بضغوطها وتفاصيلها صلدا كالحجر، فصارعت إيزا وبلا كلل الجنية ليليثْ في ما لايحصى من حروب خائبة، وسار إسو على حافة مشاغل النَاس صموتا حزينا لايبالي، وطوع شيمون دروب المال كلها حتى أوشك أن يأخذ نصيبه من الغيم المعرض عن فضاء القبيلة...

لكن لكل ذلك حكايات ينبغي تتبعها..

الطريق إلى بني ملال:

عملا بنصيحة دليل الركب، ساروا في طريق حجرية ملتوية وضيقة، وسط صمت مريب تمزقه من حين لحين خفقة مفاجئة وصاخبة لجناحي طائر الحجل. وبعد أن اختفت أشجار اللوز وما خلفته الشمس من نباتات

برية ملحاحة، وبقي الزقوم وحده يؤثث الفضاء المقفر، لاح دوار آيت أقدير في نقطة لاتدري أهي الحكمة أم الحماقة التي أبدعت وجودا بمثل ذلك الإستعصاء؛ كان بضعة محاربين يقتعدون الأرض على طول الطريق وسط أشجار الجحيم، يمدون بنادقهم في وجه القادمين حتى إذا تبينوا طرحوها جانبا وعادوا لأحاديثهم. ووسط الدوار إفترش الرجال الأرض، وأداروا بينهم نقاشا حادا وصاخبا. وغير بعيد، كانت بضعة جمال جاثية تمضغ بهدوء وأناة وطمأنينة يحسدها عليها عالم الرجال القلق والمتوتر أبدا، وبعيدا، انهمك آخرون في مراسيم دفن أحد الموتى بخطى وحركات يثقلها الآسى والشمس الحارقة والتعب. وفي ظل جدار، تمدد يهودي كان يهش الذباب بطاقيته السوداء، واضعا رجلا فوق رجل بشكل يجعل أخمص رجله الحافية الباهت المرفوع يغطي كل جسده الضئيل. وكان النعلان اللذان يسندان رأسه يسمحان له بمتابعة مايجري بنظرة باردة لامبالية. اقترب منه شيمون. وبعد أن تبادلا التحية، طلب منه بمسكنة قصوى أن يدله على بيت أحد الزطاطة، ابتسم الرجل، وعوض أن يفعل أشار نحو الرجال الذين قرب الجمال وقال له: أتعرف لماذا يتجادلون؟ ودون أن ينتظر جوابا أخبره بأنهم تجار شمع وتمر وحناء وتلك قافلتهم، كانوا في طريقهم إلى بني ملال فأوقفتهم الأخبار السيئة، وأنه لو اعتلى تلك الربوة القريبة لرأى في البعد دخان الحرائق والبارود... حتى العودة صارت غير ممكنة، على طول الجبل تدور حروب طاحنة بين القبائل الأمازيغية والفرنسيس تسندهم القبائل العربية الخاضعة، القوافل والمسافرون والسعاة والزوار.. الكل صار يضيع تحت سنابك الخيل وفوضى الطلقات والهياج العام، إنه زمن آخر. ثم أرخى جفونه واستسلم للنوم. قرب شيمون الآثان من ظل الجدار، ترجلت إيزا وتهالكت حاضنة إسو فغشيها نوم كالرُحمة، واستمر شيمون يحرص نوم الرجل، كان يزفر أنفاسه صفيرا متقطعا ويهتز ثم تنفلت منه حروف كلمات تصل مهشمة من صخب داخلي كبير. ولما أفاق صَعَّدَ شيمون بنظرة تستغرب طول مكوثه بجانبه. ثم جمع وقفته، وبعد أول خطى ابتعاده أشار نحو دار قريبة وقال: "هناك أشجع الزطاطة... لكنه زمن آخر"؛ رفع يده

محييا ومضى. سار شيمون نحو الدار. المكان الوحيد الباقي، سار بكل يأس من يمشي في طريق لا أمل يرجى منها ولا خلاص. وخبط الباب طويلا قبل أن يفتحه رجل ممتلئ القامة، عاري الصدر، يترنح من السكر، فيسنده رتاج الباب، وفتح بمكابرة عينين كجّمرتين متوهجتين. واستمع لشيمون يعرض عليه أن يوصله إلى بني ملال. ابتسم بمرارة، وخبط الباب بقبضته، حاول دون جدوى أن يزيغ بصره عن الأفق الأخير لأشعة الشمس التي فقدت طلاوتها، ولم تفقد قدرتها على الإيلام فجذب شيمون. وفي الظل الذي وفره، ثبت قامته وحدق في عينيه بنظرة مهيبة. وبصوت منكسر قال له وهو يدفع سبابته قرب عيني شيمون ثم نحو المدى المفتوح في أسفل الجبل: "الزطاطة... الحقيقيون هم الذين يجتاحون السهل الآن..." وخبط الباب.

على خطى العودة أصيبت الشمس في مقتل، ارتطمت بالقمة الناتئة للجبل المجاور، وتدحرجت نازفة حتى تدرج الأفق من حولها بدم برتقالي شفاف. وانبثق الليل في لحظة سامقة من كوة سرية أو من قلب شيمون الموحش الجياش، وبضربة خاطفة صاعقة قطع كل الوشائج التي تربطهم بالمحيط، كأن الجمال والتجار المتجادلين والجنازة والدور والزطاط كائنات طيفية تهيم في النور وحده. لساعات طويلة ظل يتفرس في السديم الكثيف الذي يبتلع العالم المرئي ويترك الأذن وحدها سيدة للحواس. كان يلتقط برهافة كل الأصوات التي تصدرها الأشياء تنفيسا عن قرفها من عناء النهار، ويفكر في الشلل التام الذي انتهوا إليه، ذرات معطوبة راكمت كل بؤس وعذاب الكائنات التي حكم عليها بالوجود، معزولة وأسيرة، مصير أعمى تكتبه المدافع والبنادق في البعد الذي لا يرى. فعدا زيارات لايمكن تلافيها لبعض الهائمين على وجوههم والهاربين، كانوا يعيشون في أمان عالم مكتف بذاته، يعتبر ماوراء أشجار لوزه ومراعي ماعزه أرضا مجهولة ومعادية، اقتصاد مقايضة، وزمنا خاويا تتكرر فيه الأشياء بحرفية مذهلة، عودا أبديا مأمونا، عالما مشكلته الوحيدة هي أن لاشيء مثيرا يحدث فيه، تدأب الكائنات على تحصيل أفعال رتيبة في خط دائري لامحيد عنه،

وقذفوا في عالم غـريب مفتوح على اللامتوقع والشـارد، زمن مخاتل وأمكنة مفـخخة، قذفـوا في تلك الحركيـة المبهمـة لدفاع الناس بعضـهم ببعض التي تسمى تاريخا، والتي كان شيمون يرى وراءها لعنة، عقابا وغضبا للرب...

رغم تحوطه الشـديد وحذقه المرهف فـقد انتهت قواه الخـائرة إلى جره إلى غـفلة واستـسلام النوم. ذلك النوم المعـذب القلق، كأنه في جـفن الردى وهو يوشك أن يفتح. النوم الذي يفقد فيـه الجسد الوعي، لكنه لايتخلى عن تحفزه وهواجسه. لذا ما أن ارتطمت حوافر الحصان حتى هب صاحيا، ورآه -كـما لو أنه في حـلم- رافلا في البـيـاض، يختـرق الظلام كـقمـر أرضي، مكســرا للتناغم الرتيـب لأصـوات الليل بصلـيل عـدة الحـصــان، الركـاب والمهماز وفأس اللجـام. ثم مترجلا من علياء السرج، ومتقـدما نحوه في أبهة بياضه كنفي متـجسد للعتمة، دعاه للرحيل بـصوت تغلفه كل الرقة الممكنة لقلب يفـيض بالحنان، وسـاعده في جـمع الحـاجيـات، وضبط ركـوب إيزا وإسو فوق الأثان، وربت على كتفه بامتنان بضربة خـفيفة لم يمنحها شيمون في العـرفان العـارم الذي اسـتولى عليـه الاعتـبـار اللازم رغم أن الحركـة في بساطتـها وتفاهتـها تلخص الصـيرورة النفسـية التي قادت الزطاط من وقـفة البـاب المتـرنحة المجـروحـة، إلى المجيء الخـارق في قلب الليل بمشـيـة فـخمـة معتدة، كأن القادم شخص آخر. يكفيه أن يكون في هذا العالم إنسان واحد يثق فيـه وفي مقـدرته، إنسان يجعل روحـه طوع تدبيره، ويتنكر مـثله للواقع الجـديد، ليعـيش الأشـياء في اسـتـرسالهـا القـديم. اعتلى الصــهـوة الشاهقـة للحصـان الأدهم، وسار شيمـون وراءه يسحب لجام الأثان، ويقتـفي صوت ارتطام حوافـر الحصـان بالحصى، ويقـتفي معـها العـرف غير المكـتوب لكل التابعين في التاريخ، شخصيات الظل والاقتراض التي أفنت وجودها في تتبع الخطوات المختالة لمن قذف في قلـوبهم روع الرغبة المستحيلة في تغيـير مسار العالم فخرجوا هائمين على وجوههم في الأرض، لأن النصر والبطولة واللذة وكل شيء يوجد أبدا في مكان آخـر: شيبـوب وراء عنترة، عمر العيار وراء حـمزة البـهلوان، عيـروض وراء سيف بن ذي يزن، وشـيمـون وراء الزطاط، كأن الجـوهر الماسي لن يظهر كامل بريـقه إلا وهو محاط بـالتراب، والبطولة

والإقدام لن يتحققا إلا وهما يجرجران وراءهما الخيبة والعجز. إن أصل العالم ليس النار ولا الماء ولا الهواء ولا التراب بل هو المفارقة. والتابع رغم هذا يستحق تمجيدا ما: ليسوا مجانين هؤلاء الذين يمتطون صهوة أوهامهم، ويطوعون الدروب بحثا عن لبن نوق العصافير، أو تفاح جازية بنت منصور القاطعة سبع بحور على ظهور النسور، أو بعث زمن بلا رجعة. الجنون الأقصى هو أن لاتقنع ولو واحدا بما تؤمن به، يكفيك أن تقتنص تابعا من وسط الناس، يسلم لك مصيره، يؤمن بك، يشاطرك هموم قضيتك، ويجعل من ظلك مسكنا لكينونته، لتمضي به وكأنك تسحب وراءك كل البشرية... بكى إسو، وأراد شيمون أن يناقش أمر الأجرّ. لكن الفارس مضى، وألقى بندقيته على كتفه حين تجاوزوا حدود الدوار، بندقية طويلة كرمح، من فصيلة بنادق أول عهد الناس بالبارود، والتي لا يمكن تبرير طولها المبالغ فيه إلا برغبة التخفيف من الرعب الأكيد الذي يخلفه تفجير الطلقة في قلب مرسلها قبل متلقيها في عالم لم يكن يعرف للقتل غير صمت الحديد، وأخرج قطعة ثوب خضراء حزم بها رأسه. تتعثر الآتان في المنحدر، يكون على رجليها الأماميتين خصوصا أن تتحملا الثقل كله، تترنحان قليلا وبقدرة قادر تتقدمان، وحين يبتعد الفارس كثيرا، تسترد الظلمة كلية الأدهم، فيصير الزطاط تماما كرجل ابن سينا المعلق في الفضاء. سالت بأعناق المطي الأباطح طيلة مابقي من الليل، وعندما أخذ العالم ينكشف، لم يكن شيمون يهتم بحركته، كان مأخوذا فقط بالرغبة في رؤية وجه الفارس في صفاء النور، لكنه كان يمضي بعيدا دون أن يلتفت ولو مرة واحدة، مما ولد في قلب شيمون بذرة شك: ألا يسيرون في خفارة شبح بلا وجه؟ مروا بجانب دواوير يحضنها صمت مريب، وأدركوا حين أصبحت الشمس حقيقة مرئية المنبسط الكبير للسهل، أخذت الآتان تمنح نفسها لحظات توقف متتالية تخطف خلالها مايملأ شدقيها من الحشائش. ساروا بموازاة الجبل، تسترهم أغصان أشجار الزيتون المدلاة، فجأة توقف الفارس وأدار لجام الحصان إلى الخلف، وأخرج من صرة معلقة بجانب السرج قطعا صغيرة من شهد العسل، فأعطى شيمون وإيزا نصيبا وتراجع ليمضغ بهدوء

نصيبيه. لحق به شيمون. وحين كلمه رأى وجهه بوضوح، رآه يطفح بحمرة ملتهبة كتلك التي لايملك سر صناعتها إلا الخجل أو الحمى. ورأى المدى الهائل الذي قد يبلغه الحزن حين يفيض من القلب ويصوغ الكائن في كليته.

أجهد الفارس نفسه في اصطناع هيئة مصممة وثابتة، لكن نبرة صوته، ولحظات السهو التي تنتابه، وإطراقة رأسه والوهج الخافت لعينيه، كل هذا كان يشي بعطب داخلي كبير. قال لشيمون إنه مصاب فعلا بالحمى، لكن العصابة الخضراء علامة يعرفه بها الآخرون. وبمرارة تساءل: "أين هم؟".

وقال له إن هذه الأرض كانت مليئة بالفلاحين والرعاة وعاد للتساؤل: "أين هم؟".

قال له إنها الرحلة الأخيرة التي يقوم بها. لقد أراد فقط أن يرى الطريق والرجال... وأشار نحو الآثان: "كيف أوصلتكم إلى هنا؟" ثم لكز حصانه وسار إلى الأمام. مرة أخرى تعطلت في حلق شيمون الكلمات التي أراد أن يناقش بها أمر الأجر. بعد ساعات من السير المتعثر، كان الفارس يكبح فيها اندفاعة الحصان لمسايرة الوتيرة المقرفة التي كانت تسير بها الآثان. أدركوا غابة الدروة الهائلة، وساروا بمحاذاة التماعة الحزن التي تشع من أشجارها المتعذر اختراقها، وسرت في قلب شيمون رعشة خوف، عبرت جسمه كله، خوف فطري من شيء غير محدد، يغذيه الصمت العميق الكاسح والإلتفاتات القلقة التي أخذ يقوم بها الفارس.

خـبـــر:

(كانت غابة الدَّرْوَة -في ما يحكي الرواة- مكانا أجرد، تخفف من وحشته في المشتاة مضارب إحدى القبائل السائبة، حين يداهمها الصقيع في الجبل، فتتعثر مصالح المخزن ويقتل الرسل وتعفر سلطة القواد بالتراب ويصير فيء السهل إلى بطون لا يزكيها لا شرع ولا نسب ولا عرف، فيضطر

السلطان للخروج على مضض في حملة مرهقة لتأديب هؤلاء المارقين، أعداء الله، وحين يصل يجد الهباء. كانت الخيام قد جمعت في لمح البصر ومن أعلى عليين كانت عيون القبيلة ترقب بشماتة جهد السلطان الضائع، ومهابته الجريحة في رحلة عودته الخائبة...

ولأن الحرب سجال، يوم لك وآخر عليك، نجح السلطان مرة بعد خيباته المنكرة في محاصرة القبيلة قبل أن تتبخر. وبعد أن نكل بهم كما يجب، وسامهم سوء العذاب كما يجب، فرض عليهم الإقامة الجبرية، بأن أقسمت جماعة شيوخ القبيلة بالإيمان الغليظة أن لاتسل وتداولا وثاقا لخيمة ما ظل السلطان على قيد الحياة. لكن بعض أفراد القبيلة ومع وجودهم تحت رحمته، عادوا إلى سيرتهم الأولى، مما اضطره إلى تجهيز حملة تتقد شررا وقصدهم فيما أراد أن يكون ضربة فصل في موضوع طال أكثر مما يجب. سمعت القبيلة خروج السلطان واجتمع الشيوخ لتداول الرأي، كان الخلاص بينا. لكن القسم محرج، وما أخلفت القبيلة عهدا ولو كلف قطع الرقاب. مر راع إسمه ذياب، وعنف غنمه قائلا:

- سيري، الله يعوج طريقك كما عوج رأي الجماعة.

فتصايحوا

- لماذا السباب ياذياب؟

- أقسمتم أن لاتسلوا الأوتاد وأن لاتحلوا الأوثاق، جزوها وخذوا خيامكم واتركوا له ما أقسمتم أن لاتمسوه.

قامت القبيلة إلى الخيام، وفي لمح البصر كانوا قد أثخنوا في الجبل، ووصل السلطان إلى البرية يقتله الغيظ والتعب، ووقف مذهولا أمام غابة الأوتاد وأطراف الأوثاق العالقة بها والتي تداعبها الريح... في السنوات الموالية انتظرت الأوثاق خيامها لكنها لم تجئ وانتظرت الأوتاد السواعد التي كانت تولجها في الأرض بشبق مكتوم، ومن شدة الحنين أزهر حديد الأوتاد، وصارت الأوثاق أغصانا وارفة ظليلة، ومنيعة إلا على ذكرى الأحبة الذين رحلوا)...

بعد ما يُقارب ساعة من الخوف والترقب والعذاب، خرجوا إلى منبسط مكشوف، ولامست رجل شيمون أرضا ندية رطبة، استسلم بعدها للدغدغة التي يحدثها تمسح رجله بالأعشاب الصغيرة التي احتفظت رغم الشمس الباهرة بلسعة برودة لذيذة، فتغتسل خطاه من الغبار بنسغ الحياة ومن صخب الحصى بحفيف وهمس دبيب الحياة، ومن الرمادي والأصفر وكل الألوان الكئيبة بالخضرة الطافحة. لكن وقبل أن يستعيدوا تلك السكينة الهشة التي ساروا في كنفها منذ الفجر، تناهى إلى سمعهم دوي انفجار أعقبته طلقات نارية متفرقة، وتعالت هناك وراء أشجار الزيتون خيوط من دخان، وصد باب العودة هو أيضا لتوه قبل أن يفكروا فيه. إذ توالت الطلقات وراءهم. وارتفع نفس الدخان، وبعد لحظات راوح فيها حصانه في مكانه، أمر الفارس شيمون بأن لا يبرح الموضع حتى يستطلع الأمر ويعود... لأول مرة في الطريق، ولأنه لم يرد أن يستسلم لوجع الفكرة القاسية: لقد تخلى عنهم الزطاط. تعلق فكره بأصوات الطيور، تلك الرحمة، ذلك المعدن الصلب المضيء الذي يستشرف النور في عز الظلام ويبشر به. والذي شاء البشر -وبإصرار غريب لم يستكن يوما لتردد السؤال: هل بكت أم غنت؟- أن يعمدوه فرحا، خفة ومديحا للحياة المحبوبة...

عاد الفارس مثقلا بكل حزن البشر وعفنهم، فتوارت أصوات الطيور. قال لشيمون بصوت متهدج: إن فرقة نصارى مرت من هناك. وقال إنه رأى عيون القتلى وجراحهم والدماء، وأخذ بندقية بوحبة من على كتفه، وهيأه للصدام بيمناه. وأمسك باللجام باليد اليسرى، ولكز الأدهم: لا مفر من التقدم...

رأوهم في أول خطى رحلتهم إلى الماوراء، مشتتين بأوضاع مختلفة في العراء، تترقرق جراحهم في وهج شمس الأصيل الخافت. يدرجون المدى الذي اختاروه مثوى أخيرا لأجسادهم بالدماء، سادة لمشيئتهم، عبيد ولائهم للأرض، يصعد بعضهم الوقوف بنظرات أخيرة لا استغاثة فيها ولا فجيعة، بل سكينة ودعوة للشهادة، لقد اعترضوا التاريخ بأجسادهم خارج

كل تقدير لاحتمالات الربح أو الخسارة. كانوا هناك، عطلوا حركته بالصراخ الحاد، بمسارب الدم، بالمجد الكبير لرفضهم، وحين داسهم، أسلمهم لمهوى النسيان بتواطئ غادر من الطبيعة، إذ ستجف الدماء وتتحلل الأشجار، ويخنق الذكرى الكلام الرمادي، الذي لن ينصفهم أبدا إلا عبر تعريجه اللحظي الخفيف وتعميماته الباردة...

إربد وجه شيمون وبكت إيزا، وأشاح الفارس وجهه بعيدا عن المشهد الفظيع، وبصوت مختنق وبكل الدموع الثاوية تحت مقلتيه، دعاهم للمسير. حاذروا الأجساد، وخصوصا بريق العيون المودعة وحاذروا الدماء في قرانها العنيف بالأرض، وود شيمون بقوة لو يقف على رأس كل واحد منهم، يسنده، يتعرف على إسمه، وفصول الحياة المنتصبة العنيدة، ويخزن تلاوين مشهد الرضا الكبير الذي تُقابَلُ به انتفاضة الروح الأخيرة في الجسد. وحال نفس الإحساس الذي حرمه من الرؤية الأخيرة لداره وللدوار في أول خطى رحلتهم دون فيض مشاعره، إذ أنه لن يتملك فقط ما يراه، والرؤية تملك، بل سيصبح أيضا أسيرا لموضوع رؤيته. وعلى مسافة أمتار من اجتياز آخر الأجساد الممددة، أوقفتهم صيحة حادة، وخرجوا لهم من بين الأشجار، واصطفوا مقتعدين الأرض على ركبهم و مصوبين بنادقهم نحوهم، ودعاهم نفس الصوت وبعربية متقنة إلى رفع أيديهم فوق رؤوسهم، إمتثل شيمون بتلقائية لذلك، ولم تعرف إيزا كيف ترفع يديها وإسو بينهما، بينما عدل الفارس هيئته فوق الحصان، إذ ألقى بثقل جسده على الركاب، ورفع عجيزته حتى لم يعد يلامس الحصان إلا بأسفل فخذيه، وتحرر في انتصابه من اللجام الذي شبكه في ذراعه الأيسر، وصوب فوهة بندقيته نحو الفرقة المصطفة. وبنظرة مهيبة، غسقية، غامضة، شيع الشهداء وشيمون وإيزا، وانطلق يعدو نحوهم. كانت لديه طلقة واحدة عليه أن يختار الصدر الذي يوجهها إليه. ونور الشمس الخافت الأخير يختلج كطائر ذبيح وسط طلائع العتمة القادمة، إندفع نحو الكتلة الصماء المتحفزة كما تندفع نجوم ماتت منذ زمن بعيد إلى حتفها، متألقة، يانعة. وفي اللحظة التي

يعلم الله وحده كم من رصاصة اخترقت جسده، رفع فوهة البندقية فتجاوزت رأس الضابط الواقف خلف الفرقة، وتجاوزت العلم الذي يؤجج حماس الجنود للقتل، بل إنها تجاوزت الأشجار نفسها ولاحقت شيئا في الأفق المحتقن حتى وجدته: قرص الشمس الآفل، وفجر طلقته الوحيدة نحوه ليتهاوى فوق عنق الحصان الذي غير مسار عدوه، فاخترق الأشجار وغاب عن الأعين... انطفأ نور القرص ليسدل ستارا من ظلمة مشهد موت الفارس الأخير...

الأســـرى:

ذَرْوُ سنابك الخيل الخانق، الصيحات المريعة، الأوامر والأوامر المضادة، قعقعة السلاح، ضربات أعقاب البنادق، والسير المتلاحق بلا توقف ولارحمة. كان الأسرى خليطا من بضعة محاربين وفلاحين ورعاة وعجزة وأطفال وعابري سبيل، فاجأتهم الحرب وجمعتهم القبضة القاسية للآلة العسكرية الفرنسية، ويتم الآن سوقهم إلى معسكر بني ملال الرئيسي، سلسلة أنين وجوع وتعب وخوف. ولتجنب بعض التأثيرات السيئة المتبادلة، ومشاريع الهرب الجماعية، فرض عليهم السير متباعدين وصامتين، محفوفين ببرهنة لازمة على الفظاظة الكاملة كان يدأب على القيام بها وبشكل متقطع حراس من لحم ودم الأسرى، يجهضون بها كل محاولة وهي بعد خاطرة...

سار شيمون مكوي القلب، وسارت إيزا حاضنة إسو على رجليها هذه المرة بعد الحادث الذي لايوصف، والذي لن يتذكره شيمون أبدا إلا عبر اختناقات بكاء، ففي اللحظة التي انهال فيها الرصاص على الفارس، صوب أحدهم رصاصة غادرة إلى رأس الآثان، تأرجحت على إثرها قليلا ثم تهاوت إلى الأرض، جثا شيمون واحتضن رأسها وهو يصعد نزعا أخيرا، نظرت إليه حالمة، نائية، فأجهش بالبكاء، جاء الجند وكالوا له الصفعات: "يافاجر تبكي حيوانا وأنت محفوف بالقتلى من الناس". ودفعوه بعيدا بأعقاب البنادق...

وطيلة ليلتهم الأولى في الأسر، رفضت إيزا مطلقا -وهي تعاني من ألم موجع في كتفها- أن تكلمه، ولزمن طويل لن تغفر له مسارعته لاحتضان رأس الآثان، وقد سقطت هي من فوق ظهرها على الأرض الصلدة، لكن كيف تتفهم لوعته؟ كيف يشرح لها الألم العميق للفقدان؟. في تلك الليلة لم يكن بوسعه التفكير في أي شيء آخر، وبعد تبكيت شديد للضمير، انتهى به الأمر إلى تعليق كل غلالة قلبه على جلباب إيزا الرجالي: فلو أشرعت أنوثتها لما كلف أحدهم عناء التصويب نحوها...

في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر أكتوبر من سنة ألف وتسعمائة وستة عشر، وفي خفارة شمس ضارية، وصل الأسرى إلى بني ملال، وحشروا مع الآخرين في جانب من معسكر كبير للجند وسط مئات الخيام واللغط الشديد، والحركة الدائبة.. وفي ذات اليوم، دخل الكولونيل أوبير إلى حواري القبيلة دخولا مظفرا وطاف بين القصور فوق حصان مطهم، ذي بياض خرافي، ورأى بابتهاج كبير السكينة والتسليم التام بل التحايا الخجولة التي يقابله بها الآهالي، تتويجا لثلاث سنوات طويلة من الحصار والترهيب وشراء الذمم والوعود وكل أصناف المناورة...

وما كان هناك من يمجد خيلاء الكولونيل النابوليوني فيراه تجسيدا للعقل والتقدم والحداثة، لأن كل عيون القبيلة الذابلة رأت فيه فقط الكفر وقد اتخذ هيئة آدمية تدنس فضاءها، لذا طرزوا سطوح الدور بأواني طبيخ مفحمة، لعلها ترد بطاقتها السحرية القادم على عقبيه، في تلك الليلة ومن أعماق قلب مكلوم قالت شاعرة القبيلة وهي بعيدة:

"شَفْتْ الحَاكم جَايْنِي رَجْدَادْ
ْبمدَافْعُو جْدَادْ
تَبْقَايْ بِخَيْر يَالْبلاَدْ
هَذَا مَاكْتَابْ"

وبعد أن أرضى الكولونيل استيهاماته، عاد إلى المعسكر وعقد جلسة تحقيق مع الأسرى، أفرج من خلالها وبأريحية كاملة عن أغلبيتهم، ومن باب آيت بليزيد دخل شيمون متبوعا بإيزا إلى قصبة بني ملال لايلوي إلا على صرة البسيسة التي تخفي الريالات وذاك التوق الجارف إلى الاستقرار، ولو لأيام...

كلب المدام:

كم هو ثقيل الدين الذي على شيمون أن يوفيه للقبيلة؟ دخلها ضالا هائما فآوته، ووجدته خائفا فأمنته، وجائعا فأشبعته، وعائلا فأغنته..

حين دخل القصبة كانت مسحة من الحزن والتعب الكبيرين تغلف الوجوه، فقد كادت أن تنفذ كل مدخرات القبيلة من القمح والذرة بعد أيام الحصار الطويلة، ثم إن القبيلة انقسمت على نفسها، فبين خناجر وبنادق القبائل الأمازيغية القوية المتمركزة في الجبل، ومدافع الفرنسيين، مزق كبد القبيلة وضاعت كلمتها بين الأرجل، وبين كر وفر الحرب تطايرت أشلاء، فهرب البعض إلى "مُودْج" و"شعبة الآخرة" والبعض الآخر إلى مضارب قبائل آيت عطا وآيت بوزيد، وقنع البعض الآخر بمهانة استقبال دخول الكولونيل أوبير للقصبة، وخلال كل الأهوال عاتت الأيدي فسادا في البساتين والأغراس والدور التي هجرها أهلها، حتى رتاجات الأبواب اقتلعت، وأحرق التبن المخزن في الكهوف، وحولت سواتير الخشب التي تسند سقوف الدور إلى خنادق القتال...

لقد بحث شيمون في الأول عن الملاح، فدلوه على بيت أحد شيوخ الطائفة، الذي تمكن بوقار لحيته البيضاء المترقرقة وصوته الهامس النفاذ، وعينيه المشعتين بحكمة اختبار طويل للحياة، أن يغير مسار حياته، إذ طلب منه أن يصرف النظر عن فكرة مواصلة الطريق إلى مكناس، ليس فقط لأيام معدودة، بل لشهور وربما لسنوات إذ أن حربا ضارية تدور على طول الأطلس المتوسط بين القبائل الأمازيغية والقوات الفرنسية. استضافهم في

بيته عشرة أيام. أيام كان وقعها على شيمون بمثابة إسراء إلى النعيم، فبين جدران "الثابوت" السميكة شواهد العبقرية الخالدة لأهل قْبَالَة، إذ وكما يوحي الإسم وببلاغة لماحة، وهبته الجدران صمت وسكينة ورطوبة القبر، والزليج الأزرق الباهت، وزخارف السقف الخشبي، وخرير ماء الفسقية الخافت الذي يخوض حربا طويلة النفس ضد الصمت، تعضده من حين لحين، وشوشة خطوات، وقع مبهم شبيه بهسيس الهوام أو اختلاج رذاذ المطر فوق نافذة خشبية مبللة، معمار مضياف ومفتوح للداخلين، متنكر ومغلق على الخارجين، وفوق هذا أكلوا مما يشتهون، واستحموا وناموا مطمئنين. بل أن الشيخ أخذ إسو إلى طبيب المعسكر ذات مساء، وبعد فحص طويل أسر له بأن نور عيني الطفل في يد الله وحده ثم قطر في عينيه سائلا ضد الإلتهاب. وفي الختام دعاه إلى معاودة الزيارة أربعة أيام متتالية، وهو يفكر في إرضاء الشيخ أكثر من اعتقاده بأن أملا أو نتيجة ماترجى من وراء علاجه. وعند متمها أسر له من جديد بأن الإهمال الطويل قيد للطفل أن يرى الأشياء وحتى الموت من خلال غمامة أبدية...

حتى يبرهن شيمون للشيخ عن صفاء سريرته، وبقلب يفيض بالعرفان، أخرج العشرين ريالا من البسيسة ووضعها بحركة فخمة في كفه، كأنه يسلمه روحه. كان مستعدا وبنشوة فضيلة لا تجارى إلى المضي وتركها له، لاتردد، لا كلمة تقال، نحر للذات، تبديد للمرتكز الوحيد للأمان، ولكن رضا شبيها بخطوات إياب جذلى من رحلة تقديم قربان مكلف لإله حنون كريم. ابتسم الشيخ وأعاد الريالات إليه بتصميم لايقبل المراجعة، وفي الصباح الموالي اشترى شيمون برخص التراب -وتحت رعاية الشيخ- دارا بزنقة القايد العسري. وفي اليوم نفسه اشترى هدونا وحصيرا وبعض أواني الطبيخ. وطفقا هو وإيزا يبكيان بصر إسو، ومعه تمزقهم في الصميم...

كان للشيخ وعند ساحة المطلق القديم متجرا كبيرا لبيع الأثواب ونصيبا موفورا في قافلة ملح تصل القبيلة كل خمسة عشر يوما، ويملك بالمناصفة مع رجل من أهل الصومعة معصرة للزيتون، ويدير في كهف دار

متداعية مصنعا لتقطير شراب ماحيا، واستثمارات أخرى صغيرة ومتفرقة، اشتغل معه شيمون مساعدا في المتجر أولا. ثم لما برهن عن خبرة كبيرة في الإستدراج والمحاججة واللجاج أسلم له مقاليد إدارة كل شيء. وطيلة سنة- وهي المدة التي قيد للشيخ أن يعيشها قبل أن تداهمه حمى شديدة دفعت روحه للتسلل من جوفه على أطراف الأصابع- كان طعم الأشياء الحميمية المتبادلة بين العشيرتين اليهودية والإسلامية، التداخل في الدور والعادات ومشاغل الحياة، كفرعي شجرة واحدة. امتداد متفرد وخاص، ولكن تغذٍ من نفس الجذر والتربة ونسغ الحياة. نزهاته المتكررة بجانب منابع العيون، عين أسردون، عين تمگنونت، عين سيدي بويعقوب، عين داي... ووقوفه شاردا أمام الفوران الصاخب، الإرهاص المدشن للحياة. كل هذا وغيره من الأحاسيس الجديدة، كان يهمس لشيمون من حين لحين: إنك لن تفارق هذا المكان أبدا...

جاء الورثة، وبعد شهور كان الصرح المالي للشيخ قد أضحى مجرد ذكرى، وخلا المتجر تماما من السلع، فلم يكن على شيمون إلا أن يتدبر حياته في مكان آخر، فكر في العطارة، وفي تكوين متجر خاص به لبيع الأثواب، وقنع في الأخير بالسهل: بيع قوته العضلية في سوق العمل الذي فتحه مؤخرا أوائل المعمرين. جاءوا كعصائب طير تهتدي بدخان البارود والحرائق وحشرجات القتلى، ليلغوا في الدماء وينهشوا اللحم ويمصوا العظام، يملأ الخوف قلوبهم ويجلل عيونهم، حلم الذهب الخبيئ في حوصلة الأهالي. كان بعضهم أكثر دموية من ضباط الحروب، يقتلون للشبهة، للحركات المريبة في الليل، لفض نزاعات صغيرة حول الملكية، للخلاص من الفائض البشري، مالتوسيون بحرفية مذهلة، يقتلون أحيانا للشهوة فقط، وفي أبهة أسلحتهم كانوا يدرعون القصبة، يتقرون الحيطان كعتاة اللصوص، ثم يتوقفون عند أبواب دور بعينها... باعهم الأهالي أراضيهم طوعا أو كرها، بقليل من القمح، ببضع فرنكات، بوعود، ببسمة رضا. حتى انفطر قلب شاعرتهم الكبيرة فقالت:

"ابْكِي يَالْمَلاَّلِيَّة
ابْكِي بالدّمُوعْ السّخِيَّة
أرْضِي تَقَلعَتْ لِي""

كان السيد لانسو نشازا في السباق الضاري من أجل الذهب، رجلا دمثا ذا قامة قصيرة وبنية مكتنزة وأنف كبير مجدع وخدود ذات تورد دائم وعيون قلقة، وبدون أي نية في الإساءة. كان كل من يراه يعتقد بأن الرجل ينقصه ذيل صغير ليصير خنزيرا كاملا، وبلا بهرجة حل الرجل ذات يوم واشترى في جنح الظلام خمسة هكتارات. بلا واسطة لاضابط الشؤون الأهلية ولا الباشا ولا أحد قواد القبيلة، دفع في سبيل ذلك ماكان يبدو للآخرين إسرافا لا مبرر له بل حماقة. وخرج هو سعيدا بريء الذمة مفعما بالحيوية، وبعد ثلاث سنوات وأربعة أشهر وستة أيام وأربع ساعات، كما هو مثبت في مفكرة السيد لانسو، استوت داخل أرضه دار جميلة بنيت على النمط الأوروبي، بسقف مائل من القرميد الأحمر ونوافذ كثيرة تشهر من كل الجوانب نهما كبيرا لأشعة الشمس، وحديقة مزهرة، وزريبة سمعت لأول مرة في محيط القبيلة صوت الحيوان الملعون. كان السيد لانسو يتوقف مرارا في بعض مراحل البناء، وينتظر التعليمات والرسوم الهندسية الصادرة من مركز القيادة في مرسيليا، حيث كانت زوجته، وبمجموعة من الأقلام الملونة، تضع اللمسات الأكثر تفصيلا والأكثر عرضة لتقلبات مزاجها، إذ كان منزل أحلامها يتخذ أشكالا عديدة، ولما كانت رغبات المدام أوامر بالنسبة للسيد، فقد ورطته وعذبته الرسوم المتناقضة للمدفأة خصوصا والمطبخ وبيت النوم والحمام... وبكل طاقته الإنشائية وقدرته التوسلية كان يشرح لها في رسائل خطوات البناء، والإمكانيات المتوفرة، وبالأساس ذلك الفرق الأكيد الذي عليها أن تتوقعه حين تصل بين الأحلام والواقع مهما عذب نفسه في إرضائها، ومن سوء حظ السيد أن المدام وصلت في عز حر شهر يونيو، وكما هو مثبت أيضا في مفكرته، كان ذلك أحد أسود الأيام في حياته، انتظره كما ينتظر الموت محكوم بالإعدام، وبسبب تشبيه مبالغ

فيه اقترفه السيد لانسو في أول رسالة بعثها إلى زوجته من بني ملال، وقع ماكان يحذره، استشاطت غضبا وأنبته تأنيبا بالغا وهجرته في النوم بل إنها هددته بالعودة إلى مرسيليا. كان السيد قد كتب لها في رسالته الأولى الجمل التالية: "الطقس هنا مفرط في البرودة، في الليل ومن الجبل المثقل بالثلوج تتعرض المنطقة لهبات قوية شديدة البرودة، سيبيريا صغيرة، بفارق واحد هو أن الشمس هنا تملأ السماء بشكل دائم. لكنها شمس للزينة وبلامفعول". وعندما نزلت من الشاحنة التي أقلتها وصغيريها روبير وروزيت من الدار البيضاء متبوعة بشاحنات محملة بالأثاث في رحلة مرهقة كانت تبدو لها بلا نهاية، بادرته وهي ترشح بالعرق وبنبرة غاضبة "شمس للزينة وبلا مفعول؛ ياإلهي". كانت مستعدة للعودة مع نفس الشاحنة، لكن ألوان العذاب التي أذاقتها الشمس ونوبات القيء المتكررة التي اعتصرت بطنها، دفعتها للتذرع بالحالة الصحية للصغيرين. حاول السيد جاهدا أن يشرح لها نقائض وفضائل الطقس القاري من خلال عرض جغرافي مستفيض، لكن الغبار النزق الذي اجتاح الفضاء في عصر ذلك اليوم المشهود بدد حججه، وانتهى بأن أكد لها بأن تلك الرسالة كتبت في شهر يناير، والأمر كما وصف، وسوف تتأكد من ذلك. لكن لاشيء في تصرفات المدام كان يدل على أنها ستنتظر حتى العام القادم، فقد انسحبت مع صغيريها إلى حجرة النوم وتركته يرتب الأثاث على هواه. ولأيام احتفظت بكل حاجياتها في الحقائب المغلقة...

شهد شيمون رفقة السيد مراحل البناء خطوة خطوة، فقد ارتاح له السيد من أول يوم اشتغل فيه معه، وفي المساء، وقبل أن ينصرف أبرم معه عقدا شفويا طويل الأمد. وإلى جانب ساعات العمل المرهقة، كان الرجلان يجدان فسحات من الوقت للثرثرة، يعلم فيها الواحد الآخر لغته، ويحاول السيد أن يأخذ رأي شيمون في معاني الرسائل الحاسمة التي يكتبها، ثم يحكيان لبعضهما بنتف الكلمات التي تعلماها وبالحركات وقائع من حكاية العمر، وفي الأيام التي كان ينتظر فيها السيد التعليمات، كانا يخرجان

لصيد السمك على ضفاف ساقية داي، أو يتجولان في البساتين، وخلال لحظات بوح صادقة كان السيد يشكو له عذاباته مع المدام، وبتكرار الأمر انتهى شيمون إلى تشكيل صورة مروعة عنها في خلده، صورة جانبت الواقع الذي رآه...

كان رباط السيد بالمدام من تلك الزيجات التي لم يتدخل في صنعها لا الحب ولا الشفقة ولا القرابة ولا حتى حسابات المصالح، فزواجهما كان خلوا من كل هذه الأشياء، لقد صنعته الحياة نفسها لمتعتها الخاصة بلا مبرر ولا شرط ولا سبب، ومن خلال قهقهة فاجرة. كانت المدام جميلة جدا، هيفاء، بصدر فسيح، خصر ضامر، عجيزة ممتلئة، عيون لازوردية، شعر بلون سنابل أثخنت في الحياة وفم صغير تضرج شفتيه دائما بحمرة صارخة، تقويسة ساحرة لم تخلق أبدا مقبرة لأشياء العالم الخارجي بل ملاذا ورحمة...

استغل السيد -كما فهم شيمون من إحدى حكاياته- الصحراء التي كانت تمر بها على إثر أزمة عاطفية حادة كرهت فيها الرجال حتى الثمالة، فقدم لها قلبه وعن طواعية مضغة للتنفيس، وهدفا لسهام غلها، وفي غمرة حميتها في التطهر والنسيان رزقا روبير وبعده روزيت، فكرهت حتى نفسها وحرضته على الهجرة، مضحية بمستقبلها العلمي داخل الجامعة -كما كانت تفهمه دائما-، حيث كانت تتابع وبشكل متعثر دراسة الطبيعيات.

خف تهديد الحقائب المغلقة تدريجيا، بدأت المدام بإخراج الموسوعات والكتب واحدا واحدا ثم انتقلت إلى أدوات الزينة، وبعدها إلى الثياب. وقامت بنزهة صغيرة أذابت الوحشة شيئا فشيئا في صدرها. كانت فرحة السيد تكتمل بصعوبة، ووفق تسلسل تصاعدي هش، وفي الليلة التي سمحت له بالنوم بجانبها انتابته نوبة عصبية من فرط السعادة، برغم وابل الترتيبات التي ذيلت بها رضاها كالإستحمام وتنظيف الأسنان والتطيب وعدم الشخير والإستقامة في التمدد... وانطلقت الحياة...

كانت المدام تخضع الدار لنظام حديدي، تعنف الخادمات البلديات الصغيرات، وتشرف على كل شيء بما في ذلك التفاهات. وفي المساء تخلد فوق المقعد الهزاز الموضوع في مواجهة الحديقة لكتبها وموسوعاتها. وكطالب مجد، ولأن السلاح النظري وحده لا يكفي، أخذت المدام تخرج إلى الميدان، ولساعات طويلة في الليل تشرّح النباتات والحشرات التي عادت بها، ترصد المكونات وتسجل الملاحظات وتصنف الأنواع، وبتوالي الأيام صار هوسها العلمي يدفعها للشرود بعيدا عن المناطق الآهلة بالفلاحين والرعاة أو فوق غار للنمل أو شهد نحل أو زنابير.. كان السيد يبارك في قرارة نفسه حمى المعرفة هاته، ويرى فيها صيغة غير معلنة للارتباط بالمكان، رغم أنه كان يجادلها من حين لحين في مدى إلزامية البحوث الميدانية بالمناطق الموحشة. وباقتراح من المدام وحتى تعم السكينة القلوب، كلف شيمون بشرف مرافقتها، كان هو والسيد يعتقدان بأن الأمر لن يدوم سوى بضعة أيام أخرى، تستنفد خلالها قدرتها على الاستقراء. لكن مشهد المدام بطربوشها الكبير وحذائها الصلد ونظراتها المتفحصة والمشدودة إلى الأرض، والخطوات المتعثرة لشيمون خلفها والسلة التي تثقل يده لساعات، ونظراته اليائسة، وهيئته المتعبة، طال لسنوات ليبرهن على أن معين المعرفة وفضول بعض القلوب لا ينضبان أبدا...

كان كل الفضول العلمي للمدام يتركز حول القضية التالية: الحب في مملكة الحيوان. أما الاهتمام بأنواع النباتات ومكوناتها، فلم تكن سوى نوافل معرفية أو مناورة تخفي من خلالها المدام موضوعها الأثير، لذا كان يحلو لها -ولا حياء في العلم- أن تشرح لشيمون أدق أنواع التزاوج بين الحشرات وأكثرها فحشا، مستعملة كلمات فاضحة ومتهتكة. وبخلاف روح الصرامة التي كانت تحكم تصرفات وأقوال المدام في كل جوانب الحياة، كانت حين تتحدث عن الحب في مملكة الحيوان تستسلم بعد ذلك لنزعة روحانية مخدرة، وتهويمات صوفية غريبة عن الحب الخالد، وما كانت تنقص شيمون النباهة ليدرك وهو العطار الذي اشتغل طويلا مع النساء، مدعوما بحكايات

السيد، أن المدام لازالت تنزف من الجرح الغائر في قلبها، والذي قادها أولا للزواج ثم للهجرة، وأخيرا للهروب إلى مملكة النبات والحيوان...

لا ينكر شيمون أن خبيبه المذل خلف المدام، والذي عفر صورته ليس فقط بالنسبة للمسلمين بل وحتى داخل العشيرة اليهودية لدرجة أن إسمه ضاع ولسنوات أمام اللقب الذي ضمنته القبيلة كل احتقارها واستنكارها: "كلب المدام". كانت به ظلال متعة يستشعر وجودها الأكيد حين تضطر المدام لطارئ ما إلى عدم الخروج، من قلقه، من النقص، الذي يصير حياته يبابا من ذلك الشيء الذي يعتصر قلبه ، شيء لن يسميه حبا، لأنه كف عن التفكير في ذلك منذ تلك اللحظة التي انزلقت فيها رجل المدام فاعترض جسدها الهاوي بكلتا يديه، بشكل جعله يحضنها ويتماسا بخديهما، ويستقر أحد ثدييها مباشرة في يده، كانا وحدهما بين الحشائش السامقة، فنفرت من بين يديه بقوة كأنها لامست نارا، خائفة بل متقززة إذ أخذت تمسح بمنديلها الخد الذي لامست به وجه شيمون، وعادت مباشرة إلى الدار، آنذاك تمنى لو كانت تكرهه، فالكراهية قد تتحول يوما إلى حب، أما المقت فلا وإلى الأبد، لقد أدرك بأنه لا يشكل في عينيها سوى كومة قذارة تجرجرها وراءها، كومة قد تسمو أحيانا لتصير أستاذا تستظهر أمامه كتلميذ نجيب ما اختزنته ذاكرتها، وقد تنحط قليلا لتصير تلميذا نجيبا تذهله بهالة اليقين الذي تمتلكه وتلهبه بنور العلم الوهاج، ولكنها لا تتجاوز أبدا ترددات هذا الشرط التربوي...

في أحد الأيام استصحب معه إلى الضيعة إبنه إسو الذي لم يكد يستقر يوما واحدا أمام المعلم في المصلى، كان نور عينيه الحسير، قد منحه انكفاء غريبا إلى الداخل، إذ لم تكن أشياء العالم الخارجي تعني له شيئا، لذا كان يتحرر بكل أريحية من كل ما يربطه بالآخرين، يعطي لرفاقه لوازم تعلم الحرف، وقطعة الخبز التي تدسها له إيزا في كمه تحسبا لطوارئ البطن، والفرنك الذي يصل يده، وقد يجردونه من ثيابه ويعود عاريا، أو يتنازل لأحدهم عن نعله ليعبر أحد السواقي ويعبر هو حافيا، وفي وجهه تعلم أشد

الأطفال ضعفا وخوفا أولى لكماتهم، بل أنهم أخذوه ذات مساء إلى الأحراش المحيطة بعين تمگنونت ولوثوا مؤخرته بالبصاق والضربات المتسرعة والخاطفة لأعضائهم المتبرعمة. ما كان يغيض شيمون وإيزا أشد الغيض، ليس صنوف التنكيل هذه في حد ذاتها، بل الرضا العجيب والاستسلام الكبير الذي كان يقابلهما به إسو. فلم يحدث قط أن عاد باكيا أو شاكيا. حتى أسماء معذبيه كان يحتفظ بها لنفسه، ولم يعرفا أبدا أهو الخجل أم أن الطفل يثوي في صدره قلبا أبيض لنبي يسلم أمره لقصاص إلهي آجل؟. سعد روبير كثيرا بزيارة إسو فقد وجد أخيرا مادة حية متحركة ليشبع فيها ميوله العدوانية المشتعلة، ألقاه في حظيرة الخنازير. كواه بالنار ووضع يده الصغيرة في رتاج الباب وصكه بقوة، حتى كاد يقطعها. وطلا وجهه بالأصباغ، وحين كان شيمون يثور لهذه التصرفات ويترك إسو في الدار، يبكي روبير بكاء طفل حرم من لعبة ممتعة فيرق قلب المدام، وبكلام خفيف عن عقلية الأطفال وبراءتهم وخصوماتهم.. يضطر شيمون ليعيده صاغرا إلى العذاب...

كانت أخبار نزهات شيمون مع المدام تصل إيزا وهي أسيرة دارها على لسان الفلاحات والراعيات ونساء يزجين الوقت وأخريات يغويهن اجتراح الفضيحة في زمن خاو، وضع فيه السلاح واستوت الهامات تحت الجزمات الصلدة لجنود الاحتلال، وتحول الناس من أخبار الحرب إلى تفاهات الحياة اليومية. كان شيمون يخضع في الليل وهو المتعب إلى جلسات تحقيق وشكوى، يختلط فيها البكاء بالعتاب بالقسم، فينتابه الأرق، كيف يقنعها؟ كيف يدحض الحجج المعززة بأوصاف دقيقة لمشاهد فاجرة متوهمة؟

كانت إيزا في أقصى اضطرابها العصبي تلجلج في الكلام. وتبكي بلا انقطاع، وتشكو من صداع حاد في الرأس وانعدام تام للشهية، فقد سقط الحمل الأول والثاني والثالث والرابع منها في شهرها السادس. وبعد أن علقت في حزامها قفلا ليمنع الجنين من الخروج في غير أوانه، وزارت

الأولياء، وأكلت وشربت وصفات معينة، وحاربت العين الحاسدة وتحصنت ضد الجنية ليليث قاتلة الأطفال، وعلقت ورقة مكتوبة عليها أسماء السبعة عشر، وأعطت بلا حساب للمحتاجين، وطهرت قلبها من كل الضغائن، وأخضعت شيمون للمجامعة وفق القواعد الأشد أخلاقية فلم يعد يتكلم أثناء المجامعة لكي لا يخرج الطفل أطرش، ولا ينظر تجاه موضع الفرج لكي لا يخرج أعمى، ولا يدفعها للإنقلاب على جنبها أو ظهرها لكي لا يخرج أعرج، وهكذا... لكنها لم تستطع أبدا أن تتحكم في جرم وانحراف كاف وحده لافساد الجنين في الرحم. لذا لم تجد بعد خيباتها المتكررة وألم الوضع في غير أوانه، إلا أن تلقي باللوم كله على شيمون. هو الذي يقذف في رحمها ماءًا ملعونا وملوثا بالخيانة، ثم تدعوه بحرقة وفي كل يوم تقريبا وفي أوضاع غير مناسبة للعودة من حيث أتوا...

صارت حياة شيمون جحيما لا يطاق يعذبه فيه خصوصا شك إيزا والانكسار الذي لايرمم للثقة المتبادلة بينهما. ولم يكن في مقدوره هجر العمل غير المكلف عند السيد لانسو، الإمكان الوحيد الذي سيخفف من آلام إيزا وحنقها غليه، حتى أضاع رجله في حادث سقوطه..

في إحدى نزه شيمون مع المدام صادفا تحت شجرة زيتون شاهقة طائرا صغيرا لم ينبت الزغب بعد على جسده، ألقته هبة ريح أو نوبة طيش من العش، فلم يرتطم مباشرة بالأرض لأن بعض الحشائش الطويلة تلقفته وانثنت حتى أوصلته سالما إلى التراب. أصرت المدام أمام صفيره وأصوات اللوعة والإستغاثة التي كانت ترسلها أمه المحومة، على أن يعيده شيمون للعش، تردد وتلكأ وأوكل في النهاية أمره للرب، فخلع نعله وصعد بأناة. كان الخوف والصعود بيد واحدة -لأن اليد الأخرى مشغولة بالطائر- يدفعان شيمون للمجازفة بعدم تثبيت رجليه فوق الأغصان، وحين أوشك أن يضعه في العش انزلق وتهاوى معه إلى الأرض، مات الطائر لتوه، وأحس شيمون بألم فظيع في رجله اليمنى ورأسه، وتحسس الدم الساخن الذي تفجر منه وصعد المدام بعينين فيهما من العتاب والمؤاخذة أكثر مما فيهما من

الألم والشكوى. قبل أن يغمى عليه، آنذاك كانت تعنفه وقد آلمها مقتل الطائر أكثر مما ألمها فخذ شيمون المكسور. وكانت تلك الحركة البطيئة التي أسدل بها جفنيه عن صورة المدام فاصلا بين سيرتين وإحساسين. فبعد أن شفي وخلع الجبيرة، دخل عالم التجارة من جديد. وكانت خطاه تقوده إلى الضيعة لأمر ما يكون في الغالب طلب توسط عند ضابط الشؤون الأهلية الذي فتنته حقا المدام، يدخل الضيعة كالغريب ويخاطب السيد والمدام بكلام لا ألفة ولاحميمية فيه بل مسافة وبرودة، يشجعه على ذلك إحساسه بأن له عليهما دينا ينبغي أن يفياه، وكان السيد يحبه بصدق فلا يرد له طلبا.

غربة الكازاوي الضليل

كان يستعيد تدريجيا إحساسه بالعالم، حين خرج من دار الدراويش. لم يكن قادرا على السيطرة على رجليه، وكانت كتفه ويده اليسرى المثقلتين بالخرق، تفسدان توازنه فيمشي مائلا، متأرجحا كأنه يدافع ريحا قوية. كان الضياء الكامل لتوسط النهار يبهر عينيه المشبعتين بالعتمة، فلا تعرف هل يلقي رجليه الحافيتين بتردد وتوجس ويعجز عن تثبيتهما على الأرض، من الوهن أم من العمى؟ ومن فتحتي تشاميره كان يظهر عضوه السري مرخيا، وسط شعر عانته الأسود الطويل كجذع شجرة ذابل وسط غابة متفحمة، مجردا من كل أبهة وقدرة على الإثارة، ففي زمن الحرب والجوع والمرض الكاسح الذي تعيشه القبيلة، يستحيل الجسد كومة من العفن والنتانة والشكوى، ويتناثر الآدميون في الطرقات كالروث، يمتص القمل مابقي من دمائهم عرايا نساء ورجالا. وفي أحسن أحوالهم يلبسون قشاشيب فظة من كتان الخيام، أو من إعادة تفصيل تلاليس بهائمهم؛ قبائل بأسرها جاءت كخلايا النحل لتتحلق حول العين ممددة في سكينة الموت، والاستراحة المؤقتة من كل الأحقاد، وإكراهات الشرف والحروب الصغيرة من أجل الحدود، والماء، وأخطاء البهائم السائبة، ومن أجل لاشيء... لقد جاء مرض التيفوس مع أول أنباء الحرب، ومالبث أن لحق بهما الجوع على عجل، جوقة جنائزية مرعبة، أياد باطشة لاتخطئ للموت، من أفلت من هذه أدركته الأخرى. وشهدت القبيلة بلا مبالاة تامة، أفراد العشيرة الاستعمارية نهب التوتر والقلق، أكثر انطواء على النفس، وقد تحول صخبهم وحركتهم الدائبة واعتمادهم الوحشي والغريب على النفس، إلى خمول وتواكل، وصارت

اجتماعاتهم حول الموائد الباذخة وشاعرية الأنخاب، إلى نشر الثرثرة اليائسة المملة عن الحرب. وبقليل من الاهتمام رأوا الشاحنات تأتي تباعا بهديرها الرتيب، ووجوه ركابها الغرباء القاسية المتعرقة، وتذهب محملة بكل ما أنتجته الأرض والبهائم، وحده اعضيضة المخبول كان يتمدد أمام عجلة الشاحنة ليمنعها من الحركة، ويدعو المارة بحرقة ليفعلوا مثله، وحين يزاح بقوة يمسك بها من الخلف ويحاول أن يوقفها فيجرجر على الأرض باكيا صارخا من الألم واللوعة:

- واناري... واناري... واناري..

ثم تتكشف عنه سحابة الغبار جاثيا على ركبتيه يقطر دما، يحثو التراب، ويهيله على رأسه مرددا:

- خْلات... خْلات... خْلات...

لم تكن لا الوجوه المثقلة بسيماء شفقة تطهيرية، ولا المرحة بابتسامتها الساخرة المتسترة على خوف أكيد، ولا المأخوذة في حيادها برزانة الحكمة القائلة "اللِّي مَا خْرَجْ مَنْ الدَّنْيَا مَاخْرَجْ مَنْ عْقَايَبْهَا"، تدرك خارج غرابة المشهد المختزل إلى استعراض مرتجل للعضلات في محاولة متنطعة لإيقاف الشاحنات المتحركة، سر النبوءة الصادقة في كلمات اعضيضة، وإرهاص المصير القاتم الذي يعلن حضوره في آثار رحيل الشاحنات، بدد اعضيضة دمه ولم تتحرك القبيلة، بل أنها لم تفهم مغزى حرقته وموته إلا في تلك اللحظة التي لم تعد تجد فيها شروى نقير.

وبكل الاهتمام الذي لاينفع، رأت القبيلة نفس الشاحنات تعود. وكما كدست أكياس القمح، والصوف والخرفان، كدس البشر، كل سواعد القبيلة الخماسة والرباعة وأصحاب الخبزة والرعاة، سيقت بالترهيب والترغيب، بسراب الوعود وصرامة الأوامر وحكمة الامتثال، للمقايضة الفاجعة للدماء ببضعة أمتار من كتان خشن أو كيلوات سكر. أخذتها العائلات الثكلى بعد أن فلسف الجوع النذل مبرراتها: كلفة أخرى، لاعناء

فيـها غـير البـعد، وأسلمت أبناءها وقـودا لفوضى التـاريخ المشتعلة هناك في البعيد...

كان بيبـينو مستغرقا في حـربه الخاصة مع الذاكرة، غيـر عابئ بالجوع والعري والضعف وحـرب الآخرين، يجهد نفـسه في وصل خيوط مـتقطعة لزمن هارب، وترقـيع صورة مـتناثرة وغيـر مكتملة، لايعـرف هل مصـدرها مـايكون قـد عـاشـه أم الخيـال؟ عـجين من الأصـوات والوجـوه والأشـيـاء والأمكنة المتـداخلة، ينطـلق من الصـورة الأصل التي لاشك فـيـها سـقـوطه المفتعل من فوق المنبر. كان يريد أن ينهي بذلك تعلق أعين المصلين الخاشعين بفمه الذي لن يقول شيئا، لكن يديه اللتين كان من المفروض أن تسبقا رأسه لتهـيئا له بكفـيـهما مـوضعا يمكنه أن يرتـطـم به بأمان، تعطلتا في التـجاويف الصغيرة لزخرفة المنبر، وسارت الرأس إلى الأرض الصلدة وحيدة بلا حماية، شهيدة الخيانة اللامتوقعة لليدين.. تأتي بعد ذلك الصور المشكوك فيها، زليج أزرق باهت تتـخلله دّوائر بيـضاء وسـقف خشـبي منقـوش، وكلام خـافت لكائنات غيـر مرئية. وشـوشة متـقطعة، وخطوات تنقـر الأرض في اتجاهات متعاكسة، يبتلعها بعد حـين صمت ثقيل. ألوان متراقصـة، دوامة أو مؤامرة تحاك خـيوطها في تكتم، دفـء الأغطيـة الصوفيـة والرغبة التي لاتتـحقق في إبعـادها إلى تحت، طعم حـسـاء دافئ حلو. سمـيـدة وحليب، الحلق الجـاف والرغبـة في شـرب الماء، صلوات، بخـور، شيء يثـقل الرأس، ثم اصطفـاق قوي للباب، وكلام صاخب قريب، وضربة في البطن وأخرى في الرأس. ألم وبيـاض والصـورة القـاسيـة للعـراء، الآلام الفظيـعة، والأرض المـبلولة بالماء، والبـرودة القاتلـة، والأعضـاء اليـابسة المفـصـولة عن بعضـهـا، الزحف المرير والطويل للإحـتماء، قطرات الدم المفـتتة بـالقطرات القوية للمـاء والذائبة في السـيـول الجـارية، الزمن الفـاتر، والـوجـوه المعـرضـة، والأيدي الخـشنة التي تتحـسس الثوب الساتر في الظلام وتسلخـه بقوة، العري التـام، والمعدة التي تطحن الهباء، والإحساسات المختلطة في التعاقب المدوخ للنور والظلمة...

لم يكن البياض الفاصل بين لحظة سقوطه من المنبر، وحمله فوق العربة من طرف ممرضين غليظين قاسيين باتجاه دار الدراويش. ثغرة لاتحتمل في سيرة مجيدة، يدأب بيينو على رتقها فقط، كان يريد أجوبة على أسئلة محددة: كيف تم الانتقال من الإحتفاء العام والرعاية الباذخة في البيعة إلى البهذلة الكبرى فوق العربة؟ وأين اختفى ولد الحرام الذي قاده إليها؟ وممن يأخذ ثأره لشرف تجربة حافلة في الحذق والدهاء داخل المدن الكبيرة المهذرة في هذه البصقة الصغيرة المسماة بني ملال؟

ذو القـــروح:

كـان تأسيس دار الدراويش، الإسم الشعبي لما كان يعرف في السجلات الرسمية الفرنسية بمؤسسة الدكتور بلون للحجر الصحي، فكرة تفتقت في ذهن طبيب المركز الصحي الصغير بساحة المطلق القديم مسيو برينو في أول لحظات استسلامه أمام عتو مد الوباء. وتحمس لها المراقب المدني كثيرا، فأمر في يوم ميلاد الفكرة نفسه بإخلاء المخدع القديم قرب أحجار لالاناقة وغير بعيد من قبة سيدي عبد الحليم، من جيبات الجيش المعطلة والشاحنات المفككة والإطارات الفاسدة وقطع الحديد التي لابأس شديد فيها ولانفع. ومن صبح اليوم الموالي أخذت ما أصر مسيو برينو على تسميتها بمؤسسة الدكتور بلون تكريما لأستاذه مدير معهد باستور بالرباط، تستقبل هياكل آدمية نخرة لاتقل مواتا عن الهياكل التي أفرغت منها، في مهمتها الغريبة، فإذا نسينا كلام المراقب المدني الذي عرج عليها في ذلك الصباح مرفوقا بالباشا وشيوخ القبيلة وبعربية صافية واقتضاب معجز وملغز وسخرية براقة خطب قائلا: "لعل هذه المؤسسة ترضي ذلك الكائن النهم المسمى المصلحة العامة" وانسحب؛ فإن دار الدراويش كرست لخدمة الموت، وتنظيم عمله: إذ كانت تجمع كل الأرواح الآيلة للرحيل، حتى إذ جاء عزرائيل رسول الموت الكئيب، وقع صك الخلاص الجماعي، دون أن يعفر هيئته المهيبة في الطواف المرهق بين الحواري الضيقة والمتداخلة للقبيلة المنكوبة. وباستثناء برميلين متفحمين كانت تغلى فيهما ثياب المرضى

مخلوطة بالكبريت، كانت برودة الإسمنت مشرعة للجميع في إفراط العري القاسي الذي قامت عليه الدار، صامتة من الخارج تعج بالأنين المكتوم والمعلن في الداخل، مرعبة، الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود. وتحت ثقل أوامر صارمة من الدكتور برينو تجند مقدمو القبيلة لتصيد كل من ترتفع حرارة جسمه أو يصدر أنينا مجهدا أو يمشي متثاقلا متعثرا وكل من يمتقع لونه أو يشكو من أي شيء، تصيد كل الاختلالات غير الطبيعية، والطبيعية في جسم القبيلة الضعيف. والزج به ولو لفائدة الشك داخل الدار. وخوفا من الحجر عاشت القبيلة وسط زمن الانهيار العام زمنا آخر من التظاهر بالتماسك والإدعاء. فهربت أناتها إلى البساتين المجاورة والكهوف، وتكلفت أرجل القبيلة الواهنة العناء الرهيب للسير بثبات في مشية عسكرية منضبطة لا مخاطر بعدها، وعند كل صباح وكل مساء كان الدكتور برينو يتفقد المرضى عن بعد ليستطلع مناورات الوباء، وقد اقتنع أخيرا بأن رسالته أصبحت تتمثل فقط في إبعاده بكل الوسائل عن الفرنسيين، و يأمر لكي لا تمر زيارته بدون هالة الرحمة والأمان التي تمنحها هيئته الملائكية، بمحاربة القمل والبرغوث لتعم السكينة المرضى في لحظاتهم الأخيرة، وبمضاعفة حصة حساء الذرة، الوجبة الوحيدة التي كانت تقدمها الدار، لكي يموت من يموت بلا مرارة الجوع ولا مشاكل هضمية، ويمضي مخلفا المرضى تجري من تحتهم سيول البول والبراز المائع... في حمى نشاط المقدمين لكشف الحالات الخبيئة، كانت حالة بيبينو الممدد في ساحة المطلق القديم عاريا تماما وبلا وعي، غير قابلة لأي لبس لذا جمعته عربة الدار في طريقها لأخذ ضيف نزل بإحدى الدور، كح طول الليل فوشى الجيران به مع آذان الفجر. وقيد بيبينو في صمت غيبوبته بسجل الدار مجهول الهوية ومقر السكنى، يعاني كل أعراض الوباء والجنون. لم يكن المشرفان على الدار يفتقدان الخبرة في شؤون التمريض فقط بل يفتقدان أي إحساس له علاقة بالمهنة، ولا يعرفان من اللغة سوى ست كلمات أقصى ما يحتاج لتسجيل الحالات. كانت مزيتهما الكبرى هي الفظاظة وخلو قلبيهما من كل أعراض الشفقة، ولهما وحدهما يرجع الفضل في معجزة تحويل الأنات المجهدة إلى صرخات

احتجاج ضد الحجر ونتانة الكبريت والجوع. فيرفع المرضى قشاشيبهم حتى صدورهم ليظهروا جلدهم المحترق لمراقبين غير مرئيين ويرددون من أعماق أرواحهم الذابلة:

"وِينْ الصَّابُونْ

وِينْ النِّيلَة

هَاذْ القَشَاشِبْ

رَاهَمْ كَالُونَا"

وبدافع نوبات احتجاج المرضى كان بيبينو يسترد وعيه بشكل متقطع في الركنة التي انتهى لها في خضم الحركة الدائبة للأجساد الملقاة والمحمولة هامدة، مقاوما أثقالا شتى: ثقل جفونه، التي تحولت رغبته في فتحهما إلى ارتعاشة يائسة يعقبها انطباق تام. وثقل أذنيه اللتين توصلان أصوات الاستغاثة والألم والاحتجاج رجعا بعيدا لدمارما، ينقصف الصوت ثم ينقصف في رحلته الطويلة إليه، ويصل مشوشا بكل ما اختزنه أثناء عبوره عالم القفار... لكنه استرسل في صراعه فقط مع ذاكرته، التي عليها تبرير وجوده هنا. ينضد الصور المنبثقة من بياض، يبحث عن سببية تعقل الوابل المبهم والمضاد للأصوات والوجوه والأمكنة والإحساسات لكنه يصطدم بثغرات سحيقة تستفحل اتساعا... تاريخ مشكل من طفرات لاإيقاع يحكمها. لكن في آخر كل استعراض يائس للصور الشائهة. كانت كل الصور تتناثر فوق الوجه وتتراكب وتدور كفراشات صغيرة حول سراج وهاج. وجه يحكم سيرورة هلام من الذكرى. وجه الأفاق الذي أخذه إلى هناك، أصل البلاء الذي تبخر...

وبجسم يتقشر بفعل نار الكبريت كحراشف السحالي، أخرج بيبينو من دار الدراويش لايلوي إلا على رغبته في الانتقام، متعثرا في بداية رحلته لاستعادة شرفه. لقد تبين أحد الممرضين بعد زمن طويل بأن رسول الموت قد عافه، ونزه نفسه عن المرور بالركنة النتنة التي يتكوم فيها، فمنح بيبينو

الشرف المستحيل للخروج من دار الدراويش منتصبا بجسد لازالت تختلج فيه الروح. ومع أول خطواته كان هدفه محددا، الوصول إلى المقهى التي لقي قربها صاحبه ولد الحرام. وأمام متاهة الأزقة المتزاحمة في تأهبها لابتلاعه، وكأنه محكوم ببوصلة لاتشير إلا للجنوب، انحدر كما فعل ذلك الصباح مع أول زقاق يولي وجهه شطره. سار في زنقة الباشا، تسنده جدران البيوت عند تمايله حينا، وتتخلى عنه حينا آخر، فيتأرجح ويسقط، ثم يقوم حتى خيره المخازنية بفظاظة بين الجلوس حيث هو والانتظار أو العودة من حيث أتى. ولما كان أي متر يقطعه مكسبا ثمينا فقد قنع بالجلوس والانتظار.

خبر:

(يخرج حريم الباشا في بهرج رحلته الاسبوعية إلى الحمام، ولتأمين عمى القبيلة التام عن ذره المكنون كان المخازنية يلهبون ظهور الناس بالسياط لسد حوانيتهم، أو لسحب ذواتهم من طريق الموكب. حتى النوافذ النادرة والسطوح تخلى وتراقب، وطيلة الساعات الطوال التي تقضيها النساء في تغيير هندسة أعضائهن، ونحت صورة جمال كامل بقوة البخار الحار والحكاكة، كانت كل مصالح القبيلة تتعطل ويحظر عنها التجول. محتقنات الخدود، صقيلات العراقيب، راضيات، يوزعن ابتسامات اعتذار للحيطان الصماء. وخلفهن العبدات الصغيرات يثرن جلبة بسطولهن الفضية وتعاليقهن الماكرة في استشاطة صباهن المغدور. كن يعدن، فتنفك الأسارير المنحسرة للقبيلة، وهي تستعيد تملك فضائها الأثير والحميم).

عاد الفلاحون للتهالك على حائط آيت العروي، في جلسة الأصيل الطويلة، صامتين، شاردين، وفي أوقات متباعدة يتبادلون حوارات خافتة متقطعة لاتصمد أمام غواية الصمت المريح لأجسادهم المهدودة التي تستنفذ طيلة النهار آخر ذؤابات جهدها في المماحكات المتكررة للتراب. كان بيبينو في حاجة لمن يدله على الطريق لكنه لم ير فائدة من سؤال

أحدهم، كان باديا افتقادهم لأي قدرة ورغبة في الكلام، كأنهم صلبوا قعودا.

وبمحاذاة المدى المفتوح على السهل الدامي لزنقة الحطابة، وقف قليلا للتأمل. كانت ذرات الليل تتلاحم في البعيد، قبل أن تجتاح القصبة، وأسراب طائر البقر ترسم في السماء مثلثات تضيع قاعدتها أبدا في سعيها الحثيث للوصول إلى الجبل قبل أن يكتمل الليل. وفي أقصى الأفق كانت غيمة بيضاء صغيرة ومسالمة تتبع المصير الذي خطته مشيئة الريح. وغير بعيد على إيقاع هباتها الناعمة والدافئة تمايلت الزهور البرية التي اجترحت وجودها فوق حواف الدور رغم إدعاءات العمران البشري. الله.. ياه.. إنه الربيع! كانت شهقة فرح حقيقي عبرت الجسم الوهن لبيبينو من أخمص رجليه حتى قمة رأسه الجرداء. الربيع، الدفء، النهارات الطويلة والليالي القصار المأهولة بالأرقين والعشاق والغرائز المبهمة، نهاية العزلة والتواصل المسترسل بلا حدود والروائح، وبرغم أن رائحة الكبريت كانت تختم حاسة شمه، فقد انتشى بكل روائح الأرض الشدية المنبثقة من أعماق ذاكرته. ولكي لايجهض فرحته لم يستسلم لحسابات موجعة عن الزمان الفاصل بين اليوم الذي نزل فيه من حافلة شيمون بلولو والآن...

سار في خط مستقيم، وحين دخل ساحة الكركور، رأى قرب باب الزاوية حشدا من الناس يطاولون وقوفا على رؤوس أصابعهم قامات بعضهم للوصول بأيديهم إلى يدي الرجل الذي اعتلى سرادقا صغيرا وأخذ يوزع قطع خبز أسود، يبدو مع سربل الظلام الشفاف وكأنه عجن من رماد، اقتعد الأرض وتابع دغل الأيدي الممدودة كألسنة لهب نحو الخبز، وحز في نفسه التبدد السريع لكل القطع من بين يدي الرجل، وأخذ عليه تخلصه منها كيفما اتفق. نزل الرجل من السرادق بعد أن انفض من حوله الإكليل البشري، ودخل الزاوية فعاودت نار الجوع في البطون الخالية أكل نفسها، وكأن ظهور الخبز حصل في دائرة الوهم، تجل عصي وخاطف للشيء المرغوب فيه بقوة، برق التمتع في أقاصي أحلامهم وضاع في الظلام،

انعطف يسارا واجتاز فندق (دو باشا) ليجد نفسه وجها لوجه مع الساحة الكبيرة، كانت ذرات الليل المتماسكة قد أتمت هبوطها، فاكتست الأشياء ملامح هاربة، وحافلات شيمون بلولو المصفوفة بدقة تغفو في سكينتها الليلية. على امتداد الساحة كانت حلقات الذكر ورواية السير وطب الأعشاب تنفض لتوها أو تستنفذ آخر قدراتها على إثارة الصخب المثير، وحدهم كناوة يوغلون في الليل بإيقاع لا سلطة للزمن عليه. خرج القمر كاملا، وتدحرج على طول الجبل حتى استقر فوق الساحة ناشرا عباءته الفضية على من لا غطاء يسترهم في تمددهم حول أشجار التوت وبمحاذاة الجدران، أجساد نطيحة وما أكل المرض والجوع. بضعة حصادة يافعين وقلقين يتوسدون حوائجهم، وكلما ندت حركة غريبة في دائرة محيطهم تمتد أيديهم تلقائياإلى مناجلهم. تدبر بيبينو متكأ وتهالك عليه، لم تدفعه هذه المرة ريح صخرية باردة ليتجمع على نفسه فقد فرج بين رجليه وسدلهما ورفع التشامير حتى إليتيه ونش عليهما قليلا لتجفيف حبيبات عرق مالحة تتسلل إلى قروحه فتثيرها ليبدأ الوخز. وبنوم كتغميض القطا قضى الليل كله، يغفو قليلا فتهيج قروحه، فيهب ناشا بأطراف تشاميره، كأنه يدافع نارا تندلع في لحمه من تلقاء نفسها...

في الصباح أتم بلا استعجال ما بقي من نومه المنغص، خلت الساحة تماما مع آذان الفجر، خوفا من ممرضي دار الدراويش، واستمر هو ممددا حتى لهبته الشمس في الأمان الذي توفره له بثوره ورائحة الكبريت التي تستصحبه، جواز حريته الأكيد، إذاك تحامل على نفسه ونهض، قصد العين الصغيرة، ليبل جوفه الناشف. كانت العين اختلاجا لمصير يؤذن بالفناء، خيطا من دموع صافية ومسالمة، غير قادرة على شق مجرى. لم تصطف لوجودها مهوى ولا منحدرا يهبها قوة تملي مشيئتها على استعصاء التضاريس كباقي العيون. كانت قوة خفية تدفع قطرات الماء الخجولة من تجليها المعجب في منبسط بلا حفاوة الأشجار والزهور ولا خرير للخروج؛ فوران انتشاء يرى الناس، صراع للعودة إلى الرحم، وحنين مبكر، تهمس

قطرة وصد باب العودة دونها لمن هتك الحجاب. تمدد بيبينو ومرغ وجهه في الماء الدافئ. لم يحن رأسه ويمد مؤخرته إلى الهواء كما يفعل الآخرون، لم يخضع للإذلال الشنيع الذي تفرضه على شاربيها، إذلال منحها إسمها "عين كوز" ونسيانها التام بعد ذلك، حين نضبت في فضاء تسترد فيه سطوة الأخلاق أبدا شواردها..

كانت الطريق الآن معروفة لديه وهو يطفح بقليل من الحيوية بددته خطواته الأولى، ومن جوعه أخذ يمني نفسه: إن وجده سيأكله. لكن المقهى كانت مقفرة وأبوابها موصدة ولا أثر لبشر، حتى اللوحة التي تهجى فيها "مقهى الجزائري" اختفت.

سيتمدد بيبينو حينا طويلا من الدهر قرب الخضار ناصبا فخاخ صبر لا ينفذ، ويقينا بأن رجلي ذلك الأفاق ستقوده حتما في يوم ما إلى هنا.. وسيسأل مرارا كل من اقترب منه عن المكان الموصد ليتأكد بأن مقهى كانت هناك، وأنه خارج دائرة الحلم والهلوسة، وسيبتز بعينين منكسرتين وروح تبلغ التراقي وتؤوب مايقيم الأود من الخضار الذي يلين إصراره على تجاهله في كل مرة، يقينه بأنه يعتق رقبة، والروح عزيزة عند الله، وسيتعقب بخفة عنكبوت رجالا في متاهة الأزقة المتداخلة، ليكتشف وجها لوجه أمامهم اختلالا ما في تفاصيل الوجه الملاحق والمحفور بقوة في الذاكرة، فينسحب أمام النظرات الرهيبة التي يحدج بها، أو يفاجأ في انعطافة ما أو زاوية أو امتداد طولي لاينفذ بالاختفاء الملغز لهدفه، طيف ترجل من تعريشة أوهامه ليختبر حقيقة نواياه وعاد...

أحقا حفر صورته في ذاكرته؟ إن عودته الخائبة دائما، وبصبر ودأب عوامل التعرية في حربها ضد كمال أعمال الطبيعة الأكثر فتنة، قد أخضعت الوجه شيئا فشيئا لقانون التآكل البطيء والحاسم، فأخذت تحضر بيبينو ملامح مترددة، هاربة، ومفتوحة على وجوه كثيرة سبق أن عرفها. بريشة من خيال معذب أخذ يقضي الساعات الطوال يرمم وجه أوهامه، وبعناد خشبة تضغط داخل الماء، كانت نفس الملامح تطفو على إيقاع

لمساته الخفيفة. قد يضغط قليلا شفتيه المكتنزتين، لكن البسمة الفاترة في انفراج زاوية لقاء الشفتين تظل تومض بالسخرية والمكر، والعينان تضيقان أو تتسعان لكنهما تحافظان على بريق الخديعة، والأنف الشامخ، والخدود المحفورة، واللحية المشتتة التي يرعاها الإهمال الشديد. لكن كل هذه الملامح لم تنجح أبدا في صناعة وجه واضح يمكن تذكره بصفاء. فهل منح حقا الوقت الكافي لتثبيت صورته في ذاكرته؟...

حين يعود إلى الساحة ليقضي الليل فيها، تكون جنباتها تصعد آخر أصواتها وروائحها: عطور شهوانية، بخور وعرق، عبق الإنصهار الحميم، والقبيلة تتفيأ احتفاءها الغسقي. تعال، تصعيد جسور لكل العذابات. يرى الحافلات تتحرر من ركابها أو تتأهب لابتلاعهم، وهو قد وطن قلبه: لارحيل بعد اليوم. ليس لأن الطائر المهاجر قد عثر أخيرا على أرض أحلامه، بل لأن حمأ الأرض استرده، بعد أن جرده من أحد جناحيه. كان يعيش عذاب ومذلة طائر مكسور الجناح ممددا كان يهرب يأسه من التعاقب الرتيب لنفس الوجوه، إلى تملي السماء السحيقة حيث تدأب الخطاطيف على توقيع رقصات مظفرة، تخط دوائر وتستسلم بعدها لهذيان الريح، أو تجمع كل قواها وتخترق سرابيل السماء صعدا في خط عمودي كأنها مأخوذة بنفس رغبة النمرود في تدريج سهمه بدم الله. كانت الصورة الأقرب إلى الخيال الجمعي المروع بالجوع والتيفوس، هي أن يرى فيها جوارح تحوم فوق جثث مرتقبة، لكنه وهو يرى يده المثقلة بالخرق وجسده الميت، كانت تجسد في عينيه كل دلالات الإنطلاق، والثمالة بالحرية، والإنقياد لحكم المدى المفتوح. في الأيام التي طفح فيها يأسه، وبدأ يغازل النسيان، المرفأ الوحيد الذي ينحل فيه صراعه ضد الزمن كانت القبيلة تتدبر أمر القطرة التي تسربت من الإسمنت الصلد والمنيع للعشيرة اليهودية، القبيلة التي يكفي فتيت بخور لتتبخر من أقصاها إلى أقصاها، ليفاجأ بيبينو بابتسامات التواطؤ السري التي أخذت تقابله هنا وهناك، والإشارات بالأصابع التي صارت تتعقبه، والوشوشة، والنظرات المنبهرة التي يصعد بها.

وكمن أقحم في مسرحية يجهل نصها، كان بيبنو يخلط في وجهه حشدا من المشاعر المتناقضة. وبرغم أن محاذاة الأنا للفناء تحررها تماما من سطوة قيم كالحشمة والتكبر والوقار.. فتعرض نواقصها وعاهاتها دون أن تداريها، كالشيخ وحيش -الصوفي الكبير- وهو يركب دبر أتانه وسط سوق صاحب بمصر، ويدعو المارة الذين تخسف بهم الدهشة الأرض، في حرقة شبقه إلى مساعدته بضبط قوائم ورأس الملاذ الأخير والغريب لرغبته، فقد أخذ بيبينو يداري عضوه المتنطع أبدا من الفتحات الكثيرة بيده حينا وبأطراف التشامير حينا آخر، ويخفف خطوه متمسكنا، محاذرا أدنى استثارة للنوايا السيئة التي أخذت القبيلة تتبعه بها، والتاوية تحت التقاسيم الخادعة للوجوه المبشورة والأخوية. اقترب منه بعض الفضوليين، حاصروه بحذر في الأول بأسئلة تطفو من تلقاء ذاتها في لقاءات التفاهة العابرة، واقتربوا من كسر يده بعد ذلك. فأعادوا بلا كلل نفس السؤال وبصيغ مختلفة عن ذلك السبت الماطر. ولم يصدقوا الرواية الفقيرة جدا التي يحكيها بيبينو في كل مرة عما جرى، كان في الأعين المخذولة يتنكر بعناد غريب لإنجاز باهر، وأمام نفاذ صبر القبيلة تكفل خيالها بابتداع حكايتها الخاصة، تحركها تلك الرغبة القديمة التي تجعل مقدس عشيرة يلتذ بتدنيس مقدس العشيرة التي تجاورها، تقويض شرف الآخر وقذفه في الإبتذال الأقصى، وعاد نفس الفضوليين لينتقموا من صمته، لم يكن عليه إلا أن يؤمن برأسه على الكلام كأنه يستمع لحكاية إنسان آخر:

..لقد تنكرا في زي الربيين، وقصدا البيعة يوم السبت الماطر، وقدما نفسيهما على أنهما قدما لتوهما من فلسطين، ومن شدة فرحة العشيرة اليهودية طلبت منهما قيادة الصلاة، وبعد ذلك، وكما ينبغي تجاه رسل الرب، أخرج اليهود كنوزهم الخيالية الخفية، وأخرجوا ما لاعين رأت ولاأذن سمعت، فرفلا طيلة أيام عديدة في نعم لاتحصى، خصوصا شراب الغياب اللذيذ ماحيا. لو لم يعرج تاجر يهودي من الدار البيضاء على المدينة ويلح على التبرك بالربيين، ومن المرحاض سمع الآخر صخب الحقيقة حين

كشفهما التاجر الذي تعرف على بيبينو وسمع هستيريا الضرب بما اتفق، وتسلل على أطراف أصابعه إلى السطح وقفز إلى الزقاق وهرب...

وبرغم أن ثمن الحقيقة كان فاقعا في جسد بيبينو المتقصف، فقد حاز شهرة محلية، وأصبح لشهور ممجدا كمحارب عائد من حرب عادلة. ومالم يدركه بيبينو آنذاك هو أن القبيلة كانت محتقنة القلب على العشيرة اليهودية في ما أخذ يعرف لاحقا "بأيام البون". كان المختار الجزائري هو الذي يتكفل في البيرو بتوزيع بطائق تموين السكر. وفي عذاب الحاجة والصف الطويل تحت الشمس الحارقة، كانت القبيلة المنهكة ترى ظلالا من حظوة ومحاباة ينالها الذميون منه تحت العين الأبوية اليقظة والمباركة للمراقب المدني، لكن طوبى للزمن الغابر، زمن الإنتقام للكبرياء الجريحة بسورة غضب لاتبقى ولاتذر. والاحتكام السريع حين يتعلق الأمر بماء الوجه لعدالة البارود وحده...

والقبيلة تكظم غيظها وتبتدع مسالك للتنفيس عن قلبها المحتقن تجاه العشيرة اليهودية، كأن تتشدد في ضرورة سير اليهود حفاة في سوق الزرع؛ وتخفف شيئا من غضبها فوق قفا يهودي اجتاز الطريق أمام المسجد ولم ينكس طاقيته في يده؛ وتبارك حروب الأطفال الصغيرة ضد السخينة الفوارة الخارجة لتوها من الفرن، التقى بيبينو صدفة في المارشي بمدام ماري انطوانيت، كان جسدها ينوء تحت ثقل قفة محملة بالخضر فجمع مزق الكلمات الفرنسية التي حفظها وعرض عليها المساعدة...

ماري – أنطوانيت:

"المُسْتَعْمِرِي هو الأوروبي الذي يحيا في مستعمرة بدون امتيازات، وهو الذي لايتمتع بظروف حياتية تفوق ظروف المستعمر الذي ينتمي إلى نفس الفئة الاقتصادية الاجتماعية المقابلة، المستعمري هو الأوروبي الذي يظهر نوعا من حسن الجوار، سواء كان ذلك بسبب من طباعه الخاصة، ثم بسبب من قناعاته الأخلاقية. وهو الذي لايتخذ إزاء المستعمر موقف

المستعمر (بكسر الميم). إذن لنسارع إلى القول، رغم القساوة الظاهرية للتأكيد: أن المستعمري الذي ينطبق عليه هذا التعريف ليس موجودا".

هكذا تكلم البير ميمي في كتابه "صورة المستعمر والمستعمر"، وكل من عرف ماري-أنطوانيت سيستهجن حتما الوثوقية والتعميم الشديد الذي ختم به فقرته، عدا الجملة الأخيرة تكاد الفقرة تنطبق بتمامها على حالة السيدة التي أحبها الجميع هنا؛ لذا وبقساوة مماثلة نؤكد: إن المستعمري الذي ينطبق عليه هذا التعريف قد وجد بالفعل، ولو كان ذلك عبر حالة واحدة متفردة ومعزولة حظيت القبيلة بشرف احتضانها.

بعد الحرب العالمية الأولى قر قرارها على الرحيل بعيدا؛ فقد لقي زوجها حتفه في الجبهة؛ وسافرت إيلين إبنتها إلى الهند خلف زوجها الدبلوماسي؛ وتذرع إبنها فرانك بالآفاق التي يفتحها له العالم الجديد لتعميق بحوثه الجيومورفولوجية ليختفي هو الآخر بنيو أورليانز. وظلت هي تنتظر الرسائل التي لا تأتي؛ تخنقها الذكرى وتعذبها الصور الثلاث المعلقة؛ والابتسامات الأزلية التي لاتقهرها قوة الزمن، ولاتذيبها الشفقة نحوها. وبعد ليالي السهر الطويلة وساعات البكاء وغيابات الشهية والحيوية وحوافز التعلق بأوهام الحياة، اقتصرت حركاتها داخل البيت على اللازم والأدنى كقيمة على متحف تخشى أن تخل أبسط حركة زائدة بتوازنه الهش، فتعفر بهاء الماضي وعبق الذكرى. واكتشفت فضائل المكتبة في أحد المساءات، كانت قوة الحنين تدفعها لتحسس أشياء الغائبين بحثا عن ذلك الدفق العارم من العزاء. فالحركة البسيطة، الأنامل الممررة على الشيء الصامت وبشحنة خاطفة تأخذها بعيدا، إلى ذلك المكان الملغز، حيث تتشابك الأيدي ويتوهج العناق، تقبلهم على وجوههم وأعناقهم وأيديهم وتبكي... لكن لحظة الانخطاف هذه تنقضي، فتؤوب سريعا إلى رماد الفقدان. أخذها الوقوف على الأطلال واستنطاق أشياء من رحلوا بعد تعريج على الغرف الخاصة استنفذت فيه الملاءات والمزهريات والرفوف الفارغة والمقابض والكراسي.. في فضاء الحنين ذاك كل قدراتها على البوح إلى الكتب.

تحسست بعض الأوراق في الأول ثم انقادت للبحث عن كتب علقت بذاكرتها من مشاهد قراءة وضاءة تنبثق آسرة كاسحة حسب الهوى الانتقائي للذاكرة. تحسست الأغلفة وتوقفت كثيرا عند التعاليق والأفكار التي كان من عادة زوجها وفرانك كتابتها بقلم الرصاص على هامش الأوراق. وتوقفت عند الخطوط التي كانت تتخلل فقرات معينة، تعتصر المتعة اليائسة لاستقرار نظراتها فوق نظرات محبوبة وسابقة لازالت الأوراق تحتفظ بآثارها. لكن الحياة تتخذ أبدا مسارات عجيبة لاتستطيع توقعاتنا أن تحيط بها مهما كانت شاسعة. فالكتب التي كانت الملاذ الأخير لجسد كان يتضاءل باستمرار، ولقلب فاض بالمرارة ولروح كانت تعد خطاها الأخيرة للرحيل الأخير، شكلت في النهاية المخرج المعجز من اختناقات الأسى وهندسة الخراب التي نذرت نفسها لها. ألم تقف الكتابة أبدا على عتبة ولادة الأشياء؟..

كان زوجها يحضر طيلة السنين الطوال التي قضتها بجانبه سفرا طويلا. يبدأ من الهند وينهيه بالمغرب مرورا ببلاد فارس والعراق والشام ومصر. فقد ورث انجذابا آسرا للشرق عن جده، أحد قواد جيش نابليون الذي غزا مصر. وفي سنوات شيخوخته كانت كل طاقته على الثرثرة تلاحق سحرا خاصا لذلك الفضاء العجيب، سحرا لم يستطع استنفاذه كمحارب تخنقه الأوامر والإكراهات، فحمل معه إلى القبر غصة الرغبة المخذولة -إلا من العدوى التي أصابت قلب الحفيد- في العودة إلى مصر كسائح. دأب الحفيد بعزم كبير على إدخار المال اللازم لرحلته الطويلة، مالا كان يجد دائما الظروف غير المواتية للاضطرار لإنفاقه؛ عزاؤه الوحيد هو الصور وكتب الرحلات إلى الشرق التي أخذ يراكمها ويدمن على قراءتها والتعليق عليها في حواشي الأوراق حتى انتهى به الأمر إلى ارتجال قصائد مديح للأرض التي لم يرها إلا من خلال عيون الآخرين. من قبيل:

"أنت أيتها الأرض

موطن الفرح الجماعي والنور والنحاس

يحمل الآخر فيك عبء وجودي
بالقدر الذي أحمل فيه عبء وجوده
أنت يا أرض المشاطرة والخلاص".

أخذت ماري-أنطوانيت تحفظ عن ظهر قلب هذه المقطوعات برغم تهلهل إيقاعها وابتذال دلالة بعض أبياتها. ليس لشحنتها الشعرية، فهي أكثر من يعرف أن الجندية خلفت لدى زوجها الصارم فقرا كبيرا في الأحاسيس وجفافا في اللغة، بل لأنه استطاع من خلالها أن يصف كل مكونات الحياة التي كان يتطلع لعيشها هناك: الشمس، الصحراء، اللامتوقع، الخمول، تدفق الحياة في مجرى مفرغ من سعار الزمن، الجلسات الباذخة وسط الحريم والبخور ورائحة التوابل، صخب الأسواق وغنائية الحركات والوجوه والأزياء...

وفي آخر مقطوعة كتبها قبل أن يلتحق بالجبهة، تحدث عن "الحياة الأخرى" التي "يتحلب طعمها في فمه" وهو لم "يذقها بعد". ولاتعرف ماري-أنطوانيت لماذا استثارت هذه المقطوعة الصغيرة بالذات كل أوجاع قلبها، وخلفت لديها رغبة في البكاء لاترتوي. وفي خطوات الأرق التي كانت تذرع بها البيت، انتهت إلى أن الانقذاف المهول في المجهول واللامعنى الذي أحست به في خضم دموع الوداع التي شيعت بها الأحبة الراحلين، مصدره بالأساس إحساسها بأن الحياة التي شيدتها لحظة لحظة منذ سنوات طويلة، سحبت هي الأخرى الباب وأوصدته في وجهها ورحلت. كيف سيكون للأشياء معنى بدون من كانوا يمنحونها بأنفاسهم وكلامهم الصاخب والهامس وحركاتهم دفء الحضور؟..

بصلافة الباب الموصد في الوجه، هكذا عاشت ماري-أنطوانيت على عتبة الحياة. قبل أن تكتشف تلك المقطوعة الصغيرة التي فسرت لها أخيرا لم أعرض زوجها عن الصلاة، ولم يذهب أبدا إلى الكنيسة: جنته المحلوم بها والمنتظرة، توجد في ركن ما من الأرض، لاخارجها. جنة لن يوصل إليها لا

القداس ولا الدعاء ولا الصبر لآلام الحياة، بل كمية كبيرة من المال لم تتوفر له أبدا، وقدرة على التحرر من كل التزام. واكتشفت ماري-أنطوانيت بلا مزيد من الأسى، كيف أنها لاتوجد في مشاهد الحياة الساحرة التي يضع لمسات إخراجها، فصيغة الخطاب مفردة بل إنه يصرح في مقطوعة أخرى، وبشكل فظ، بأن لامكان لها في الحياة التي يحلم بها:

"وحيدا تثخن في الهجير

في قلوب الصبايا ذوات الوجوه النحاسية

بين هامات صوامع الجوامع

وبين تعريشات النخيل،

وحيدا تستعيد حلاوة التيه"

عبثا حاولت التخفيف من غيظها. قالت لنفسها: لاعليه، فالتجارب القصوى لاتعاش إلا بشكل متوحد، ألا يحشر الناس فرادى؟ وقالت: لعلها كانت فقط أحلام يقظة. لكنها في حمى الأرق قررت بشكل مفاجئ أن ترحل إلى حيث كان يحلم بالرحيل، وبعد سنوات وفي لحظات مكاشفة مع بيبينو لم تستطع أن تعرف بالضبط هل قادها إلى ذلك القرار، الوفاء وحب الرجل؟ أم الشعور بالإمتهان والسخط والرغبة في الانتقام للإهمال الذي كان يدخره لها، بالسير في نفس الدروب التي كان يحلم بها؟..

تخلصت من التركة، وباعت البيت واحتفظت بملكية سيتكلف محاميها ببعث ثمن كرائها لها أينما كانت، عليها فقط أن توافيه بالعنوان. وفي فوضى استعدادها عثرت على كتاب "التعرف على المغرب" لشارل دوفوكو وبين رسومه البيانية للوديان والجبال والقصور والقرى، وأوصافه الباذخة لبلاد البارود والسيبة والسيكلوب والغرابة، وحرصه المذهل على رصد أدق تفاصيل التضاريس وعدد محاربي القبائل وأنواع عدتهم كأنه يحمل في الكف التي يكتب بها أرواح كل جنود فرنسا الذين سيجتاحون

المغرب يوما ما، وهم عميان وهو دليلهم، بين كل ذلك تحددت وجهة ماري- أنطوانيت، فقد استبعدت الشرق لأن صحتها لاتحتمل السفر الطويل، والجزائر لأن الدعاية تقدمها بوصفها فرنسا الثانية، واختارت المغرب للقرب أولا ثم لأنه ظل كالرمانة المغمضة بالنسبة لكل الباحثين عن مشاهد الزمن الضائع في تعثره ومراوحته المكلة بين نفس الوجوه والعادات والحواري والأسواق. وفي شهر أبريل من سنة ألف وتسعمائة وأربعة وعشرين ركبت باخرة تجارية إلى الدار البيضاء محملة بقليل من الثياب وبضعة كتب، وهي تردد لنفسها من الرهبة كلمات نتاليا كونشاروفا "أنفض رجلي من الغبار وأهجر الغرب الذي اعتبر ذهنيته التعميمية الغثة بلا معنى. طريقي يتحول إلى منبع كل الفنون، الشرق" هيأت لها الظروف عجوزا جلس قربها وهي تنتظر وسيلة نقل تأخذها إلى داخل المدينة. وبعد دردشة قصيرة تكفل بتعيين وجهة رحلتها داخل المغرب. كان قد عاد لتوه من جولة ناجحة في جبال الأطلس وبكل ثقة السحر الذي مارسته تلك المناطق على وجدانه، وبكل الشاعرية والرقة التي يتملكها الإنسان في أرذل العمر وقد تحرر أخيرا من الأوهام والأثقال العالقة بالحياة، حكى لها عن ذلك الفضاء الذي طالته اليد العسكرية الفرنسية؛ لكن اليد الأكثر فظاظة وقسوة "للتمدن" لم تصله بعد، خنيفرة، زاوية آيت إسحاق، زاوية الشيخ، القصيبة، بني ملال، أزيلال، دمنات... وختم حكيه حين دوى صفير الباخرة التي ستعيده إلى فرنسا قائلا: هناك على الأقل لاترى بعد بإفراط السحن الصفراء لآكلي الجيف...

ولكن كيف تأتى لماري- أنطوانيت أن تختار بني ملال مكانا لإقامتها الدائمة؟ أهي شمس ماي القاسية التي اعتصرت قلبها في رحلتها الطويلة المضنية إلى الأطلس، حتى أن التفكير في الانتقال إلى مكان آخر كان يتبدى لها في أيامها الأولى هنا تفكيرا في الانتحار؟ أم فتنة الصمت الذي يجلل القبيلة طيلة النهار؟ يحول الناس فجرا صخبهم إلى الجنان ،المزارع، لتملي الطبيعة بعضا من مشيئتها على العمران، فيحتل وهج

الشمس الطرقات، وتثمل الطيور بفيض حريتها في الدروب الموحشة، وتطلق الأشجار والأعشاب والزهور ومن كامل أعماقها أنفاسها الفيحاء فلا تكتمها الأنفاس الكريهة للقليلين الذين ظلوا بالدور بل تضيع فيها، ثم الانبعاث الملغز في الأصيل للقبيلة من موتها اللذيذ. والفرح الخالص والبسيط الذي تستشعره في الوجوه والحركات ونبرات الكلام، الفرح الموغل في القدم للإنسان وقد تحرر من العمل. بشماتة ممتعة كانت ماري- أنطوانيت تتبع أفراد الهيئة الاستعمارية وهم يراقبون الهباء ويهندسون دينامية إخصاء جمعي، تبتذلها الجدران الصماء. كان بيرو عراب -الأولمب كما تسميه هي- فوق الرابية التي تشرف على الدور كعاهة فظيعة في جسم القبيلة، عاهة لم تستطع اجتثاثها فتناستها وهربت حريتها بعيدا عنها. أم الماء الزلال، الهواء النقي، ومشيئة القدر؟..

اكترت لوحدها بدون مساعدة منزلا بباب الفتوح، بين حفنة الدور التي تعلمت بها القبيلة كيف تحبو خارج السور الذي لم تعد له أي حاجة وأثثته عن آخره وبقرار صارم بأثاث محلي. حتى أواني وأدوات الطبيخ فرضت على نفسها التكيف مع خصوصيتها المحلية. الأشياء الوحيدة التي حضر فيها الغرب هي كيانها نفسه والصور الثلاث المخبأة في غياهب صندوق خشبي وتوقيع دولاكروا في نسخ لوحاته الأربع التي زينت الجدران: انطلاق الفروسية، خروج الباشا، فاطمة وقائد. احتفظت بها في خضم الإعدام الشامل لكل الأواصر التي تربطها ببلدها لأنها تعضد فقط الرؤية الحالمة التي كانت تقبل بها على حياتها الجديدة. كان عليها في شهورها الأولى أن تتجاوز حاجز اللغة وأن تتقبل فداحة قرارها بمقاطعة الفرنسيين المتواجدين بالقبيلة وأن تذيب حاجز التحفظ والتصنع الذي تحس به في تعاملها مع الأهالي، جملة، تعاملت بحساسية شديدة مع كل مايجعل حياتها امتيازا، فلم تبد فقط نوعا من حسن الجوار على حد تعبير البير ميمي، بل ذوبانا في انشغالات محيطها. دخلت قلوب الجارات على خطى انسلاخها الباهر من هويتها. كن يقبلن بشغف كبير على نقش الحناء

في يديها وتكحيل عينيها وتسويك فمها، ويلبسنها الشقة والسبنية والقفطان والدفينة، ويعلمنها كيف تعزف على البندير والطعريجة، وكيف تطبخ الكسكس والطجين في مشاهد شعائرية امتلكت كل جاذبية وهالة الآخر حين يتنازل عن اختلافه الوحشي وغيرته القصوى ويقدمها قربانا لخصمه. وبالمقابل أخلصت القبيلة في تبنيها لها وسلتها في الاصطدامات اللاحقة من الهيئة الاستعمارية كما تسل الشعرة من العجين، وفي كل الظروف ومهما كانت الحاجيات وجدت ماري- أنطوانيت أبدا اليد الحنونة للقبيلة تمتد نحوها تماما على شاكلة تلك اليد الوهنة التي أخذت القفة من يدها في ذلك الصباح وحملتها لها حتى الدار برغم اعتراضها الشديد..

سقوط بيرو عراب:

حين أوصل بيبينو القفة كان أقصى ماطمع فيه هو أن تمنحه فرنكا يتدبر به نهاره، لكنها دعته ليعود بعد ساعة فانسحب إلى ظل شجرة غير بعيدة وبقي يرقب الباب. خرجت ولم يقو على السير وراءها وترك ملاذه الرحيم وسط القيظ الذي أخذ يغشى كل شيء. وحين عادت بأشياء في يدها أمهلها بعض الوقت، ثم تقدم إلى الباب، ياللسيدة الكريمة لقد هيأت له أدوات الحمام وأعطته ثمنه، وبذلة كاملة، سترة وسروالا أدكنين وقميصا أبيض وحذاء وجوارب، ودعته للعودة بعد الحمام لتناول طعام الغذاء، وأخجلته فوق ذلك بإتقانها للعربية الدارجة. إذ لم يكن للإجهاد الذي فرضه على نفسه في حركة التقاط كلمات فرنسية سبق أن سمعها أي حاجة، وبرغم أن بيبينو -وحسب سيرته وسط القبيلة- قد فطر على الجحود ونكران الجميل، فإنه لم ينس أبدا خير تلك السيدة، حتى أنه منحها ولوحدها وبعد ذلك بزمن طويل شرف تنكيس رأسه أمامها وإخفاء لفافة التبغ حين تداهمه بمرورها بالقرب منه والكلام معها بمسكنة قصوى وصوت خفيض. بل من أجلها فقط ارتكب حماقة جلب أهله من الدار البيضاء. كان حين تضيق الدنيا الرحبة في وجه شطارته يسير إليها ولم تتردد أبدا في مساعدته.

لقد أدرك من صباح اليوم الموالي لليوم الذي عرفها فيه عميق تأثيرها عليه. كان في قلب المظاهرة، تيار جارف من الحناجر المحمومة والأيدي الملوحة، في قلب حرارة الأجساد الفائرة والقلوب المتفتحة، يحس ببرودة غريبة تكمم عواطفه وأحاسيسه. كان يشاطر التيار قضيته بوجوده الجسماني فقط، أما رغبته القوية في التنفيس عن قلبه وتفجير كل العنف الثاوي في جسده فقد أخلت مكانها لإحساس أقوى. من أجلها هي فقط لن يجرؤ على سب النصارى كالآخرين مهما ارتكبوا من فظاعات. من أجلها أسلم نفسه للصمت وشكل نقطة اختلال في الكتلة الهائجة. كان يمضي وسطهم ولكن كل في فلك يسبحون. كانت الملاذ والأم والشفيعة...

خبــــر :

(لم يعد بوسع بعض شيوخ القبيلة الاحتمال، كانت سيرة المختار الجزائري في توزيع بطائق التموين قد ازدادت سوءا، وطالب الناس أعيانهم مرارا بالتدخل، لكنهم لا يفعلون، يقولون لأنفسهم أو لبعضهم إنها الحرب ولا يليق أن ننكأ الجراح.. وفي ذلك الصباح المشهود قرر القايد صالح أن يكلم المختار لوحده، لعله يعدل عن حيفه. وفي الطريق انضاف إليه محمد بن المولودي والعربي بن الطاهر سار ثلاثتهم إلى البيرو عراب بقلوب صافية ومسلمة لم تتوقع أبدا فداحة التطورات اللاحقة، إذ لم يسيء المختار معهم الأدب فقط بل هددهم بالحبس، فتطاول القايد، على قصره، وصفعه، فتكالب عليه المخازنية، وقيدوه وأودعوه السجن. تجمهر الناس الذين كانوا ينتظرون هناك قضاء حاجات أخرى، وعبروا عن احتجاجهم. وطار الخبر، جاب الحواري والدور ووصل المزارع والجنان، وحين بدأ الناس جماعات ووحدانا يهرعون إلى المكان سمعوا طلقات نارية أرسلها المخازنية في الهواء لتفريق التجمهر جول البيرو، لكن القادمين فسروها على أنها طلقات إعدام القايد، فتزودوا بالفؤوس والعصي والغضب العظيم.. حاصروا المكان وأغلقوا بأجسادهم كل المنافذ وأجبروا المخازنية على التراجع والاحتماء بالداخل، كسروا النوافذ وعالجوا قضبانها الحديدية لكنها صمدت واقتلعوا

أزهار الحديقة وأسقطوا السياج الذي كان يزين المدخل، وحين بدأوا يخبطون الباب بقوة، وهم يندرون بالدم الذي سيراق والمذبحة القادمة: "أحنا بالله وبالشرع... قايدنا ماقال عيب"..

اضطر المراقب المدني إلى إطلاق سراح القايد، كان قد طلب نجدة عاجلة من خنيفرة لكن الباب لن يصمد حتى تصل. حف به الجمع المهلل وأركبوه حصانا أبيض -ربما للإنتقام من الإذلال الذي بقيت تمارسه عليهم صورة الكولونيل أوبير حين دخل القبيلة)، ساروا وراءه ينددون تارة بالمستعمر والمختار، ويطلقون تارة أخرى شعارات النصر يهتف الناس بأقصى قدرات صوتهم المستعاد، يرجون المدى الذي أعادوا امتلاكه، والزغاريد من فوق السطوح، من الأبواب، من الكوات تؤجج الجرأة في القلوب وتدفعها لركوب العاصفة. وتحرس الاستمرارية العصية لومضة الحرية.. دخلت المظاهرة ساحة فرنسا وبعد وقفة قصيرة انعطفت نحو ساحة الكركور ثم قصدت دار الباشا، مربض الخوف الذي لايقترب منه الناس إلا متوجسين مخافة أن يخرج لهم زبانية غلاظ يودعونهم ولأيام قد تقصر أو تطول ركنة ما بالدار الكبيرة وشغلا شاقا، ومع الجوع والتنكيل والرعب لايتبقى من الخارجين إلا لهفة الروح المختلجة في خواء الهياكل المهدودة، بعصف كل الأحقاد المترسبة أمطروا الدار حجرا، ومزقوا حناجرهم بالسباب... ثم تآكلت المظاهرة تدريجيا، تعب القايد من الركوب، وتسلل البعض إلى دورهم من الجوع والتعب، وبحت الأصوات التي كانت ترفد الصخب العام. وقبيل العصر دخلت القبيلة سكينة استراحة محارب ظافر، لتصحو في الفجر على وقع الأحذية العسكرية لجنود النجدة التي وصلت من خنيفرة في الليل، واحتمت من الفوهات التي طرزت سطوح الدور ومداخل القصور ومفاصل الدروب بالحيطان وخلاء الجنان والمزارع. ولأن الصخب - كما الحرب - سجال، فقد أخذت الطلقات وصليل الآليات والصياح بالأوامر وساقط الكلام ونداءات الكرنيته للإحتشاد أو التشتت، تدأب على مسح الكثافة غير المرئية لكل الهتافات الجريئة التي بقيت تلهب الفضاء،

وحبك شظايا غلالة الصمت، وترميم حطام التسليم والخنوع. ثم بدأت أنباء الإعتقالات العشوائية في صفوف الشباب أصحاب الفريزي، تتنامى وسط اللغط الشديد، حتى سيق المساكين وفي محاولة يائسة للتمويه إلى محاكاة الحجارة الملساء الصقيلة في رؤوس بعضهم البعض. وقد خلدت أغنية محلية ذائعة الصيت موسم جني الفريزيات المحموم هذا، يقول المغني مخاطبا صانعات الزرابي والهدون :

«إلى بغيتي عروق الهدون

سير للزيتون

تلقاي لفريزي ممشوط أو مدهون.»

شـــــرك الحنيـــــــن

حنين أول :

كان البـاب الخشـبي السمـيك هو الملاذ الأثير للحظات اسـتراحـته، يرفع يديه الصغـيرتين ويخـبط سدى، أو يدس أصابعـه في التجـويف المعتم الذي يفـصل الباب عن الأرض، مـستـسلما للدغـدغة الناعـمة التي يحـدثها تـيار الهواء الرطب الباحث هو الآخر عن منفذ. وصل إليه حبوا ومشيا بخطوات هشة متـرنحة، ثم بخطوات ثابتة مصـممة، ولم يغير في يوم مـا وجهة رحلة طفولته. كانت بضـعة أمتار فقط تفصله عن الفضـاء الرحب للساحة المقابلة حيث النور والأطفال والأشجار ودهشة الأشياء المرئية لأول مرة. لكن غواية العـالم كله كانت تتـركز في اللوح الأبكم وقـضيـة أيام طفولتـه الأولى تلك تمثلت في الرغبة والتشوق للإمساك بالخرصة القصية فوق، والخبط بقوة حتى ينفتح البـاب أو تنخلع مـصاريعـه ويتهـاوى. وقـر ذلك في قلبـه وهو بالكاد يتـبين آثار مكنسـة قـد مـرت فوق الأرضـيـة المقـابلة للبـاب، ويفـرز من بين الأصـوات بكاء، وهنا يتـسرب من التـجـويف المعـتم في أوقات مـتـباعـدة، ويرصد المـروق الخاطف لطائر القـداسة المثلى "بشـار الخير" في رحـلاته التي لاتكل بين عشه في طاقة فوق الباب وباقي الدور. وفي الأيام التي تتبلل فيها أرضـيـة الزقـاق بفـعل مطر أو مـاء مـراق، كـان يجد آثـار وقع خطي خلب يتتـبعـها بـشغف حـتى يطمـسهـا الباب القـاسي. لـقد جـعلت هذه الحزمـة الشـحـيحـة من العـلامـات تلك الدار في أعين الطفل الذي كـانه العـلالي، موطن أسـرار مثيـرة لإضطراب لذيذ. وسـتوشـم حـياته كلهـا بهذا الإنبـهار الطفـولي، وسيـتلمس أبدا بداخله عـذوبة الخيـالات التي كان يسـتنجد بهـا

لإغناء الإستراق الحسير للبصر والسمع من الفجوات القليلة.ويتقرى اختلاج ونبض الجدران لإستطلاع حركات الكائنات الملائكية التي تملأ المكان بالتوقيع الأكثر إثارة : اختناقات بكاء متفرقة.. ثم وقد استطاع لتوه أن يتبين مقاصد الكلام، استولى عليه الشغف الآسر للحكايات وهي تفحم مناعة جدران الدار الغريبة وتهتك أسرارها، لكنها لم تخمد جدوة تعلق روحه بها بل قوتها...

حنـــين ثان :

مغدا في حنين دائم للانسياب السخي بين خصلات الأشجار وهبات الريح، معتليا الغمام وسابحا في ملكوت الفضاء كما لو أنه ركب بساطا طائرا، وليس شاحنة مفككة يأكلها الصدأ والتعب، هكذا عاش العلالي منذ خمسة وعشرين سنة. يوم كان يستيقظ على منبه الشاحنة الهائلة لمسيو لافو وهو يهز العتمة ويذورها بعيدا فيخطو أول خطى نهاره بعجل شديد في الساحة المقابلة لأحجار لالاناقة، فيراه فوقها فاتحا ذراعي المخلص لإحتضانه وباقي أقرانه، وقد ملأ وجهه بضحكة نهمة ومنتشية، تدرك أن لا أحد يسلم من غوايتها. ولحية حمراء مشتتة. ثم يباركهم ببسط يده الممدودة لإنتشالهم من حمأ الأرض، وتمضي الشاحنة بكومة الأجساد الصغيرة بإيقاع بطيئ حتى أن الأطفال الذين أخطأوا ترنيماتها الباكرة يدركونها عدوا وهي تخوض صراعا مع المسالك الوعرة المليئة بالبرك والحفر الغائرة باتجاه الضيعة.

في الأيام التي يفيض فيها الأطفال عن الشاحنة التي لاتسعهم، فيتمسكون بأطرافها ويتجرجرون على الأرض وحين لايجدون موطئا تتمسك به الأيدي، يكتفون بمتعة الجري وراءها. كان لافو يخرج رأسه من كبينة السياقة ومن خلال غلالة البخار والدخان وبعربية متعثرة مرفوقة بتلويحة من يده يصيح «يا خرفان بني ملال تبعوني.»

للركوب المعذب وحده في الصباحات الباردة بشكل لايوصف، والأرجل حافية والأطراف شبه عارية، للإستثارة المروعة، للذة العميقة التي

لم تهجر بعد ساحة الأحاسيس والتخيلات، للمشاطرة الوهمية لمالكي الوقت : الباشا والحاكم اللذان فسخا تحت عجلات سيارتهما المذهلتين والمنيعتين عالما لم يكن فيه مكان للحديد المتحرك بين انحطاط الحمير واعتدال البغال ونبل وشهامة الخيل، قبل أن يأتي لافو بشاحنة ويفتحها في وجه حثالة القبيلة مرتين في اليوم. مقابل ماذا ؟ لاشئ، يوم من أيام الله الغفل الكثيرة، في زمن فارغ يتناسل باستمرار، ترعى فيه الخنازير وتشذب الأشجار وتوسع السواقي وتكنس الحظائر وتقتلع الحشائش الطفيلية وتحرث الأرض وتزرع... ولكل واحد الحرية في أكل ما يشتهي على أن يتزود بالطعام من داره، وإلا طحنه الجوع طيلة النهار وفي أوقات نادرة يصل كرم لافو مداه، فيقدم لهم كأس شاي بلاطعم محدد معد من ماركة الخنجر الرديئة وقطعة خبز ينز لبه الماء ويحوي كل المصادفات الممكنة وغير الممكنة، وماذا غير فرح العودة الجارف لكل عذابات اليوم الهنية، للافو طاقات القبيلة الصاعدة يستنفرها كيفما شاء؛ له سر الغواية، وشرف القيادة الكاسحة، له توق قلوب الأطفال وتلويحات الأيدي وضحكات الإنتشاء وصياح الظفر.

تركيب :

حارب أحمد العزري دوما من أجل إسمه وقانونه الخاص، وعقد الولاء أبدا لمن ينقاد له قلبه لالمن تفرضه القبيلة. حين تهاوى نازفا تحت دقة واستعجال الرصاصة التي اخترقت صدره، حزنت القبيلة كما لم تفعل في حياتها. سقط أحمد العزري في أحراش الدير القاسية بين بثور الزقوم المنورة، فعرض رفاقه الأمازيغيون أجسادهم لفوهات بنادق القناصة المتحفزين ليهربوا جسده نحو الجبل. ورغم الذهول والضياع الذي خلفه الدخول الصاعق لجند الإحتلال، لم تتحلل القبيلة من واجب استعادة جسده الشارد ودفنه قريبا قريبا، كأنها تستعيد بذلك مجد تاريخها الزائل. لم يرفع رأسها عاليا رجل من قبل كما فعل، ولم يمرغ مهابتها وشرفها في العفر رجل من قبل كما فعل. كان وعيها الشقي وفصامها. اعترض بصدره الرصاص من أجل قطرة من مائها؛ وخسف بها الأرض في السوق والقبائل

مجتمعة حين امتطى حصانه وأشهر بندقيته في يده متحديا موافقتها على تزكية المامون بن الشرقي في منصب القيادة. كان يصيح بصوته الراعد:

«بأمر من الله

وبأمر من أحمد العزري

راه

القايد المامون بن الشرقي معزول من القيادة

الحاضر يبلغ الغايب

واللى قال لا أو ماعجبو الحال

نتحاكمو للبارود»

وفي أيام دجنبر الباردة، سار الدرع البشري الذي شكله الضباط الفرنسيون من رجال القبيلة في المنعرجات الجبلية الوعرة (كلفة قاسية، دفع بالقبيلة الحانقة في مقدمتها لامتصاص كثافة أسرار الجبل وغموضه الوحشي) ساروا بعذاب ترقب الطلقات الأولى التي لن يضير الحملة في شئ استقرارها في أجسادهم، تتراءى لهم وراء كل شجرة فوهة متحفزة، وفي كل خشخشة حركة غادرة، والأصوات كلها مغلفة برنين الشؤم والفجيعة. ساروا بعذاب وحرارة الدماء التي ستترقرق هدرا في لهفة البقاء وغصص القرابة والإخاء. عزاؤهم الوحيد وسط اختناقات الرعب والعناء والموت أوالقتل اضطرارا تبعا لشريعة الغالب السافلة، هو أنهم استعادوا زوجة أحمد العزري وسط نيران المحرقة العاصفة التي اكتسحت الجبل، وأوصلوا الجنين الذي في بطنها سالما إلى بني ملال، ثم تعهدوه كما يتعهد الإنسان شرارة نار نادرة في عراء نهب برد فظيع. كانوا يحرسون امتداد الوهج في الظلام المحيق، ويتشبثون بآخر خيوط أمجادهم المنقضية، لكن الفحل الذي انتظروا ترجله بشرف غامر مسخ في ليلة غبراء عذفت فيها رياح غاضبة الدور بنتا رهيفة التقاسيم، تتناوب عليها الأمراض، سرعان ماانفضوا من حولها،

وبقيت أمها تحرس الذكرى، وترعى زمنا ركيكا لا يدركه البلى ولا ينحطم، بجانب جدران الطين التي تحميها من اضطراب الحياة، شكلت الغربة والمرارة وعمى لغة القبيلة التي لاتفقهها جدرانا أخرى أقوى وأمنع..

لقد سببت حكايات الدار المقابلة للعلالي في البداية قلقا لايصدق، وملأت قلبه بالحنين والكآبة. وفوق صهوة قصبة يمسكها بين رجليه كان يهاجم على رأس كتيبة من أقرانه في مدى الحواري المفتوح وفي الزوايا وفوق السطوح الأعداء الذين غدروا بأحمد العزري ويثخن في أجسادهم بلا رحمة طيلة النهار حتى تأذن شمس المغيب بالفراق. وفي الغد وبلا كلل يعاود الكر والفر ينصب كمائن وهم غادرة ويهندس خطط الغارات الخاطفة، فوق القصبة التي تدمي فخديه في تجرجرها العصي على الأرضية الحرشاء، وبصيحات ضبط الفرس الجامح بين رجليه، وصيحات تأليب الأقران وصعق الأعداء والظفر. كان صدر العلالي الصغير ينتفخ بزهو من يستعيد للقبيلة مجد ماضيها. لكن أكان يلزم كل هذا الحب اليائس، وكل تلك الأشواق القاتمة ليأسر طفولته في النضال من أجل الدار المغلقة، ويرهن كل زمنه الآتي بهواجس وأحاسيس ورؤى تلك المرحلة ؟ أكانت تلزم كل تلك الخيالات المعذبة حيث تحضن الأم الأسيرة بنتها وسط العتمة والبكاء ولا قوت إلا التراب، ولا أمل إلا عناصر التفسخ والزوال المتسترة بخيوط العنكبوت وأدران العفونة، ليبصم بالنظرة المنكسرة والحزن والشرود الدائمين لا هو مع الناس ولا هو مع مباهجهم ؟ أكان يلزم كل ذلك ليمتلك وهو الغض الغرير رهافة التقاط عناصر المأساة التي تتلبس أشد الأشياء مدعاة للحبور ؟ لقد ركب العلالي شاحنة لافو واستشعر حقا لذة غامرة واشتعل فرحا، كان الركوب يبتدى في تلك الأيام العجيبة التي امتلك فيها الحديد اعجاز الحركة والتصويت ضربا من الطيران يتحرر فيه الإنسان من صفاقة التراب، ويشمل بالخفة التي لاتحد الخفة المحمودة والمأمولة منذ الزمن الغابر. ولكن وبشكل مبهم كان يستشعر أيضا ضيقا غريبا. فقد احس بأن قلب الحديد الجياش يستهدف قلبا آخر من حرارة وشوق، والهدير الخشن والتزمير

سيحجبان تدريجيا رنين السنابك والحنحنة والصهيل، فيتوارى عالم الخيل السحري، وقد فك رباط الدم والمغالبة وحب البقاء بينه بين الإنسان، وانتصرت التفاهة. بعد اليوم لن ترى الخيل إلا في مشاهد ركض حزينة تجاه أعداء وهميين، وترى غلالة دخان الطلقات الحسيرة ووجوه الفرسان المنطفئة وقد هجرها وهج ملامسة حواف الموت. جهد في هباء وعرق في هباء. فانطازيا؛ أو رقصة الحنين المكابرة وجرحه الغائر...

ذات فجر، وبضربة خفيفة من قدمه دفع الحاج إبنه العلالي للصحو، ولسنوات طويلة سيسير وراء قوافل تجارية في أشد الطرق صعوبة وطولا، يجوب كل الأسواق، يجادل في الأثمان، يذوق حلاوة الربح ومرارة الخسارة، يعرف كل القوانين المتقلبة لذلك المزيج من المجازفة والحظ والدهاء المسمى تجارة، ويعرف أيضا مجد المال المتنازع عليه في حروب تخاض بضربات سيوف لاترى ولاتحدث جروحا ظاهرة؛ بل انكسارات عميقة تأكل النفس بلا رحمة. وبرغم أن العلالي ذاق طعم ائتمانه على ثروة كبيرة، ولذة مهر المواثيق والعهود والتعامل بالكلمة وحدها وقد أخذ الزغب بالكاد ينمو في شاربه، فإن كل هذا لم يملأ قلبه ولم يغير الإحساس الذي لم يفارقه : لقد خلق لشئ آخر غير تجارة الحبوب. كم كان يحن أثناء عبوره الزقاق من أو نحو الدار لأيام عنترياته ولجلسات تخيلاته قرب الباب الموصد، وكم حافظ قلبه على انقباضه تجاه ما يجري بالدار المغلقة. في ذلك الصباح الحاسم، كان قد تأخر على غير عادته في الفراش وصحا بلا رغبة في الأكل، وحين ألقى رجله اليمنى في كسل شديد خارج عتبة الدار، فوجئ بحركة خلف الباب الموصد، ثم بصرير القفل الصدئ وانفراج الباب تدريجيا، وذهل لخروجها، لم ير التهاب وجهها بحمرة قانية ولا الرعشة الباردة التي سرت في كل جسمها. كانت ضربة خاطفة صاعقة. فعدا خطواتها السريعة الرشيقة التي تنقر الأرض، لم يستطع في وقفته الواجمة أن يستعيد ملامحها، فيض باهر من النور تفجر من وجهها وتناثر في الهواء، لم تكن الرؤية ممكنة لكن الجسد وبقوة إشراقية اترع بتجليها، عاد إلى

الدار وساءل أمه عنها، وحاول في ارتباكه التام أن يصفها لها. لكنها كانت غير قابلة للترجمة لا بكلمات ولا بتخيلات. وبوجه باسم تخالطه الدهشة أخبرته بأنها يامنة بنت أحمد العزري...

جرجر رجليه نحو السوق مجروحا مخذولا، وقد تبددت كل أوهامه القاتمة التي شيدها حول الدار. والألم الذي أدمى قلبه طويلا كان غير ذي موضوع. والأيام والشهور بل السنون التي قضاها مشدودا إلى حبل أشواقه الملتاعة لتخليص الأسرى من تحللهم البطيء راحت هدرا. وإحساس فظيع بالخجل من النفس يحفر عميقا في قلبه. يا للتهيؤات الحمقاء؛ لن يستطيع استعادة تفاصيل وجهها. نعم لكنه لن يشكك في كون آكلة التراب الصفراء المحتضرة مضت أمامه تتقطر حيوية وحياة. تمارض وعاد إلى الدار، ومن يومها لم يعد يعرف كيف يقضي ساعة كاملة في السوق. وعرف جسده لأول مرة أعراض عياء كبير تفاقم حتى ألزمه الفراش وأفقده الشهية. وصار جسده لايستجيب إلا للأصوات التي تنبعث من جهة الدار المقابلة، يلقي بالألحفة ويجري كالممسوس إلى عتبة الدار ثم تعيده الخيبة ميتا إلى الفراش. أتكون الحياة من القسوة بحيث تحجبها عنه عمرا آخر ؟ بالطبع كانت عين الأم تراقب، وأدركت سريعا سر القوة التي تتملكه، ليجري كهبة ريح قوية إلى العتبة. وفي كل ليلة كانت تكلم الحاج في أمر بنت الجيران...

كان الزواج الأكثر قابلية لضمان حياة هادئة وسعيدة، اقتران مجد المال... بمجد الشرف. دفع له العلالي دفعا بإصرار من الأم ويقينا تاما بأنه الوصفة الطبية الوحيدة للشفاء من مرضه الغريب. وقبل هو الزواج في اختلاط الأحاسيس الكثيرة التي استولت عليه. لأنه سيمنحه إمكانية رؤيتها مرة أخرى. وإطفاء نار فضوله وأشواقه العاصفة. لذا تعجل كل المراسيم. وفي ليلة الدخلة، وقد بقيا لوحدهما، مد إليها يدا متهيبة ولكنها مصممة، وأزاح اللثام الذي كان يغطي وجهها. وعلى ضوء القنديل الضعيف استطاع أن يرى الوجه الطفولي العريض والعيون الحوراء المنكسة، والفم الصغير ذي

الشفتين المكتنزتين المضرج بحمرة قانية، والأنف الأشم. ورأى كيف صنع الخجل والخوف في خديها الأسيلين بقعتين بلون المشمش البلدي وكيف كانت تضغط الثوب بيديها الصغيرتين المخضبتين بالحناء في توتر وتنازع بين النفور والرغبة في الإستسلام، وكان عليه وحسب وصايا الرجولة الخالدة التي يدجج بها العريس ليلة الدخلة أن يحسم ترددها بتحية عنيفة، صفعها حتى ارتسمت أصابعه في خدها. نهضت من الفراش والدموع تتدافع في عينيها وهي تشيعه بنظرة وحشية، وبيد جمعت أطراف فستانها (اليد الأخرى كانت تتحسس موطن الألم) ثم فتحت الباب واجتازت باحة الدار وسط دهشة المدعوين الذين ينتظرون قربان الدم، وسارت إلى دار أهلها. بتوسلات وبوساطات لاتحصى أعيدت إلى دار العرس. ومن يومها لم يعرف العلالي كيف يتصرف معها كرجل. كان عليه أن يتحمل نوبات بكائها الطويلة ونوبات غضبها وأيام مقاطعتها له. كانت جمرة من الكبرياء والأنفة، يستثيرها الصراخ والنبرة الغاضبة والحدة المميزة المحملة بها لهجة القبيلة، توقيع كل البدو الغاضبين الذين تعاقبوا على المكان. ولم تبذل أي مجهود في تخليص كلامها من هجانة طالما استثقلها إذ كان نصف جملها مكونا من كلمات أمازيغية. ثم إنها وبهوس تام وحكي لانهائي، تختنق فيه مقاطع كاملة جعلت العلالي يعاشر معها طيف أبيها، يحضر في الأكل وإغفاءة القيلولة وجلسة الشاي بعد العصر وجلسات التأملات الشاردة وعذابات النوم الذي يمزق غالبا بتهيؤات غريبة. فقد صحا العلالي مرارا على صوت صهيل وارتطام حوافر حصان في باحة الدار وخرج إلى الباب ليراه ملتحفا بظلال غسقية لاترى منها غير بندقية، وحين يهم بتكليمه يتبخر في الليل الرحب. كانت يامنة تمتح من إرث خوارق لاينضب. والعلالي ينزلق إلى مهاوي الندم والعذاب. فقد سبر مرارا صورته في تعاملها معه، ولم يجد سوى حزمة من التفاهة. فهرب إلى السوق وقد تآكلت كل مخزونات الإعتبار لشخص أحمد العْزري. فترجل من كل خيالات الصبا. وصار فقط حجابا من الحكايات التي لاتصدق تحول بينه وبين زوجته..

بحث العلالي عن ذاته بقوة في دنيا المال. لم يعد يصل الدار إلا لماما. وبعد أن افتكر الله أباه، دبر تجارته ووسع شرايينها حتى وصلت مراكش والدار البيضاء. وبحدس غريب خزن في السنة التي سبقت العام الأكحل في كهف دارهم الفسيح مالا يحصى من قمح وذرة وشعير...

خبـــر :

(مخافة صقيع البرد ولهيب الحر وخصوصا ضربات بنادق وخناجر القبائل الغازية عمد أهل القبيلة في أيام السيبة إلى حفرأنفاق شاسعة ومتصلة تحت الدور يهربون إليها، عندما تنهار مقاومة السور، ذواتهم وبهائمهم ومؤونتهم وكلابهم ودجاجهم. ويحتمون بمناعة أبوابها وغموض دروبها وعتمتها الشديدة من إقدام أشد الفرسان جرأة، فتحيا القبيلة تحت أقدام الإحتلال الذي لايدوم من الملل والخوف مما يعتمل داخل الأرض، حياة كاملة وسرية كالهوام لاينقصها إلانور الشمس. ومع أولى قذائف المدافع التي صوبها الكولونيل أوبير نحو القبيلة، فهم الناس وهم يرون كيف ردمت الحيطان ونفذت في الأرض حتى كشفت أحشاءها أن عهد الكهوف قد ولى، فهربوا إلى الجبال أو استسلموا، وحولوها بعد ذلك إلى مستودعات للتبن والفحم ولتصريف الماء والفضلات، حتى حق ليونس الرواندي أن يقول في ساعة غضبه : «كيف يرجى الخير من قبيلة تعيش فوق بركة من الخراء والبول ؟».)

و حين كانت تخرج النعوش من الدور تباعا و وراءها رجال يحشرجون من التعب والجوع، ونساء ينتحبن بلادموع، حين اقتعد الناس الطرقات، يمنعهم الوهن وحده من افتراس بعضهم البعض،بدأ العلالي يخرج ما ادخره بعيدا عن أعين السلطة ويبيعه في السوق السوداء. فجمع ثروة، امتلك بعد ذلك الترف اللازم لإهدارها في شراء حافلة متداعية، إرضاء لبعض خيالات الصبا ولرغبة معقدة في تحقيق بطولة ما بإمتلاك ناصية هذا الوافد الساحر : التكنولوجيا.

شميحة

فكر شيمون بلولو حقا في صرف النظر عن المغامرة كلها. لكن القوة والحرارة التين اعتصر بهما العلالي يده الرخوة، والبريق المطمئن الخاطف الذي التمع في عينيه المجهدتين قبل أن يولي وجهه. دفعوه للتردد. وللحظات أحس بخيبة قاتلة وخواء فظيع، استغله إسو والعلالي فساعدا إيزا والقابلة على الصعود إلى العربة الخلفية للشاحنة، انتفض شيمون في وقفته الشاردة الحائرة، ثم أسلم نفسه للصيرورة التي جرفته منذ بداية القضية كلها ولم يملك الفرصة ولا القدرة على التأثير فيها.

تهالك العلالي على المقود، احتضنه بصدره وكلتا يديه وحدق في الطريق. وطيلة رحلتي الذهاب والإياب خلد للصمت، وكأنه يقدم لشيمون بذلك البرهنة التامة على أن سره لن يظل فقط في غياهب بئر بلا قرار، بل لقد ختم عليه أيضا بالكثافة السميكة للصمت الذي جبل عليه. ألهبت الشمس الأرض طيلة النهار بشواظ من نار. وها هي الأشياء قد دأبت على التحرر من الصهد. لذا لم تنجح الإندفاعة المتعثرة للشاحنة في المسرب الحجري إلا في تحريك هبات ساخنة بالكاد استطاعت أن تنفخها الريح الراكدة. غرق شيمون في الإختناق الذي تظافر على تأجيجه الحر والهلام المعتم الصامت الذي كانت أضواء الشاحنة تشق فيه بصعوبة بالغة خطين رهيفين للرؤية وخصوصا سخرية الحياة، التي اقتضت أن يأتمن على سره الرجل الذي تحارب معه طويلا وادخر له في أيام خلت أشد النوايا سوءا. وبرغم أن هذه النوايا قد استحالت فيضا عارما من الشفقة وإحساسا أليما بالمشاطرة، لما انهار أمامه ورفع راية الإستسلام، فإنه لم يتحرر طيلة الشهور

التي شغل فيها العلالي كمنادي بالوكالة من أفكار وهواجس دعته دائما للحذر. واحتفظ قلبه أبدا حين صفا ذهنه تماما تجاهه بحبكة عصية من الثقة تخامرها من حين لحين ريبة قاتلة. كتلك التي تحفر في قلبه الآن. فيحدج إسو بنظرات حانقة لا امتداد لها في العتمة الثقيلة التي احتلت الفجوة الحسيرة التي تفصلهما. لذا يمضي إسو غير مقدر للعذاب الذي سببه لأبيه باختياره ذاك، وغير شاعر بالنظرات القاسية التي تتابع حماسته المفرطة في تتبع الطريق المتعرجة والتي كلما ازدادت ارتفاعا ازدادت سوءا وخطرا. يقبل بكل حواسه، بغضاضة قلبه، بحرارة فتوته على المغامرة كلها، منذ أن لم يجد والده في ارتباكه الأقصى غيره ليشركه مخاوفه وقلقه المرضي. لم يكن يريد أختا تؤنس وحدته (لم تواطأوا على أن المولودة ستكون حتما بنتا؟) ولا كان يهتبل بكل كيانه أول فرصة تحرره من جلد الصبا وغشاوة الغرارة. أراد فقط أن تتوقف سنوات البكاء الأليمة، فيرى وجه أمه بلا جفون متقرحة ندية ولاتجاعيد وقروح خذلان تام، وأن تستوي الدار على إيقاع آخر غير إيقاع النشيج...

لكن أتكفي بضع كلمات لردم الهوة السحيقة التي تفصل اللحظات التي كان فيها شيمون قد تحرر لتوه من الخبيب المذل وراء مدام لا نسو، وركوبه المعذب الآن داخل كابينة السياقة بجانب إسو والعلالي، لتتبع خطى الزمن الرشيقة المتحررة من كل تعاقب بليد؟ أتكفي بضعة كلمات لتتبع القدر العجيب الذي نصب الرجل الخجول الغريب الذي يلتصق بالحيطان في سيره لكي لايرى، ويلبس ثيابا قسيفة ومشمرة كأن القبيلة غارقة أبدا في فيضان فوق إحدى أكبر الثروات في البلاد، ذلك القدر الذي كان فيه الجهد والدهاء وحسن التدبير نوافل أمام تدابير القوى الخفية وفخاخها التي دفعت شيمون رغما عنه إلى الواجهة ؟

في السنة التي سقط فيها شيمون من فوق الشجرة، وهجر الضيعة، عين ضابط شاب للشؤون الأهلية بالمنطقة كان يعتني بشاربه وحذائه. لايعرف من الأدب إلا بعض خرافات لافونتين لكنه ومن أجل عيون المدام (كان قد

صعق بجمالها في أول زيارة استكشافية للضيعة)، أخذ يحفظ عن ظهر قلب بعض المبالغات الأدبية من هنا وهناك يفاجئها أبدا باستظهاره لها دون مراعاة سياق الكلام ولامقتضيات الأحوال، وفق فكرة عسكرية متصلبة تتصور الأدب عبارة عن حشد من الكلمات الطائشة والملقاة على عواهنها. حرر الضابط المدام شيئا فشيئا من هوسها العلمي. وبعد شهور هجرت موسوعاتها وتجاربها واكتشافاتها وتركت الحشرات والنباتات المجاورة لبلادة مصيرها العضوي. وصارت لاتخرج في الأصيل فوق حصان أبيض إلى الطبيعة حيث يلتحق بها الضابط، إلا لاستراق القبلات والآهات. وكان المزارعون والرعاة والفضوليون من وراء الأشجار ومن بين النباتات يرون مشاهد تتكرر يوميا كأنهم أمام فيلم من أشد الأفلام العاطفية سوءا واختناقا بالعتاب والدموع والتوسلات والجثو على الركب والحركات العصبية: الضابط في احتدام هواه يدعوها للهرب. وهي تبكي من فرط التمزق... وفي الليل تعود لتنتقم لعجزها من الخادمات الصغيرات ومن السيد لانسو نفسه. فتطرده من حجرة النوم وترميه بما اتفق. والرجل الطيب يلقي بوحدته في الليالي الطويلة وبضربات الغيرة ونظرات الاحتقار الذي صار يشيع بها حيثما حل، ووشوشة العمال خلف قفاه. فوق براميل خمر اعتصرها لتفي بالواجب في المناسبات. يمد قصبة خرمها من الداخل ويمص حتى لاتعود رجله تسعفه فينام هناك غير بعيد من الخنازير...

استغل شيمون الضابط استغلالا كاملا، إذ لم يكن بمقدوره رفض توسطات السيد، فمضى في عالم التجارة مدججا بعين ويد السلطة وحشد من التصاريح وحقوق احتكار معظم المواد ذات القيمة في السوق. وكلما فاض المال عن مجال نقله إلى مجال آخر حتى وصل إلى دنيا النقل. فأسس شركة صغيرة سماها «شركة شيمون بلولو للنقل» بدأت بحافلة واحدة تسير بين بني ملال والدار البيضاء. ثم نبتت الحافلات في كل الخطوط الأخرى. وضجت بعناقيد البشر فوق المقاعد وفي الممرات وفوق الأمتعة. وحين يضيق الداخل يثبت البعض رجله ويده حيثما وجد ليسافر بباقي جسمه في

العراء. في مقابل هذه المراكمة الحثيثة للمغانم في الحياة العامة، كان شيمون بلولو يراكم الخيبات والبؤس في حياته الخاصة. لم تكف كل هذه السنوات الطويلة لتذيب ملح حكاية العودة في فم إيزا؛ ولاجعلها كل الخير الذي تدفق تقبل على الحياة، ويئس تماما من إسو إذ لامكان لسذاجته وطيبوبته في دنيا المال. ولكن هل هناك نذر لم يف به شيمون ؟ أو وال صالح لم يسر إليه محملا بالهبات ؟ وهل هناك دواء وصفته إحداهن ولم يبعث في طلبه ولو كان في جبل قاف ؟ ولقد أدى الصلوات وانفطر قلبه من شدة التخشع والدعوات، وفتح باب داره لكل عابر وخصوصا الأحبار الرسل الورعين والزهاد منهم والنهمين والشهوانين، الثقاة منهم والمزيفين، الداعين لأرض الميعاد والداعين لأنفسهم، الذين تلهب خطواتهم نصوص الثوراة والذين يلهبهم رنين الفرنكات. وأعطى لهؤلاء وأولئك بلا حساب. احتمل كل شيء سنوات وتغافل وهم ينتفون ريشه، عسى أن يحتمل بطنها الجنين تسعة أشهر فقط لكن البطن الجاحدالمخاتل القاتل، لفظهم واحدا واحدا وهم بالكاد يتبرعمون. وبعد كل خيبة تثور في وجهه وتدعوه للعودة من حيث أتوا ولايجد شيمون الرغبة ولا الشجاعة لتكرار نفس الأسباب التي طالما تذرع بها فيخلد للصمت أو يغادر الدار حتى تهدأ...

نصل الشرف :

لعله الحمل الأخير، قالت القابلة هنو، بعده لن تتحرك أحشاء إيزا أبدا، سيصبح بطنها كالأرض البوار الميتة لاتفلح فيها قطرة ماء. وفيما كان الناس يقفون مصطفين أمام الخيرية أو منتظرين قمامات المعمرين، كانت إيزا تصارع ماهو أقسى من الجوع والوباء : الموت الرابض في رحمها وكأنها تخوض غمار جولة أخيرة وحاسمة. لذا لن تقنع هذه المرة بزيارات هنو القابلة المتفرقة. ستستبقيها عندها حتى يفرج الله عقدتها. وهنو إمرأة تلتحف السواد أبدا كالخفاش. جاوزت المائة بكثير لكنها احتفظت بكامل قواها وحيويتها، وحده فمها أقفر، وهي تنتظر نبات الأسنان الصغيرة البيضاء كأسنان الحليب، ذلك الانبعاث الساحر الذي ترمم به الحياة بعد

المائة كل ما أفسده الدهر. تراث متحرك، حكايات، تواريخ، طب أعشاب، سحر، إرشادات في أمور الدنيا المختلفة، دسائس و مؤامرات. الوجه الأكثر إطنابا في التواجد بالبيوت اليهودية وحتى بعض منازل المسلمين، هنا وهناك تضرب هنو بسهامها إما حلالا أوحراما، حتى أحكمت في فضاء القبيلة نسج شبكة مترامية ذات خيوط رفيعة ظفرت من أسرار وخفايا وحاجات، أعمال إنسية وأخرى شيطانية جمعتها في يدها وصارت كالعنكبوت تستجيب لأدنى تردداتها. كان بعضهم يعاكسها» هل أنت يهودية أومسلمة ؟ » فتمصمص فمها وتمطه : « يهودية ومسلمة ومن كان معه الحق يوم الحشر تبعته» وتمضي وقد خلفت قهقهة ساخرة تتدحرج وراءها.

تعهدت هنو الجنين بكل خبرتها، هندست حركات إيزا وحفظتها أدعية مولهة تذيب قلب الحجر، أكلتها مساحيق أعشاب مرة، دفعتها لشرب دم سحلية استوردت من بلاد السودان، طافت بها سبع عيون شربت ماءها، وجمعت تراب سبعة غيران نمل، وعلقت صرته بالباب. لكن الجنين سقط في شهره الثامن. أوشكت إيزا أن تجن، نتفت شعرها وحفرت في وجهها بالأظافير ينابيع دم فوار. وفي لحظة نادرة في حياة هنو، تلبد و جهها بغيوم حزن عميق. وبكت بدموع جافة وانسحبت. في الليل عادت تسأل إيزا بأمومة حانية، هل عرفت إحداهن بسقوط الجنين. ولما اطمأنت للجواب دعتها لكتمان الأمر، وصنعت لها كرة من الشراويط على هيئة بطن منتفخ أمرتها بشدها على بطنها، ثم حكت لها بصوت خفيض عن الفتاة بنت العائلة الكبيرة، التي كانت تنام في سطح الدار (على عادة أهل القبيلة حين يشتد الحر). وفي الليلة التي ينشغل فيها أبوها وإخوتها بأمر الماء، البعض يسقي الغلة والبعض يجاري ويحرس مفاصل السواقي، ولاتحتمل أمها تأثير النجوم وبرد آخر الليل فتهبط، تمتد إليها وهي في عز النوم يد إبن عمها القوية، تعتصر نهديها، وتشدها إليه بقوة، وتلقم فمها الذي هم بالصراخ شفتاه الغليظتان. هربت جسدها نحو كل الجهات ودفعته بكل قواها وهي تستغيث بصوت مخنوق، لكنه بقي ملتصقا بها كأن لحمه خيط بلحمها،

وساقتها آلام في أحشائها ومشاعر غامضة ومتناقضة، وبعد أن ضاع كل شيء، لغيبوبة طويلة لم تكسرها إلا أشعة الشمس الأولى التي ترقرقت فوق وجهها و فوق بقع الدم الناصلة التي زاحمت ألوان ثوبها.

بعد خمسة عشر يوما بلغ دور الأب والإخوة في الماء. وهبطت الأم كالعادة، فامتدت نفس اليد لنهديها وهي تتظاهر بالنوم. هذه المرة لم تقاوم، لكنها وهي تفتح رجته أن يكون رجلا، فوعدها بأنفاس لاهثة ومتقطعة أن يتقدم لخطبتها قريبا، لكن الوباء كنسه ومعه وعده. انقطعت العادة الشهرية عنها. ثم نمت في رحمها حركة غريبة ترددت طويلا قبل أن تنهار أمام أمها واعترفت بكل شيء بعد فوات فرصة إسقاط الجنين بلا مخاطرة بحياتها. ولأن المسكينة لن تنجو لو افتضح أمر بنتها، فقد دبرت مخرجا لائقا : أخذت تنتاب البنت من حين لحين جذبة شديدة ، تلخبط في الكلام، تمزق كل ماحولها ثم تفقد الوعي. قرأ فوق رأسها أشد الفقهاء معرفة وحماسة، واختنقت الدار بأنواع البخور، علقت مالا يحصى من طلاسم وأحجبة ولكن بدون جدوى. فلم يعد هناك بد من أخذها إلى الولي بويا عمر حتى يفك سراحها. بالطبع لم تأخذها أمها إلى هناك مخافة مرور أحد أفراد القبيلة بالمكان. وسارت بها إلى قبة ولي مغمور ضائعة في الجبال المحيطةبأزيلال، لايكاد يعرفها أو يصلها أحد. ثم وقد تغيرت نبرة هنو الحانية : البنت ستلد بعد أيام ، هبة الرب لك . ستأخذين المولود، ولن يشك مخلوق في كونه من صلبك. فالكل يعرفون أنك حامل وعلى وشك الوضع، هذه فرصتك التي لاتعوض يابنتي. فلن تجرؤ في يوم من الأيام أن تطالبك به. أنا أضمن لك ذلك.

في تلك الليلة التي طلبتها إيزا مهلة للتفكير، لم تعرف النوم. تحرقت فوق نار مزيج من الرغبة والتردد، قاومت بقوة ضربات كبريائها ولم تستطع إخراسه. لن يكون لها ماتفاخر به. لقد انتظرت كل هذه السنين، غمرتها الأيام الحالكة وأذابها رماد الكآبة. وفي ظلمة قلبها ظل يخفق أمل في لحظة انتصار تستعيد بها إيمانها بقدرتها على العطاء. إن المولود الذي ستتبناه

سيعزيها قليلا لكنه لن يحررها من عذاب الفكرة التالية : حرمانها المطلق من تلك اللحظة المجيدة المليئة بالشوق والأنين والمباهاة الأليمة التي تتحرك فيها الظلمة الأبدية وتقذف في وجه العالم صراخا مهيضا، لكنه يعلن بتصميم ها أنذا، لا، ليست فظة ولا قاسية القلب حتى لاتفكر في آلام البنت. لكن مامصير المولود ؟ فحتى إذا مانجا من الموت خنقا فإنه سيعيش لقيطا يأكل القمامة ويخاطب بأقبح النعوت...

آيـــة التمـــزق :

تكاثفت الظلمة، انتصبت صلدة منيعة. تخدشها أضواء الشاحنة بمشقة بالغة، وفي المرآة الاسترجاعية يرى العلالي كيف تلملم نفسها على جرحها وتخفيه، صار الصعود أكثر صعوبة، وفي كل عقبة يمر المحرك من مخاض عسير لايلد استمراريته في الحركة إلا بعد أن تنحبس أنفاس الراكبين وتنقبض قلوبهم من الخوف. فمن حولهم غابة العرعار كالبحر الغويط صامتة ومحايدة لكنها متحفزة ومنذرة بكل الشرور. مد العلالي يده إلى الخارج، أراد في الاصطفاق الشديد لهبات الريح بها تلمس تلك البرودة التي أخذت تتغلغل داخل كابينة السياقة. كانت الأشجار تروح عن نفسها وتزفر بقوة رطوبة عذبة رحيمة، انشغل شيمون باستعادة ذكريات وأهوال رحلته القديمة جدا. استعرض ذبالات صور هشة وهاربة، وتوقف عند ذلك الوجه الوضاء، تذكره بوضوح وصفاء، كأنه فارقه لتوه، وجه الفارس الحزين، الزطاط، وهو يودعه بنظرات أسيفة متقدة ومتعالية ثم يعدو نحو حتفه.

دفع المروق الخاطف لحيوانات فزعة ومذهولة أمام الإندفاعة الكاسحة للحيوان الرهيب العلالي للتفكير في الخطر الكبير الذي يمكن ان تتعرض له إيزا والقابلة، إن كان بالقرب من الطريق فهد جائع، فضغط دواس السرعة بقوة. ضغط فوق قدرة محرك الشاحنة وفوق قدرته على التحكم في مقودها، بشراسة واستعجال من يهرب روحين من لهوات وحش عادي. أدمت الاهتزازات العنيفة والمتلاحقة جسد شيمون، أصابه هدير المحرك

بالصمم. ولم يجرؤ على مخاطبة العلالي ليخفف السرعة لكنه أبدى امتعاظه الشديد بسيل من التنهدات والتأوهات...

فجأة انعطفت الشاحنة وفي الوقت الذي بدت فيه الطريق الغامضة الرهيبة بلا نهاية، كان بواب القبة يمنحهم بضوء قنديل يؤرجحه في يده إشارة ونعمة الوصول. ترجل العلالي وإيزا والقابلة وفضل شيمون أن يبقى هو و إسو في الشاحنة. اجتازوا امرأة تئن قرب باب القبة. وساروا إلى الدار المجاورة. كانت في ركنة قصية ممدة فوق حصير، من فظاظته للحمها تحضن بيدها اليمنى وليدها وتصعدهم بنظرة ينكسها الوهن وثقل الشعور باقتراف الخطيئة. انكبت هنو على الوليد مهللة وحملته في يدها وهي تردد «مباركة مسعودة». وفي عيون إيزا تكاثف حزن عميق وشفقة جامحة. كان العلالي يتأمل الغرفة الخالية من كل مظاهر الرقة والدعة، كالغابة التي عبروها موحشة، كالمهمة التي جاؤوا من أجلها قاسية. وحين ثبت عينيه في وجه البنت ارتج قلبه كأنه وخز بحديد ملتهب. من فم إسو جمع كل التفاصيل اللازمة، واستدرج الفتى الطيب، حتى نفض أمامه مزود الأسرار كله بما فيه حكاية البطن الكاذب الممتلىء بالشراويط. ولم يخدش البداهة بشك أوغيره في أن البنت يهودية بئيسة انزلقت لدائرة الحرام الشنيعة. وقبل المهمة لأنه سيغتسل أخيرا من كل الذل الذي جلله به شيمون. كيف فكر فيه هو بالذات ؟ وكيف يمنحه هوالذي حاربه أياما سر أسراره ؟ في كل تفاصيل الرحلة لم يفكر في البنت إلا قليلا وبمشاعر إزدراء قوية لكن وهو يتفرس في وجهها ويعرفه، رغم علامات المرض والخوف والفاقة وثقل مشاعر القهر والخذلان. كانت تصعدهم بنظرة استغاثة، ووقفوا هم شامخين كملائكة عذاب يوقعون قصاص حرمانهامن ثمرة الخطيئة، إذاك أرسل العلالي تنهيدة حارة. لقد روعه واقع أن البنت من أحد بيوت القبيلة المسلمة، واجتاحه إحساس بغيرة رهيبة. امتزج فيها، دوار الحمية الدينية والأخلاق بالعصبية فببرودة متآمر، هتك شرف القبيلة و مبدأ مغالبتها وعزتها، تكثير سواد الأمة. الإنجاب للكر والفر وزوابع الغبار، فهذا اللاشيء الذي تحضنه القابلة، نأمة الروح قد اثقلت منذ المجامعة المرتجلة في هول الليل والخوف بذاكرة وأحلام

وأحقـاد القبيلة، وهم يقـودونها للنفي خـارج ذاتها، نحو الإزدواج في حـياة مجروحة متنازع عليها...

أرادت القابلة أن تخفف من التوترالذي خنق الجو، فـوضعت سبابتها في فمها لتزغرد لكن صوتها خرج مخنوقا في مايشبه صرخة ألم. أخذت البنت وليدتها لترضـعها لآخر مرة، وسقـتها حليبا ودموعا ولوعـة. لقد هم العلالي بطردهمـا وتدبير مـخـرج آخر للبنت. لكـن النظرة اليائسـة المستسلمـة التي شيـعتهم بها، وهي تعـيد الرضيـعة إلى القابلة، بددت عـزمه فاكتـفى بانتزاع البنت من يد القـابلة، وبصوت متـهدج تعـمد أن يكون مسـموعـا، وبسحنة غـاضبـة، كرر في أذنهـا كلمات الآذان. علـى الأقل في الصفـحة البـيضـاء لقلبـها وذاكـرتها، سيوشم نداء الإسـلام، وستـختلج مـبكرا خطى الشريـعة المحمـدية. ارتحال قـصي لكنه مـحكوم بالعودة للبـدء. كان السـلام الداخلي الذي غلف قلب العلالي وليد إحساسه بأنه مهر للبنت السياق الذي لا فكاك منه. ومنح وجهـه رغم استعـصاء تقاسـيم وجهه على البـشر بسمة سـاخرة. كل الأقنعة الزائفة التي سـتحملها قيـد لها سلفا أن تنقشع كسحـائب الغبار ليظهر يوما ما الوجه الحقيقي.

الـــــذبيـــح

النزول إلى الجحيم:

في آخر كل ليلة، كان صمت المقبرة العميق يكسر بالخطوات المتعثرة وبالغناء المنفلت وبالصياح والسباب وبالكلمات التي لامعنى لها، فلكي يختزل الطريق إلى نوالته، كان يخترق المقبرة، يدوس القبور في غالب الأحيان في صخب وأبهة الحي الوحيد وسط عالم من الموتى، يعرقب الشواهد ويخط وقع خطاه فوق التراب الحي للقبور الجديدة، وقد يبول ويتبرز فوقها بلا حرج، بخفة وشهادة كائن سرمدي لن تستعيده الأرض يوما وتطويه بداخلها. وفي ليالي أخرى يجتاحه البكاء، تسند خطاه موعظة الموت القاسية فيحاذر القبور واحدا واحدا في وقار واحترام كبيرين، أو يتهاوى فوق أحدها فيحضن رأسه بين فخذيه ويبكي بدموع مدرارة أمه التي تركته؛ كان يستغرق في نواحه حتى يكفكف دموعه وينبه حواسه برد الصبح القارس.

خبـــــر:

(كانت القبيلة تدفن موتاها حيثما اتفق: في السوق القديم والمديوَلة و قرب عين سيدي بو يعقوب... كل الأمكنة مشرعة لاختلاط قوى الحياة بقوى الموت، مشاعية عادلة للمجال. يأخذ فيها الموت كامل حقه في المشهد اليومي، ففي زمن الحرب الطويلة حول الماء وسلاسل القتلى المراق دمهم يوميا، يكف الموت عن أن يكون أمرا مرعبا يجب إخفاء وطمس آثاره وتركيز حضوره في فضاء مغلق منيع، تنشر القبور هنا وهناك وبعد حين

تضيع معالمها تحت الأقدام والحوافر في صخب وابتذال الحياة. محو جذري لكل العلامات والرموز والتمظهر البصري للفقدان. لكن ذلك ليس أبدا إنكارا للموت بل تذويبا واستعادة للإنقطاع المؤلم، كتابة في بياض، ورتقا للانفصام السحيق؛ وحدها الذاكرة تداوم على مقاومة التلاشي وحراسة الحضور. حلت القبائل يوما تستجدي بقاءها من الخيرية، من فضلات الدور، من وهم الخصب الذي تخلقه كثرة عيون الماء. وصفت خيامها بجانب السوق تقتات هباء الانتظار، وتتلقى الضربات الصاعقة للموت. ولا يقو البدو على نقل موتاهم بعيدا، فيدفنونهم حيث قبضت أرواحهم، داخل الخيام وبين الأوتاد وفي المسارب. وحين رحل من عافهم الموت منهم، وجمعت الخيام، تكشف الفضاء المائل الكبير مطرزا بنتوءات كثيرة، قبور نكرة بلا شواهد، لن تستوقف أحدا للبكاء يوما، علامات إدانة قاسية. فكثيرا ما تبدد التراب الذي يستر الجثث. فانبثقت النتانة والجماجم والعظام الرميم. لا، لم يعرف قابيل أبدا كيف يواري سوأة أخيه؟. اضطر المراقب المدني لتسوير المكان بحائط صغير. كان يتفتت بفعل هبات الريح وحدها ونواح اللوعة الذي ترسله الثكالى. ورغم ذلك صار للقبيلة مقبرتها الرسمية..).

وبدافع السكر أو الإشتباه أو لأنه لايريد أن يطول الطريق أكثر من اللازم، كان بيبينو يعتبر أول قطعة صفيح تقابله باب نوالته. فيخلخلها بيديه أو يسويها مع الأرض بضربة من رجله. في الأيام الأولى كانت الجلبة الكبرى التي تحدثها مداهمته المروعة بين بناته وزوجته، تمزق نوم الناس جميعا بحي نوايل المخزن، وتدفعهم للخروج وبأصوات مبحوحة وغاضبة ووجوه معذبة. أخذوا في كل مرة يستنكرون البلاء الذي أصابهم. لكن يوما بعد يوم أخذ ما يجري في النوالة القصية يندرج في المشهد اليومي الاعتيادي. وصار صخب آخر الليل قدرا لامفر منه، كصياح الديكة، وآذان الفجر في قلوب معرضة. فأسلم الناس البنات الأربع والزوجة لمزاج الرجل القصير الذميم، يرفسهم مرة أو يقيء عليهم بل إنه كثيرا ما يلصق عضوه المنتعظ بمؤخرة

إحدى بناته في الإلتباس التام الذي تخلقه شدة العتمة وعمى الرغبة أمام الأجساد المهراقة تحته...

كانت أصوات الإستغاثة والعويل الحاد والبكاء الفاجع الذي تنتهي به الفوضى، تخلق لدى الناس تصورا يخالف تماما ما يقع. ففي كل مرة تطأ فيها رجل بيبينو النوالة سكرانا، كان يتعرض لبهذلة كبرى، تتناوب عليه فيها الأيدي والأرجل الكثيرة بالدفع والضرب، ويحفر وجهه بالأظافر أخَاديدَ، وتُمَزَّق ثيابه أشلاء، إذ كان يستثير كتلة بشرية متراصة ومتحفزة تؤججها أحقاد دفينة. وأمام هذا التكالب العائلي المحموم الذي تعضده في الصباح النظرات الحانقة والمكتئبة التي يشيع بها في خطوات انسحابه المخزي من طرف الناس جميعا، منح نفسه هدنة طويلة لم يقرب فيها النوالة. ولم يغفر لمدام ماري- أنطوانيت أثناءها الضغط الذي مارسته عليه، حتى جاء بهم من كازا.

كانت تنتابه من حين لحين رغبة قوية في النزول. إحساس لم ينسجه لا الحب (*لم يحس به نحوهم أبدا*) ولا الحاجة إلى الدفء العائلي (*لم يحتجه أبدا*) بل الفضول، لكن الكدمات الزرقاء في أنحاء جسمه والجروح التي لم تندمل بعد والتحامل العام يتكلفون بإذابة نهمه لمعرفة كيف يتدبرون حياتهم بعيدا عنه. وفي اليوم الذي أقسم فيه للعلالي على أنه لن يقربهم أبدا، وبعد أن طوح بسلسلة من كؤوس ماحيا، انحدر كالعادة، اخترق المقبرة، بحث عن الباب هذه المرة، ورغم تحديقه الشديد في العتمة، فبالحظ وحده استطاع أن يتمدد قرب جسد حاجته، في النهاية لم يقده لا الفضول ولا الأشياء الأخرى وإنما الرغبة النقية والخالصة في الإلتصاق بأنثى كيفما كانت. لكنها لم تستجب له، وبعد مناوشات طفيفة رفعت رجلها وضربته مباشرة في صدره فعرقبته بعيدا، يدفعها الكبرياء لذلك ضد الرجل الذي اتخذها مبْوَلَة آخر الليل، والرائحة الخانزة التي تستصحب أنفاسه، ولاجدوى وطئه المتسرع، وخصوصا يقينها بأن العملية المعلومة ينبغي أن تكون خاتمة تسويات عديدة يدأب بيبينو على التهرب منها. فمنذ أن جاء

بهم وضبط نفسه أياما معدودات، أرسيت فيها دعائم النوالة، تركهم ليتدبروا حياتهم كيفما اتفق، فاتخذت زيارات آخر الليل المتفرقة مع تكرارها العجيب فرصة مواتية لكلا الطرفين. هي وبناتها ينفسن عن ضغينتهن المكتومة، وهو يتطهر بالقصاص المرير من عقدة الذنب وتبكيت الضمير. لذا كان العلالي الذي يطلع في كل مرة على مخلفات المحنة في جسد بيبينو الضئيل، يكبر فيه القلب الجسور الذي يأخذه إلى هناك.

لكن كيف تأتي للرجل النزق المراوغ الذي فيه شيء من خفة الطيور، وشيء من مكر الثعالب، وكل كراهية العناكب للحياة الزوجية، أن يقدم في يوم ما على ربط مصير إنسان آخر بمصيره، ويتحمل الثقل الذي لايطاق للمسؤولية ولو قلصت إلى أقصى حد ممكن، زيارات آخر الليل المتباعدة، ولعنة الإنتساب لدمه الذي تلاحقه بها الأرواح الأربعة؟ يحكي بيبينو في كل مرة يطفح به الغضب كيف أن كلمات طائشة في ليلة سكر مشؤومة دأب فيها ندماؤه على التنافس بكثرة التجارب الغرامية وبأسماء الحبيبات فدفعوه هو الآخر إلى ابتداع حكايات مثيرة تخللها بمحض الصدفة الماكرة إسم الغالية بين أسماء عديدة، والتي كانت قد عادت إلى بيت أبيها لتوها لأن زوجها لم يجد قلوش الدم بين فخذَيها، فيكسره. ومن مساء اليوم الموالي رأى بيبينو أخاها غليظ القلب يترَصده في رأس الزقاق بشاقور تحت قميصه. وأمام الخطر المحذق ومناعة الحصار لملم المسألة بأن حمل السكر ذات مساء رفقة فقيه الدرب، وفي الغد كانت غلطة عمره تدافعه فوق الحصير الصغير، وتنازعه اللقمة وتملأ حياته أسئلة وسبابا. والغالية إمرأة مديدة القامة وبدينة، سمراء تلك السمرة التي تجاوز لون النحاس إلى لون آثار الحريق. وبرغم الزغب الظاهر في ذقنها وشاربها، وصوتها الغليظ الذي يشبه في بحته صوت رجل يخنقه الشجن، فإن حروف وجهها تشي بأنوثة شاردة لم تجد من يفك سرها ويحرر سحرها. بل أنها لم تجد الوقت لتكون ولتتصرف كامرأة. فقد استغل بيبينو -كما يعترف- أول ذريعة ليتركها بجنين في بطنها بلا سند سوى رحمة السماء. وبعد أن تضاربته حيطان

الأزقة زمنا طويلا، وأدمت رجله الطرقات، وكَلَّ بصره من التطلع لأشياء لاتدرك، عاد ليجد بنته الأولى تسير على قدميها. وكم كذب سندباد الخيبة، وكم سيكذب ليبرر غياباته الطويلة؟ وكم تمسكن ليتحاشى انفجارات غضبها وبكائها؟. وكانت الغالية في فرح عودته الأولى على استعداد للمسامحة والنسيان، لكنه غاضها بإعراضه المقصود عن السؤال الأهم في سبيل الثرثرة التي يملأ بها مسافة الوحشة والمعاتبة التي تفصلهما. فهو لم يكلف نفسه عناء سؤالها عن الكيفية التي تدبرت بها بقاءها. وبالتالي لم يمنحها فرصة وشرف استعراض حكايات المكابدة والحرمان، وحكي مرارة انتزاع اللقمة من بطن التفريط القاسي. بعد ذلك تعلمت الغالية كيف تتحرر من كل وهم تعلقه على بيبينو، وأصبحت تفتح له الباب بعد غياباته الطويلة فقط لأنها تحتاج لشماعة تعلق عليها نسب بناتها أمام أعين الجارات، وبعد زهرة جاءت مينة ورقية وعائشة، وعرف بيبينو دائما كيف يهز كتفيه ويمضي بعيدا، بنفس الصلافة التي أسلم بها آدم البشرية من بعده لفداحة مصيرها، وقد أرعبته السرعة العجيبة التي تتحول بها النطفة الحقيرة في ظهره إلى علقة فمضغة مكسوة عظاما ثم إلى فم وحاجيات ومطالب لاتنتهي. كانت الحياة شديدة القسوة على الغالية في السنوات التي كانت فيها بناتها زغب الحواصل، أفواها مفتوحة في انتظار الطعام ولامعين، تنقلت بين أشغال لاحصر لها واستقرت في النهاية بمعمل لتصبير السمك. كانت تقف طيلة النهار وسط الماء البارد والرائحة النفاذة تقطع الزعانف وتستخرج الفضلات حتى تتصلب يداها، وترى الأشياء من خلال غلالة بيضاء، تدفعها لإحتمال العذاب المميت، فضيلة العمل الوحيدة: ديمومته بالمقارنة مع كل الأشغال النادرة التي انتزعت من رنين بؤسها لقم بناتها..

إسماعيـل:

كل وفرة النوايا الطيبـة تجاه زوجته وبناته التي حبكتـها ماري- أنطوانيت في صدر بيبينو بصـبر وأناة طيلة شهور، لم تكن كافية إلا لمنحـه طاقة السفر إلى الدار البيـضاء. والإقدام الجسـور على طرق الباب والنظر في وجه الغـالية من جـديد. ثم إلقاء الخطاب الذي نمـقه في لحظات سكره وصـحوه ورعـاه بالتشـذيب والتهذيب في خـضخضة الحـافلة، لكن جهده تكشف غـير ذي معنى. كـان الروماتيـزم قد هد صحـة الغاليـة فأضحت بالكاد تسـتطيع رفع صوتهـا ورجلها، وصـعدته بعـيون منكسـرة وضارعة، أنذاك واتتـه شجـاعة وشفـقة نادرتين في حياته ليلملـمـهم وحاجيـاتهم في نفس اليوم الذي وصل فيه ويعود. ثم قـاوم التبدد السريع لنواياه في تلك الأيام التي شيـد فيها النوالة وأقلع عن شرب الخمر وفكر في الصلاة والبحث عن عمل، وكاد أن يختنق بكثرة المطالب وثقـل الإحساس بالمسـؤولية. فتناسى كل شيء وأعـاد لشرع الفوضى سطوته على حياته.

في الليلة الفاصلة قطع دندنته بأغنية مرساوية للمارشال قِبُّو ليخبر العلالي بقراره: في النهار سـأكون لحاجياتهم بالمرصـاد وفي الليل بالمَرساوي... لكنه لم يلتـزم إلا بالشق الثاني. ولم يسـتطع أي من الهواجس الكـثيرة التـي قادته في أواخـر الليل مـرارا إلى النوالـة، أن يختـلج بصـدره في نور النهـار. كـان العلالي في أشد الحاجة لمن يؤنسه في ليـالي أرقه ومرارته، وفي وحشة وعري الغـرفة التي اكـتراها فـوق سطح دار بحي خريبگة، الغـرفة المطلة علـى وجه المقبرة الحزين، والمجاورة لصناديق حمام ما تنفك في هديلها تحكي عن ضيق الروح. لذا تقاسم فراشـه ولقمته ودخانه وخـمرته بأريحية لم يشهـدها بيبينو في أي فـرد من أفراد القـبيلة، واستعـذب مـعه التـيه ليـلا في دروب القبـيلة متـحررِيْن من كل السـعارات المـثقلة للإنسـان؛ أوصلا نسـاء يسـترقن متـعا محرمة في شح وغـفلة ليل القبيلة؛ واعترضا لصوصـا يتربصون ببعض الدور أو الحوانيت فصرفاهم أو ابتزا بعض فرنكاتهم أو طلبا لهم العون حين تتخلل الحوار الدائر بينهم نبـرة حانقة أو تلويح منذر بقبضـة أو مطوى؛ وخاضا مع

المجانين والمشردين وعابري السبيل مناظرات عجيبة في قضايا كونية خطيرة؛ واعتقلتهما كل الدوريات وأفرج عنهما في الصباح؛ وتبرزا وبالا فوق عتبة أكبر وأشرف البيوت؛ وخاضا شجارات لم يصمدا فيها لضربة واحدة؛ وتحايلا على كل المغفلين بالقبيلة وعلى البدو الذين يأتون يوم السوق، باعاهم حميرا وأبقارا شاردة وتركاهم في خصام مع أصحابها، وقبضا منهم ثمن قنينات خمر وتبخرا في متاهات الأزقة المتداخلة، أو ثمن وصال مع قحبة ودفعاهم لدفع أبواب دور محترمة يتكالب عليهما أهلها بالضرب والصياح. وحين تضيق القبيلة في وجه شطارتهما يسيران إلى قرى الجبال المجاورة، فيشهر بيبينو في وجه الرعاة وصانعي الفحم الخشبي المتلبسين بسرقة حشائش وخشب المخزن بطاقة بوغابة التي ليست أكثر من ورقة من لعبة الورق (*الكبال*) تذهلهم وتدفعهم لتقديم الدجاج والبيض والسمن والعسل والجوز...

في يوم من شهر دجنبر من السنة التي استبدل فيها المراقب المدني بآخر، بقي العلالي يذكره لأنه رأى فيه بيبينو مكتئبا على غير عادته، يدير في صمت حربا داخلية، ويبدي انقباضا تجاه كل الملذات التي كرس حياته لها، ليلتها لقي بنته الكبرى زهرة، اليد في اليد مع فتى نحيل الجسم وصفصافي الطول، ابتسم في وجه بيبينو ببلاهة يخالطها غير قليل من الزهو. فكاد بيبينو أن يبصق في وجهه. إذ بدا له بلا ميزات، فخره الوحيد هو العضو المتفاخم في السروال الملتصق بفخذيه. قدمته زهرة على أنه زوجها. هكذا؟ وأعاد هو الابتسام وكأنه يسبر في وجهه سيماء الخبر السعيد، وقدم نفسه من جديد: "محماد الكاتشور". حول بيبينو نظرته عن القصبة الخاوية ووجهها نحو العلالي، ساءله في الصمت عن الصيغة التي يواجه بها الموقف، لكن هذا الأخير دارى ضحكته وأشاح عنه وجهه. ولأن المصائب لاتأتي فرادى، أخبرته زهرة بأن أمها حامل، في شهرها الرابع. مد يده وصافحهما مودعا بسرعة، منهيا بذلك الموقف السخيف، واستسلم بعد ذلك لتعنيف شديد للذات، أحصى ذهنيا ثم بأصابع يده الشهور التي لم يصل فيها النوالة، وأجهد ذاكرته كيف تكون حاملا وهو لم يقربها منذ زمن بعيد؟

لكنه ينتقل سريعا من آكد الحساب إلى عذاب الشك. وهو يرى شرود بيبينو في سكة العذاب الصامت، يرى القناع الحزين المفضوح الذي غطى تقاسيم وجه لم تكن أبدا طيعة للهم والإستغراق في التفكير، وجدها العلالي فرصته التي لاتعوض لمعاكسته والهزء منه. كان يهنئه مرارا على مصاهرة الكاتشور، ويسترجع كل المعارك الخاسرة التي خاضاها معا: آه لو كان هناك الكاتشور؛ ويسائله في براءة ماكرة: لم لا تعرض على الحلفاء خدمات الكاتشور؟ يبصق بيبينو ويبدي امتعاضا شديدا، وقد حلا له أن يضلل العلالي بدفعة لنكئ جرح ميت تناساه منذ زمن بعيد: حياة بناته، عذابه الآن وسر تمزقه حازه هذا الذي لم يولد بعد. قديما لم يكن يكثرت بما يطرحه بطن الغالية إلا بالقدر الذي تعبر فيه خطاه موطن خطيئته الأصلية وتمضي، فأنى له أن يحتمل اليوم الوجود مع العار في مكان واحد؟ لقد شاخ القلب وكلت الخطى ولم يعد ماوراء الأفق سوى انطباق بئيس للأرض بالسماء لاغواية فيه ولاعزاء. كان يهم في كل ليلة بالنزول إلى النوالة لإستفسارها وبقر بطنها إذا لزم الأمر، ويجد بعد ذلك سببا وجيها لتأجيل ذلك إلى الغد. حتى سمع وهو مستلق في مجرى نسائم أصيلة عليلة بجانب عين تامكنونت بأن الغالية ولدت ذكرا، لم يسعه المقام ولا استطاع امتصاص كل المشاعر المقوضة التي خنقته، ولكي يحد اللجاجة الكثيرة التي تقوده إليها وساوسه، جرى إلى أقرب بائع خمر، وشرب باستعجال عطشان، لكن العمى الذي انتظره ظل بعيدا. بقدر ما يشرب يتعمق صحوه وتتحجر عيناه على حقيقة بلواه في صفاء ذهني لم يعرفه طيلة حياته، فيشرب من جديد. في منتصف الليل تدبر مطوى دسها في جيبه، وانحدر نحو النوالة. داس القبور مرة أخرى، وقرب الباب تردد قليلا، ثم دفعه ودخل. أسعفه نثار ضوء القمر المتسلل من خروم السقف في رؤية كتلة بناته. وغير بعيد منهن رأى الغالية غارقة في نوم ثقيل تحضن بيدها اليمنى كومة العار، فانحنى وسلها من يدها وخرج. اجتاز النوايل ودخل البساتين المجاورة، هناك أخذت الكتلة الهامدة تبكي. كانت الرطوبة قوية حتى الحد الذي جعل قشعريرة تسري في كل جسم بيبينو، هدهده واستمر يبكي بكاء مختنقا يساير الأصوات الرتيبة التي

تصدرها كـائنات مملكة الليل في فوضى تزاوجـها. اجتاز سـتار الصفـصاف والسـمـار الذي يحجـب عين داي، وحاذر أشـواك الشـدير حتى وصل إلى العـشب المنبـسط قرب رأس العين، وضع الـوليد وأخـرج من جـيبـه المطوى ووضعهـا بجانبه. سار نحـو الغيران الصغيرة حيث تضع النساء شـموعهن، أخذ واحدة لكنه لم يجد النار ليشعلها، فغسل وجهه بالماء البارد وعاد.

خبــــر:

(أبهى العيون..

وحـدها ظلت تحتـفظ باسم المدينة التي تم اجتثـاتها في انتـقـام وشمـاتة تاريخيين لاقرين لهما. فـلا غرابة إذا رأيت في خيوط الماء المنسابة على طول المجرى دموع الْتياع وافتقـاد. ولا غرابة أن يوشوش لك الخرير العليل بحكاية شـمـوخ سالف هدتـه رياح ضغـينة مـسـعـورة. عين الغـراميـات والعـواطف الجـامحـة والتأمـلات الشـاردة وعين الأشبـاح. إذ مازال الـبعض يقـسم بأنه بقربـها قطيع مـاعز قفـز في الهواء واسـتحـال حمـامات بيضـاء، وحكايات العذارى العاريات في قلب الماء، والرجـال الأقزام، والفرس التي تنفث النار، والغـيلـم المغني، والضـفـــدع الذي يتنبأ بزوال الإسـتـعـمـار... وأشـجـار الصـفصـاف القديمة ترقب في حكمـة المشـهد كله، الأفـعال السـرية للبشـر وتوهمـاتهم، وحين تهب ريح تصطفق الأوراق ببـعـضهـا في شكل صـفـير استنكار يصدره جمهور خفي ضاق بما يجري..).

عاد نحـوه وفك تلافيف القماط عن وجـهه، في العتـمة المنسحبـة وباليد اليمنى أخذ يتحسس تقاسيم وجهه، وباليـد اليسرى يتحسس تقاسيم وجهه هو، ارتاح الوليـد للمس فـسكت. مـرر بيـبـينو يديه على الأنـفين والوجنتين والفـمين والجبـهتـين والأذنين، وبحث في التضـاريس المتنافـرة وفي اختـلاط أحاسيسه وضبـابية رؤاه، عن شبه مـأمول، فقـالت له يده بحزم: إنه ولدك. أعاد لملمـة القماط كمـا كان وابتعـد منشرحا وتمدد وقـد بسط رجليه ويديه وعب هواءا طالما أفسده بهـواجسه السوداء. لامست يده شيـئا صلبا وباردا،

وعندما دفعه بعيدا انتبه إلى أنه قنينة مملوءة حتى النصف بسائل يتلاطم بداخلها. أية مباركة؟ أية رحمة؟ شم بيبينو السائل فوجده حشاشة القلب والكبد، ذهل عنه أحد السكارى، ووهبه هو ممتنا فمه وروحه، بكى الوليد بشدة هذه المرة، بكاء فاجعا مجهدا، فحمله بيد وهدهده (*اليد الأخرى كانت تحمل القنينة*) وسرعان ماتحول البكاء إلى بخبخة متلاشية. هزته رجفة النزع الأخير التي نفذت كشحنة كهربائية من جسد الطفل إلى ذراعه. ومن روعه بحث برأس القنينة –حين أيقن بأن لاشيء عاد ينفع– في تلافيف القماط عن وجهه وغرغر له القطرات الأخيرة التي بقيت بالقنينة. آنذاك امتدت له أيد قاسية كثيرة وأخذت الطفل وضربته في كل أنحاء جسمه حتى تهاوى، فامتدت له الأرجل بالركل. وهو يصعد دائرة الأشباح اللاغطة وأضواء القناديل المرتعشة، تذكر في ما يشبه الومض، مشهدا كهذا تدفق فيه الضرب والأطياف والدوران والصخب من حوله، وكان هكذا بلا حراك، يتلقى التحامل الوحشي بدهشة يائسة ويغوص في مياه الغيبوبة الضحلة ..

كانت قافلة التحرير التي استنفرتها الغالية وبناتها بأنكر الصراخ والعويل تشق طريقها بين البساتين، حين قال أحد الرجال ببهجة ومكر:

- "كان سيقتله لو لم يفده الله بقنينة خمر"

شقت الظلام ضحكة متوهجة وسرت كالعدوى، انثال الضحك هادرا وهامسا ومكتوما كأنه في فوضى دورانه يسبر الجهة التي بإمكان الليل التجاوب معها. أردف آخر بصوت عميق:

- "لنسمه إسماعيل"

هلل الجمع مباركين، وتسابقوا لرتق ما تمزق من نومهم العصي..

الصيرورة
هتلر والحزب وأشياء أخرى

انقضت سنوات الحرب كحلم بغيض، كنفق مظلم اجتازه المعمرون بتبلد وخواء خطى مسرنم. وأفاقوا تتجاذبهم مشاعر الزهو والحمية الوطنية من جهة، ومشاعر الغيظ والخوف من جهة أخرى. ففي أعين الأهالي وحركاتهم ونبرات أصواتهم رأوا اختلالا ما في الصورة الخارقة التي كانت لهم قبلا. تلك الصورة المشكلة بمثابرة وأناة وبمزيج متظافر من الإبهار الحضاري السلمي وإفحام الحديد والنار، وفي الإصطبلات والأبواب والجدران المقابلة للنوافذ وفي زجاج السيارات والشاحنات المغبرة وفي كل شيء تستقر عليه عيونهم، أخذوا يرون بتقزز وحنق صلبانا معقوفة، تنمو كعشب وحشي فوق المرئيات، ولم يستطع العذاب الشديد الذي أنزل مرارا واعتباطا ببعض االمشتبه فيهم أن يوقف اليد الآثمة عن تطريز الفضاء هكذا. وخلف سيدة فرنسية وقورة تتعثر في سمنتها داخل حارة ما، صار من العادة أن تسير خلفها جوقة أطفال صاخبة تضبط إيقاع خطواتها ب: "Vive Hitler" . وبقدر ماكان المعمرون يفقدون صوابهم ويتطاير الزبد من أفواههم المزدحمة بالوعيد والشتائم، كان احتفاء الأهالي بجلاد أوروبا يتأجج وقد قيد للرجل الذميم الغاضب ذي الحركات العصبية وتسريحة لوطي، الرجل الذي نفته أوربا إلى أقصى وأقسى تخوم تاريخها: صحراء الاحتقار، قيد له أن ينبعث هنا من درع القمامة الذي صار يراكم حوله، ويتألق في عيون الأهالي في مجد وهالة العادل الذي أذاق المستعمر كل ألوان الذل والمهانة والجوع والرعب. كانوا يحكون بلذة وبلا ملل عن الجيش الفرنسي العتيد الذي لم يصمد سحابة نهار. وعن أكل القمامة وأوراق

الجرائد في باريس. وعن اغتصاب الآنسات الشريفات المترفعات، وعن السجون وبطولات المغاربة في نابولي ومارسيليا وبافاريا. وعن صيحة المرارة التي ختم بها هتلر أفوله الدامي "لو كان لي سلاح أمريكي وجنود مغاربة لاستعمرت العالم". آه... أولئك الشجعان الذين وبعد أن عادوا من دار الحرب بعاهاتهم وكوابيس لياليهم وتخاريفهم وفرنكاتهم وكلماتهم الفرنسية التي التقطوها وسط غبار المعارك شظايا، وشح بدلاتهم الخضراء المهلهلة، ومشيتهم الموزونة، تكفل المراقب المدني والضباط والمخازنية والمعمرون أنفسهم بتجفيف ينابيع ذلك البريق الذي يشع من عيونهم وكسر أصواتهم وضرب الذلة عليهم من جديد حتى ينسوا أيام رفقة السلاح، واليد في اليد، وأمجاد التحرير، وكل بلاغة الإستنفار التي رافقت رميهم في مطحنة القتال. وإمعانا في محو آثار الحرب فرض المراقب المدني على الأهالي وبدون استثناء أداء التحية العسكرية لشخصه حين يمر. آه... ذلك الهيجان الإستعراضي الذي جندلت فيه الكلاب التي تجرؤ على النباح خلف ذيول الموكب. ووقف فيه الناس بجنبات الطرقات منتصبين وأيديهم المبسوطة ملتصقة بأذانهم مختنقي الأنفاس كتماثيل جنود ارتجلت لتوائم خيالات المراقب المدني في تحويل القبيلة إلى ثكنة عسكرية مثلى.

في خضم ترويض القبيلة على الطاعة وإدخالها في خدر نوم شتائي طويل، عاد فتى غر من رحلة طلب علم طويلة ورج لحين الفضاء القانط بهباء نواياه ونار خطبه وحجابه مع إمام المسجد الكبير. ثم اعتزل الناس مذعنا لحزن عميق وزفرات ملتهبة يصرفها في نزهة الأصيل على طول ساقية تامكنونت. وقد لوحظت فيه بعض أعراض المرض الخبيث: "داء المثقفين المكسورين"، إذ كان يكلم نفسه ويسير ساهما مستحث اللون لايرد تحايا الناس ولاينتبه للحفر والأحجار أمامه حتى تعرقبه... وألقت الحافلات تجارا حاذقين يكلمون الناس في كل شيء إلا التجارة، ويديرون رأسمال نزق، لايرى، ولايكترث بقانوني الربح والخسارة، تجارا بضاعتهم الكلام المتفنن في أساليب المخاطبة، والمرواح بين الهمس والرقة والفظاظة، ربحهم الوحيد

الصداقات العميقة التي كونوها داخل القبيلة والتي دفعتهم فيما بعد في لحظات بوح صادقة إلى إخراج كل مخزونات وأسرار أنفسهم المتكتمة. بعدها نزل ذات يوم شاب وسيم يدعى عبد الرحمان اليوسفي، واتجه سديد الخطى نحو البيوت التي أنضجها أولئك التجار لتقبل كلامه الدافئ الخجول. ولم يرحل إلا بعد أن أشرف في سرية قصوى على تكوين مكتب الحزب المحلي، واستمع لأداء يمين الإخلاص، ولقن مبادئ الرزانة والتحفظ وأساليب المناورة. وفي صخب السوق، وعلى أبواب الحوانيت التجارية في زنقة القصب بدأ يقف تجار وصلوا لتوهم من مدن نائية ويستلون في خفة البرق وبأعين زائغة كومة مناشير من وسط رزمة ثوب، أو من داخل حبات شاي أو قوالب سكر، أو من داخل بقاريج وأواني طبيخ، ويبلغون التعليمات بكلمات مقتضبة يسترها اللغط العام. وانتظر الناس في المحطة جريدة "العلم"، تغويهم البقع البيضاء الصامتة، الأرض التي أحالتها الرقابة إلى بلقع يباب، الجراح التي يزهر فيها الصمت الناطق والتي تفصح في بكمها عن بحر المقاومة والإحتجاج والحرارة الذي يقف الكلام البارد المهادن على ساحله...

لقد ترجل التاريخ في حواري وساحات ودور وكهوف القبيلة. لم يعد مرورا عاصفا لجند متعب وظهائر توقير وقوادا يتأرجحون بين رضا وغضب القبيلة، ومخزنا يرعى المهابة بحملات اعتباطية تجدد فظاظتها بتجدد أخلاق التسيب والفوضى. لم تعد للتاريخ رائحة الحرائق ولاطعم فاكهة مُرَّة تأتي في غير أوانيها. ولاأحاسيس جرح دامي لم يعرف كيف يلتئم. ذلك التاريخ الذي تحرسه اللحي وأشجار النسب وادعاءات التقوى والولاية. وكفت العواصم عن أن تكون رحمة وعذابا، سكرا وشايا وأثوابا وبلاغي وسروجا، وسيوفا وبنادق وغلا لا يوصف، وعن أن تكون تلك العربدة الملغزة والدامية لرجال يمرون هاربين يجلل الخوف والعار وجوههم، ويعودون متوجين مختالين. رجال لايعرف كيف يتدبرون جندهم وعتادتهم، ولاكيف يستدعون شرعيتهم للحكم، عواصم يقتل فيها الأخ أخاه، والإبن أباه،

والجارية سيدها من أجل مالا يستقر تحت الجالسين، ولايطوع في أيدي القابضين: مجد السلطة المخاتل.

صارت العواصم وصية على الهبوب. إخوة يعرفون أكثر، ويغزلون في هدأة كليلة رداء سحريا يوحد نبضهم بنبض الأقاصي وأماكن العبور، ويدلقون كلاما جسورا يعصف بفلول الخوف والنكوص، وفقراء كجميع الفقراء يقدحون في عمى الفاقة وظلمة المصير زناد أيام عصف تبعثر الكون.

الملحــق:

قبيلــة الضغــينــة

هو يونس الرواندي إبن العلامة العدل الثقة المرحوم علي الصومعي الذي راح هدرا في طريق وساطة نبيلة لفضٍّ تناحر بين قبيلتي أولاد إيعيش والزواير. عثر عليه أحد الرقاصة طافيا في مياه وادي ذرنة وقد خرمت الأسماك كل الأماكن الرخوة في جسده. ورث يونس عن أبيه طول قامته ونحافته وحبه للعلم وتوقد إحساسه بالواجب. وتميز عنه بسيماء العذاب الذي يَطْفَحُ من وجهه، وجيشان صدره أبدا بالتنهيدات وخصوصا تلك البلايا التي شغف بها، لعبة الورق ومنها أخذ لقبه *(الرواندي)* ، ولعبة كرة القدم. قضى سبع سنوات بفاس عاد منها بشهادة "عظيمة" حسب زعمه. عاد، تعلوه صفرة المكابدة والحرمان، محملا بأكياس من الكتب، ينقر الأرض بخيلاء المستكبرين، ويشيع الأشياء بطرف عين تملأها الرفعة ووحشة الغرباء. وحين يكلم أوائل المهنئين يفعل ذلك بعربية فصحى مستغلقة، فيسود الصمت، وتتبادل العيون إيماءات ماكرة. فرحا بصيته المفاجئ، كان يونس يرتع في ذهول الجالسين، ويبحر بهم في مدارات العلم، مدعوما بحركات العيون ومط الشفاه التي كان يرصدها، لكنه يملك طيبة النفس ليسيء فهمها، فتستثير نرجسيته كأي علامات افتتان وتعظيم. صارت داره قبلة لحشود من الفضوليين. كان يقف بينهم مسرورا ليحدثهم

لأول مرة في التاريخ الثقافي للقبيلة عن الترقي والتنوير وسياسة المجتمع وسياسة النفي، وتصل به الحماسة إلى درجة دعوتهم لخلق خلية للتفكير في تكوين "جمعية بني ملال الفتاة"... والقوم لايفقهون شيئا ولايملكون إلا أن يتظاهروا بالتمعن الشديد في موكب الإستشهادات الكثيرة التي تسند كلامه: القرآن والأحاديث النبوية ومحمد عبده وفولتير وجان جاك روسو والكواكبي وطه حسين... ويخرجوا متفكهين. لقد دفع هذا الإقبال الجماهيري الكثيف الفتى إلى تغيير مشروع حياته، فاستبعد تماما القضاء والعدولية، وأصبح لايفكر إلا في الإمامة. لن يرضى بغيرها رحمة بقومه، سيشنها حربا ضروسا ضد الجمود والخنوع والتواكل، سيكسر الأوثان ويذرو طبقات الغبار ويزيل الغشاوة وينزع عن القلوب أقفالها. بدأ يتخيل نفسه فوق المنبر يلوح بالعصا والحشود الممتنة تحته تلتقط الذرر التي يلفظها، وتتطهر من أدران التاريخ، ويتخيل نفسه وسط حلقة المريدين الخاشعين وهو يبحرهم في غياهب العلم... لكن شيوخ القبيلة الذين انتظرهم طويلا ليقلدوه إمامة الجامع الأكبر تلكأوا فحزم أمره "رب ارحم قومي فإنهم لايعلمون"، وأعد في ليالي أرقه خطة محكمة وسرية للإطاحة بإمام المسجد الكبير، تركزت بنودها كلها في عملية واحدة هي ضبطه أمام الناس متلبسا بشنيعة الجهل. والإمام رجل بئيس بلا تطلعات، نسخ خطبه منذ زمن غابر من كتب صفراء. ومنذ ذلك العهد دأب كل جمعة على مد يده إلى صندوق خشبي حيث الخطب مرتبة بحسب المناسبات الدينية والوطنية مع بعض التنويعات الوعظية.

لم يملك الرجل إلا أن يستعيذ بالله بلا انقطاع، ويحتمي بكل الذين يسبغ عليهم نعمة مرافقته إلى الولائم. حين نقل إليه أول سؤال من الفتى، تكفل بذلك بعض ممن وجدوا أخيرا قضية تشغلهم. ما مقدار المد النبوي؟ أجاب الإمام بما فتحه الله عليه، واستطاع يونس أن يطعن في الجواب، ويبين اعتماده على ضعيف الفتاوي. ثم وهو يقطر الكلام تقطيرا كأنه متحلب في فمه: مقداره من الحبوب الشعير الوسط المقطوع الأطراف أربعة وثلاثين

ألف حبة وستمائة حبة وحبة واحدة وثلاثة أخماس الحبة، بتحقيق ومعرفة العلماء لاتخاريف الجهلة. وبرغم أن الإمام رد بأن الأمر إذا كان كذلك فسيقضي الناس الحول كله يحصون الحب الذي سيخرجونه للزكاة، فعن أي تقدم يتكلم بعد هذا؟ فقد احتسب يونس الجولة لصالحه. وعاجله بأسئلة أخرى رد الفقيه عن بعضها وتجاهل البعض. طال الأمر أكثر مما توقع، حتى أيقن في الأخير بأن خلافه مع الإمام اتخذ مجرى غير الذي رسمه، مجرى اختلاف العلماء الذي فيه رحمة للمؤمنين. بادر إلى مهاجمته في عقر داره، سار إليه عند أصحابه الخياط والحجام واعترضه بعد الصلاة وفي السوق ودعاه للمبارزة بالحجة والبرهان، والرجل يتملص ويستعيد بالله من هذا البلاء، ويقاطع كل الأماكن العمومية وحين يفرغ من الصلاة يطلق ساقيه للريح. وفي يوم جمعة مشهود، وبعد أن استعصى الإمام عن الضبط وقطع يونس كل حبال الصبر والتعقل، وشجعه إيمانه بأن القبيلة في صفه، وقف وسط المصلين المطرقين برؤوسهم، وقاطع خطبة الإمام بخطبة قضى ليالي في إعدادها. أطلق صوته الجهوري بالحمدلة والسلام. كان سيسأل قومه كيف يقبلون أن يأمهم جاهل رعديد لايملك لنفسه ضرا ولانفعا. وكان سيقول للإمام: إنك أخذت علمك ميتا عن ميت وأخذته أنا عن الحي الذي لايموت... لكنهم لم يمهلوه، تناوبوا عليه بالركل والضرب صامتين لأن من لغى لاجمعة له. وحملوه فوق الرؤوس حتى باب المسجد، ورموه كالخرقة بالقرب من سلسلة العميان والمساكين المنتظرين. اقترب منه أحدهم، تحسسه بعكازه ثم انحنى هامسا بنبرة تعاطف عميق:

- "إنك يا إبني تَتَحْلَبْ فِي سْطَلْ مَثْقُوبْ"

رفع يونس في وجه العالم من حوله نظرة ذات بريق وحشي. تحامل على مواجع جسده، ومسح بكمه الدم الذي سال من فمه وأنفه، وسار مترنحا وهو يتمتم بصوت كالعواء.

- "آه ياقبيلة الضغينة، آه"..

منذ ذلك اليوم احتجب في داره، ونسيه الناس إلا الجيران. كانوا في صمت الشتاء الطويل يسمعون نواحا وابتهالات مولهة ومرعبة، ولم يجرؤ أحد منهم على الإقتراب من موطن الشؤم والفجيعة. مع نسائم الربيع بدأ يخرج في عز الليل ويذرع الحواري بخطى انكسار واستسلام حزين. ثم خرج ذات صباح واستقبل الحياة والنور وعيون الناس بابتسامة هازئة، قال لأول من صافحه وأراد نكء جرحه:

- "لقد شفيت تماما من داء الخطابة"، وابتعد...

وقال لفتى آمن به حقا وجاء يجادله في أمر عزلته وانكساره:

- "سأل ذو النون المصري عبدا صالحا معلقا في الهواء، "كيف بلغت هذا؟" فأجابه "تركت هواي لهواه فأسكنني في الهواء"، وربت على كتف الفتى بحنو وابتعد...

وما شوهد بعدها إلا وهو يتنهد ويضرب كفا بكف ويقول "متى سيقيئك الحوت يا يونس، متى؟.

مــــرآة الشيــــطــــان

طبائــع الاستبـداد:

"ارتمى على طاولة النعناع وسب ربي ورب الحاكم"...

هو ذا مـقتطـف من نص الإتهام الذي تلاه الـكاتب أمام الحـاكم بالنيـابة عن المدني البـقال وعـضده أربعـة شهـود، احتـمى العلالي بالإنكار الشـديد لقضية السب، وأقر بجنحة سكره العلني. أجبر على ذلك وقد تصرم من بين يديه الشاهد الوحيـد الذي أراد أن يواجه به كتلة الإدانة المتراصة أمـامه. لقد استرضى بيبينو منذ أن تسلم ورقة الاستدعاء، تدبر له الكيف والخمر والأكل وتنازل له عن فـراشـه. ونام قـرب الـبـاب مـعـرضـا لهـبـات برد آخـر الليل، ومنغصا بمخـاطر الغد وفظاظة الحصير الذي يؤلم أطرافه. وفي الـصباح خرج بيبينو من الفراش الأثير على مهله وربت على كـتف العلالي مشجعا وغسل وجـهـه وتناول الفطور بتـمـهل شديد، كـان يقطر لحظـات الاستـعـلاء التي صنعتها حـاجة العلالي له تقطيرا، كأنه يريد أن يحفـر في مجرى الزمن هذه اللحظات الفذة التي أصبح فيها مصدر رجاء وتعلق حميم. وفي الطريق إلى البـيرو أبدى تفـقـهـا كبـيرا في الـقانون، ومن خـلال الدخان الذي يحـجب وجهـه الباهت كان يكرر نصـائحه القانونـية للعلالي التي احـتبست أنفـاسه وسابت ركبه. وفي آخر انعطافة العقبة التي تؤدي إلى البيرو لاح المبنى البارد الغـامض والمخازنـية بيـدلهم الخـضراء وأزرارها الصـفـراء المتألـقة في شـمس الصبـاح المنكسرة، ولاحت البنادق والجـيـات السوداء وحشـد المنتظرين في ظلال الخوف والصمت المسكون بالهواجس القاتمة. توقف بيبينو عن الكلام

وعلت وجهه المنهوك صفرة خفيفة وتلكأت خطواته. ابتسم في وجهه العلالي وطلب منه أن ينتظره حتى يقضي حاجته. دخل البستان المجاور وتصرف كأنه يبحث عن كاغد ليمسح به مؤخرته. قاده البحث إلى الجهة الأخرى. فرأى العلالي بلا غيظ ولا أسى كيف قفز حاجز الشدير الواطئ وجرى حتى اختفى بين أشجار الصفصاف والميموزا..

لم يكترث الحاكم بالسكر ولابطاولة نعناع المدني البقال التي قلبت ولا بما تعرض له شخصه، فقد دارت المحاكمة كلها بحثا عن التأكد من هل سب العلالي السلطة أم لا؟ تلعثم في هذه النقطة أشد الشهود تماسكا، أما الثلاثة الآخرون فقد لاذوا بالإنكار الرحيم، فحتى حدود الشهادة على تعفير النعناع بالتراب وسب البقال بلغوا مارأوه وما سمعوه بأمانة تامة. أما أن يخوضوا في منطقة الإلتباس، في شرف المخزن، ويلعبوا بالجمر مكررين بأفواههم الكلام الخطير الذي سمعوه من العلالي، فلن يرتكبوا هذه الحماقة.

لفائدة الشك وحده سيقتاد العلالي للسجن محكوما بأربعة أشهر نافذة. وفي ليالي البرودة والعزلة والأرق، وعذاب الكرفي الصامت بالجبل: اقتلاع الدوم حتى تنسلخ اليد ورصف الأحجار اللامتناهية بسواقي عين أسرودن تحت رحمة السوط ووخز السلاسل في الأرجل، واجه الأعماق المظلمة لنفسه دون ملاذ الكيف والخمر ولاخفة بيبينو. استعاد كل تفاصيل حياة مهدورة وراء رؤى سفيهة وخادعة. نعم، لم يتحرر من الطفل الذي يسكن أعماقه. لقد هرب وصم أذنيه عن خبرات الحياة وتلافى ضرباتها التي تنضج وتقوي. قاوم من أجل أن يدلل الطفل الذي فيه، قاوم من أجل أن لايكون رجلا..

سطوة الطفولة التي يعنف العلالي ذاته هنا بسببها، لاينبغي أن تفهم بالمعنى الشعري الغنائي: البراءة وبهجة الحياة، وإنما بمعنى سجن النفس في مرحلة دارسة، رفض الصيرورة، والاحتفاظ بجوهر يشوش كل تعاط مع الحياة، كما هي في عريها وصفاقتها. وبقدر ماكبر الغل الذي نبت في قلب العلالي تجاه كل ما هو فرنسي، بقدر ما رعى أفول الزمن الملحمي بداخله

واندفاعة زمن آخر نثري، حرفي وبئيس. كانوا يخرجونهم في الصباح، وعلى مرأى أطفال الإداريين الذاهبين إلى المدرسة يسوسونهم كالخنازير، ويسومونهم سوء العذاب. والأطفال يتوقفون لينظروا إليهم بدهشة كأنهم أمام حيوانات غريبة ومتوحشة جيء بها من أدغال بعيدة. وقد دفعت إبن مدير السجن الجرأة والفضول ذات صباح وبالبكاء المفحم إلى طلب لمس أحد الكائنات العجيبة. فتم إجبار العلالي الذي كان في آخر الصف على الجثو على ركبتيه، ثم تقدم الطفل بأصبع وجل وساح في جسده. اكتشف بأن له شعرا وليس إكليلا من الشوك، وأن له أسنانا حافية لا أنيابا مشحوذة. واختبر قدرته على الإحساس بالألم بأن وخزه في عينه حتى احمرت ودمعت. وتحول خلفه فشبك الكائن يديه حول مؤخرته، فأثارت الطفل نفحة الشرف هذه فصاح: "ولكنه إنسان"؛ سحبه أبوه بقوة "نعم لكنه مجرم"، وقد بدت عليه علامات الضيق مما اكتشفه الطفل. تدأب البيداغوجية الإستعمارية على تكوين أنصاف آلهة، ذوي تنسك خاص ونفور غريزي من كل ماعداهم، وعلى ملاحقة تلك الخميرة الأولى التي تفرعت منها الوضاعة والسمو، الأعالي والمهاوي السحيقة، ورأب صدع "أنا" قلقة، تهرب بشكل لاحد له من كل شرط إنساني مسيب يتحدث عن مشترك، وينقاد وراء تعميم رخيص، إنه جنون باختلاف وحشي وغيرية قصوى يعذبها الآخر ويؤرقها، إذ بالقدر الذي تقذف فيه الأنا الإستعمارية الأهالي بتقزز إلى صحراء العدم خارج كل مشترك إنساني، تستعيدهم بألم كأدوات استدلال. كائنات غفل عليها أن تبرهن بوضاعتها وخمولها وتخلفها العضوي بوجودها نفسه عن الصفات الخارقة التي تتمتع بها أنا القوة والتفوق والإبهار الحضاري. فلا وجود لأنا الإستعمارية دون أنا مُسْتَعْمَرَة مُتَوَهمة ترفدها وتسندها وتمنحها كل مقوماتها...

خبـــر:

(في شهر فبراير ألف وتسعمائة وسبعة وأربعين، تعرضت القبيلة لموجات قاسية من البرد، أعقبها مطر غزير عنف الدور بلا انقطاع. انتصب خلاله

الجبل كقاطع طريق جسور يجرد الغمام الندي والمحاصر من سراويله، ويركعه أمام أهداب القبيلة حاشدا كل ما ملك من دموع. حتى أن القبيلة لم تقو على احتمال إفراط التضرع هذا.. نفذ الفحم الخشبي فتحول الناس إلى ما وجد من خشب في الدور. أتت نار التدفئة على القصب والركائز والمحاريث وبلغت القصاع والمغاريف... ولم يعد ينفع إلا الابتهال لله ليكف عنها سيول الماء وجائحة البرد. وذات ليلة لاحت بضعة نجوم في السماء، التمع نور قصي في شقوق الظلام المطوق بالغمام، ظلمات بعضها فوق بعض، فتعالت تكبيرات وزغاريد جذلى. وفي الصباح انبلجت الشمس من فوق قمة تاصميت في خفر المشتهى والمأمول، ليعصر قلوب الناس خوف من نوع آخر: رعب الموت تحت الردم. فعندما تجف ذرات الجدران التي تملت بالماء لاتعود المجنونة تعرف كيف تلتئم على بعضها، ولا كيف تتماسك في سموقها فتتهاوى إلى الأرض..).

في خضم محنة القبيلة وانتظارها كان على العلالي وبعض السجناء الآخرين أن يخرجوا جذوع أشجار ضخمة من مرآب كبير خلف السجن، وتحت سقف قصدير صاخب يحولوها إلى قطع صغيرة تصلح لمدافئ الإداريين، يواجهون في ذلك لسع القطرات التي تتسلل من خروم السقف وفظاعات البرد الذي يدحرجه الثلج الرابض في القمم المجاورة مرفوقا بفحيح شيطاني وقهقهات شماتة مدمرة. تصير الأيدي المتيبسة على الفؤوس توأما مفرغا من كل حرارة ودفق الكائنات، استل من قلب الخشب ليدير حربا ضده...

بقي العلالي يخبط ويخبط حتى تزلزل صدره واجتاحه سعال جاف وطارد بعينين تهذيان، وخفقان منتكس المدى المصدع أمامه وسقط إلى الأرض الموحلة. كان في دورية الحراسة يومها واسطي ذو هوس مسرحي، في زمن غابر شارك في إدارة جمعية مسرحية هاوية بقسطنطينة، وبوجهه المتهدل كان يملأ صمت السجن السحيق بهذيان ركحي يستعيد خلاله نتفا ضائعة من مسرحيات رديئة يحيلها بعد الزمن والحنين إلى روائع في قلبه

القاسي. فحص الواسطي برجله العلالي، واكتشف بأن اللعين يمثل ليس إلا. لذا اختـال فوق رأسـه بالسوط. وردد على مسامعه المغلقة بالوحل ترجمة حياته الحافلة بالتمثيل. هادئا كان العلالي، يجمع قوى مبددة ليقف لكنه لايستطيع. لم يقبل الواسطي بتاتا أن تبتذل معرفته أمام زملائه هكذا في أول امتحان لها. لذا استعان برجله إلى جانب السوط في انقضاض أعمى. تجمع العلالي على نفسه لكن تصميم الضربات فتح ممرات في جسده لعبور الألم، ألم راكض وصاخب وقصي، قاده إلى حافة الموت...

أفاق العلالي في ركنة العنبر رقم أربعة مثقلا بالجراح، وبياض الوقت الذي انقرض وهو ممدد ينازع جموح الروح. كانت قطعان من القمل والبرغوث ترعى في سهوب جسد انضجت دمه الضربات السديدة، وكان يتابع افتراس جسده بحياد كحياد الجيفة ويتقرى الأماكن الرخوة التي تتزاحم القطعان لتلغ في دمها، يومها زاره بيبينو. سمح له الواسطي بالدخول حتى العنبر إرضاء لضمير ما انفك يؤنبه، دخل مطأطأ الرأس ومتعثرا في خجل جميل كخجل طفل، ووضع علب الدخان قرب رأسه. وحين التقت الأعين قال له: "خفت.. ولم أتحكم في نفسي". ثم انهمر باكيا. وحين تبين من خلال الدموع كيف نشر العلالي في ثابوت الركنة مفترعا الفاقة والبرودة، ورأى شدة نهم أيام السجن في جسده المأكول، تضاعفت لوعته، لكن العلالي ابتسم في وجهه حقيقة وبلا تصنع، وجذبه من يده حتى أجلسه بالقرب منه...

لن يستطيع العلالي أن يغضب من بيبينو ولا أن يحتفظ صدره بنثار حزازة ولاحتى معاتبة تجاهه، ولايمكن أن يعزى ذلك إلى استخفافه به، وعدم أخذه مأخذ الجد. بل إلى سبب آخر موغل في تاريخ صداقة الرجلين، فمنذ أن تعارفا، قدم له بيبينو صورة رجل خفيف، يتكلم في كل شيء بادعاء، ويعرض أفكاره بلا مواربة ولاخوف. يتباهى بنقائضه، ولا يكترث أبدا بالناس، رجل حر وعابر، فقد كل صلة بالماضي ولايهمه المستقبل. إذ لايطلب من الحياة إلا ما يمكنها أن تجود به عن طيب خاطر وبلا مقابل.

رجل لايمكن محاسبته (وفق ماذا؟)، ولا يمكن الإعتماد عليه (لايقوم بأي شيء من أجل نفسه وبالأحرى من أجل الآخرين).

الهيام في جنان بني ملال:

في الأيام الأولى لم يعرف العلالي هل الإحتفاء العام الذي يقابل به في الزنقة بعد عودته من السجن مصدره الإعجاب أم الشفقة؟ أخذت النساء تسحبن أرجلهن الممددة من أمامه وتبتسمن. له وحده يمزقن النسيج اللحمي المتكاثف بين البيوت المتقابلة في أوقات الفراغ من أشغال البيت، فيذوب خجلا من وطئة العيون الرانية والصمت، بعد أن كان يذوب حرجا في تسلله الهارب بين فوضى الأعضاء وصخب الثرثرة المديدة، وصار الرجال لايفوتونه بالتحية الحارة بل يبادلونه بعض الكلمات الودودة، بعد أن كان لايحظى منهم حتى بنظرة ازدراء. ووصلته قصاع طعام وكؤوس شاي وبعض من غلال الجنان. لقد طهروه من ثقل الإحساس بالعار. لم تؤلمه بعمق وهو في السجن الأعمال الشاقة ولا المعاملة السيئة، بقدر ما آلمته وضعيته الاعتبارية كسجين. الزي الموحد، والرقم، والحركات المقننة، الوجبات الشحيحة نفسها، الليالي الفظيعة الطول، صرير الأقفال، وقع الأقدام الغليظة في الباحة المنفتحة على بضعة غمامات راكضة وعصافير تتباهى بحريتها.. وخصوصا ذلك الوقت الذي لايرد أن يمر. آلمته إناخة العقاب الثقيلة وهو لم يقتل ولم يسرق بل تلا هباء وهو سكران، وملأته صدفوية القمع حين يريد أن يبرهن على نفسه إحساسا بالضيم.

خبـــر:

(تقنين الوجود، وفرض انضباط تام وأعمى، هو الجحيم عينه بالنسبة لأناس كانوا كالنسيم، يتدبرون حريتهم بإلحاح في عتمة التاريخ، يمازحون المخزن، ويجهزون خطاهم لكل الاحتمالات، مسيرة تبعثر في الجهات الآمنة، خيام مطوية، وبهائم موهوبة للفرار، وحنين يلتذ بالنشيج وأحلام العودة.. إرث خفة ورشاقة ارتداد آمن، وحكمة عدم المجازفة بدخول معارك

خاسرة. لقد رأت القبيلة سلامتها أبدا في الفر والإدبار. وربحت حروبا كثيرة لأنها واجهت أسنة وسيوفا شديدة ومتعطشة للدماء بالخواء الصقيل. كينونة شبحية، تتبخر في الريح، وتسكن الصدى، وتعاشر الهباء، وتعبر التاريخ كما تعبر الظلال الأشياء...

لم تعد الجبال المنيعة والمكللة بالثلوج ملاذا بل حاجزا، ولا الأفق طلقا بل اختناقا، ولا الإقامة ترحالا بل قبرا. لقد صادت الطائرات الهاربين في المسارب الجبلية الوعرة وفي الفجاج ومن تحت الأشجار الوارفة، وأغلقت أبواب الكهوف المنيعة على من فيها بالخرسانة. وسيق الباقون مسلسلين في رحلة عودة مخزية. بعد اليوم، لن تقدر القبيلة المهزومة إلا على تحريك خطى ثقيلة بين مؤسسات للضبط والعقاب، لن تركب النسيم، وتزوبع الهباء تحت أقدام الغزاة، وتخط لمصيرها مسالك بأقدام الريح..).

شيء من الجنوح السافر، ذوبان بطيء وحاسم لامتثالية مطبقة، انطباع مرير بتحطم الصورة الكاملة لحياته الماضية، صيرورة إخفاق جردته من كل ما تعتبره العين. بضعة أيام فقط عبرها، كانت زمنا شاسعا عبره بعناء وبؤس كائن بلا ملامح ولا ميزات. وسيطالب بالثمن. العيون الجهمة الغائمة لم تعد تفزعه. وتلك الرغبة في أن يمر لامرئيا لاتتملكه العيون في فضاء مراقبتها والتي نسميها خجلا، وهنت ولم تعد قادرة على ضخ الدم إلى وجنتيه وتنكيس نظرته وطمس حضوره. لم يعد لديه ما يخسره، هرول إلى ملذات جذلى لا يطوقها تبكيت ضمير، ودفن غضبه في تهدل الوقت الماجن. لهاث وزبد وأحلام تصل الأرض بالأحلام. صادق فرنسيا مستهترا اسمه مسيو كاكا. لم يعرف أحد هل هذا اسمه الحقيقي أم المحاكاة الطبيعية والدقيقة لضحكته المرتجة حتى يتفتت المدى من حوله. هاجر من أزقة مارسيليا ليطالب فرنسا وفي أرض معاركها المظفرة بحقه في الغنيمة، فارتحل بين الأراضي كطائر مهاجر، واعترض الأهالي بثبات خنزير بري، وجرد البدو في الأسواق من بضاعتهم، وأخذ كل ما يحلو له بقانون وضع اليد كما لو أنه في الجنة. وحين اقتيد مرة إلى بِيرُو عْرابْ تدفعه بالأيدي

والهراوات عصبة نافذة الصبر وهائجة، قال له الحاكم وسط جلبة الشكاوي وبصوت متهدج ونبرة ثقيلة، بأن فرنسا تذوب خجلا لأنها أنجبت أمثاله، وأضاف بتقزز حين ذكره أحد مساعديه بالإسم: "إسم على مسمى، كومة براز". لكن مسيو كاكا لم يحمر خجلا كما توقع العلالي الذي جرفه صخب المتضررين إلى بيرو عراب، بل انتفض في وقفته وتخلص من الأيدي الممسكة بتلابيبه، وقال للحاكم في انتصاب صاحب حق، وطمأنينة بريء "نحن هنا لأداء الأفعال الحقيرة نفسها". انسحب الحاكم ليفسح المجال للمخازنية ليحكموا طوقهم عليه حتى يجرجروه إلى الداخل...

مصادقة العلالي لمسيو كاكا لا تعني بتاتا تنكره لذلك الإحساس الأكثر غمرا من كل الأحاسيس التي نمت بداخله هناك: كراهية كل ما هو فرنسي. إن أفعال مسيو كاكا المشينة تفضح وتبتذل اللعبة كلها. فالوحش وبعد أن يلغ في الدماء يواري أنيابه، ويخرج طلاء من القوانين والمؤسسات ليؤبد في تجرد وبرودة ولاشخصية القانون استواء الضحية تحت ناحرها الكلي القدرة، هزل المحاكم، تكييف الحالات، إيجاد المخارج، توفير المستندات والحجج. لكل من المعمرين أن يأخذ ما يحلو له شريطة أن تباركه هذه المومس التي لاتمنع شيئا: ترسانة قوانين المستعمر. لن تقبل فرنسا العظيمة المظفرة التي تحتاج إلى رجال خارقين في الأراضي الخاضعة أن تأتي ذوات نشاز وغفل وراء الرجال العظام الفاتحين لتشوش بتفاهتها الصورة الباهرة التي شيدتها بإفراط العنف والتعقل والدماء. لذا فالعلالي حين يصادق مسيو كاكا فهو في الحق يصادق الوجه الآخر غير المرغوب فيه والملعون لكل معذبيه...

كان الأمر كذلك. اختبار بطيء للنوايا، برهن فيه الطرفان عن مدخرات صبر لاتنفذ، ظلال بسمة غامضة، نظرات خاصة وسريعة الإنكسار. وحين لاتراه لمدة طويلة تبادله نظرات عتاب صامت. منذ أن وطئ العلالي الزنقة تملكه البريق الخاص الذي يشع في عينيها، وفطن إلى التعلات الكثيرة التي تخلقها لتراه ولو في تلك الأوقات التي تنقطع فيها رجل الآدمي من الحواري، تنتصب أمامه بجسد مترع بالدعوة، فماذا ينتظر ليخطو الخطوة

الأولى؟. كان يتجاوزها وهو مختنق بالخجل والخوف، ورغبته المختلجة والمغتالة لتوها تؤنبه. وفي الغرفة يعنف ذاته ويجتاحه غم فظيع. كان يطالب بتبرير مقنع لنكوصه. يسقط سيماء الجبروت المفضوح في حركاتها، في كلامها، في توسطها لجلسات النساء، وفي وقفتها المعتدة الشامخة. ويتوقف عند الحكاية إياها، الحكاية التي لا يصدقها، لكنه في قرارة نفسه يلتهب ضيقا ويتفجر خوفا، ذلك الخوف الغريزي الذي يأسر الكيان، أيكون معشوقا لامرأة تتحول في الليل إلى بغلة قبور؟ كانت في عمق أحاسيسه وخوفه تشن عليه مراودة معذبة لتأسره في شرنقة حب مستحيل، نهايته الموت أو الخبل. لقد غدرت بحق الله، عفرت بياض الحزن والتبتل الذي عليها أن تلبسه بعد وفاة زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام بصمغ الخيانة. في الليالي البيضاء التي تفصل جسد الزوج الميت عن جسد مفترض لكي لايختلط المني ويضيع نقاء السلالة، في الليالي المسكونة بحكي ينوم الغرائز ويخصي وشوشة الشيطان، انقادت هي لنداء لا تتلبسه كلمة الله، فجاء العقاب. لن تتملك لياليها ولاجسدها، سينبت لها حافران وأذنان طويلتان وشعر في خشونة وبر الخيام، ستكون صدى يتسلل من المجاري القذرة وفي العراء ينفخ فيه، فإذا هو هيئة بهيمية وقرع أجراس وجري محموم. ستكون رعبا يطمس المارين وينبت الوحشة في الطرقات. وفي الصباح، ستخرج بسحنة صفراء مجهدة. ذهبت نفخة اللعنة وبقي العناء. تخرج مرآة صغيرة ذات إطار نحاسي مشبك. وفي الصفحة الصقيلة تبحث عن تقاسيم وجه مستعاد. لم تكن مرآة الشيطان تلك تفارق يدها طيلة النهار. إنهمام مبالغ فيه بالذات لهوية ممزقة، تصرمت من يديها القدرة على مماثلة نفسها، تثبت صورة تحس بأنها دائبة الإفلات منها، صورة لم يعد الليل بالنسبة لها سترا بل فضيحة...

تلكم الحكاية. لم يكن يعوز ما يجري في عمى الليل، رفد السلوكات المريبة للنهار، فبتواطؤ فاضح، كانت تتعمد بحركاتها الغريبة، وكلامها المستغلق، وشرودها الدائم، وتعريشة التعب في مشيتها ووجهها، تبديد كل

التباس. يخيط الخارق والعجيب نفسه بالواقعي ويصير من صميم الحياة اليومية، يصير في قلب الحياة...

لو بقيا الدهر هكذا ما تجرأ العلالي على أن يخطو الخطوة الأولى. وقامت بها هي. وقفت في دائرة الضوء التي شكلها القنديل المحمول من طرف خادمتها الصغيرة. كانت السطوح الواطئة المتراصة في تعاضدها وبساطتها ملكا مشاعا للهاربين والمتسللين بحثا عن متعة أو متاع أو ملاذ. لذا لم يكن ذلك توهما ولاتخريفا. عبثا حاول أن يتمالك نفسه. تراجع حتى أوقفه الجدار، وحركت هي باسمة عقد اللويز في عنقها (خشخش... خشخش..) وأخرجت من تحت القفطان رجلا صغيرة مخضبة بالحناء.

حررتها من المشماق وخبطت بها الأرض. نعم، لم تكن حافرا. لقد استبقت حركة نظرته الباحثة في ثنايا القوام الكامل عن العلامات البهيمية المروعة. كانت تقرأ خواطره وعريه وتتملكه كلية. وبضحكة لاهية مدمرة تابعت تضاؤله في الركنة معبورا بدوامة ضياع كبير. وحين أوشك أن يطلب الرحمة. استدارت وأخذت ديكا من يد الخادمة وقدمته له. لم تجد والله هي الوحدانية رجلا ليذبحه غيره. واتته فلول قواه ليقول لها بنبرة ساخرة: "ذبح في عز الليل لقد نويتم الصيام غدا إن شاء الله". لم تتفوه بكلمة. في ما يشبه ارتباك خجل ردت بابتسامة، متسترة بذلك عن كل الأشياء التي ينبغي ألا تقال. وفي الغد جاءته الخادمة بما سمته حق الذبح: نصف الديك محمرا، وأخبرته بأن سيدتها ستزوره في الليل. قضى النهار مرفوعا يتنازعه الشوق والخوف. وعند المغيب صرف بيبنو وحسن مزاجه وقعدته ببضعة كؤوس، وهيأ المطوي والسبسي. أخذ أوراق الكارطا ولاعب نفسه طويلا حتى اجتاحه نوم لم يعرف مثله منذ زمن غابر. نوم كاسح يتعذر الإفلات منه. في الصباح أفاق على ضربات يد الخادمة الصغيرة في الباب، كانت تحمل رسالة شفوية بلغتها بخجل وتلعثم شديد "العشاق لاينامون"؛ وضربت له موعدا في الليل القادم. قضى العلالي النهار وهو يؤنب نفسه ويتذوق مرارة الإخفاق في حلقه. وحين نزل الليل تعمد أن يتسكع طويلا

في دروب القبيلة. وفرد جسده للبرد القارس حتى تتنبه حواسه. وبعد أن أعياه المشي وآلمته ضلوعه دخل الغرفة ممتلئا بعزيمته على الصمود. هيأ قعدته وخرج إلى الباب يتأمل سطوح القبيلة الغافية، ويشرد مغالبا الوقت المتطاول، ثم عاد ليستريح.. في الصباح أفاق على وجه الطفلة الصغيرة وهي تتهجى الجملة التالية "ما هكذا يكون الحب"، قَلَّزَتْ له وانسحبت. كان تحت تأثير أحلام فظيعة ولغة غامضة خاطبه بها رجال كسروا الباب، وصحراء عبرها عطشانا. ثم غمره شعور بالتفاهة ودون أن يفكر في طعام الإفطار سار مرتجفا من الإنفعال باحثا بعيون كليلة حمراء أدماها نور الصباح عن بيبينو، وحين وجده، انتحى به ركنة واعترف له بكل شيء. اغتم بيبينو وضرب كفا على كف، وبكلام فيه من اليأس والألم دفق كبير، أخبره بأن المرأة ليست بغلة قبور كما يعتقد الناس بل دليلة المحتالة. وهي تريد أن تفعل به ما فعلته بعزيز. غيرت محاسنه وهزلت قوامه وتركته هائما تسيل على جفنيه العبرات ويخنقه الانتحاب. ثم سحبه من يده نحو بن الهمصي شيخ رواة القبيلة. لم يجداه في داره فاضطرا لانتظاره. كان الراوي متعودا على مثل هذه الزيارات. ممن يعز عليه أن يبيت عنترة في الأسر، فيأتي بالفدية: سكر ولحم ليتمم الراوي الحكاية وتنفرج الكربة وتزول المعاناة، وممن يتخاصمان أيهما أقوى إذا التقيا في القتال عنترة أو سيف بن ذي يزن؟ ومن يسأل في خجل لو التقى عنترة بشهرزاد هل سيبقى علي حبه لعبلة؟ ومن يريد أن يعرف هل شيبوب يسبق السيارة أيضا؟.. وبرغم أن ابن الهمصي امتلك موهبة خارقة على نفخ ملح الواقع في الحكايات وإسنادها في أزمنة الجحود بعكاكيز الاستعارات والصور والمقارنات والحجج المأخوذة من مجرى الحياة لستر عري الملحمي وغربته في زمن النثر والوضاعة. هو الذي حكى بأن سيف بن ذي يزن وصل في رحلة مسخه إلى بني ملال وبكى بدموع حارة أذهلت الماء المتلاطم في فضائها ودفعته للتراجع. وهو الذي يقول بأن عنترة حين يلعب بسيفه يحرك الغبار حتى حدود أولاد إيعيش (إحدى القرى المجاورة). وعندما يطأ العبد الزنيم زوجة شهريار يفعل ذلك بذكر هائل لاجعله الله يوما في إست السامعين... لكنه هنا لم يقو على ضبط مسافة

الوهم في كلام بيبينو عن دليلة المحتالة المترجلة من رماد الحكاية، كيف تجتاز كل هذه القرون وتنبثق في حي خريبكة؟ لم يملك إلا أن يعيد على أسماعهم الحكاية التي رواها عزيز لتاج الملوك. فانسحبا، العلالي ضائع في إرادة المشيئة القاسية التي هيأت له مكانا وسط مكائد وخبث وصراع أبطال الحكايات. وبيبينو يؤجج مخاوفه: لقد جمعت دليلة كل كيد النساء. ويقدم نفسه وعن طواعية لحمايته وملازمته ليل نهار. وفي كل صباح كان يرعى رعب العلالي الداخلي: لقد سمعت أصواتا غريبة: ألم تسمعها؟ سمعت خطى تقترب وعندما خرجت لأرى لم أجد شيئا. ولم أرد أن أصحيك. سمعت صراخا مخيفا قبل الفجر... وهكذا. العلالي لايسمع شيئا برغم تمكن الأرق منه وتحجر عينيه طيلة الليل. لاغمضة، لا استرخاء، لكنه يجاريه. كان في حاجة إلى أنفاس بيبينو قريبة منه، حضور يدفئ العزلة ويوقف الخيالات المرعبة التي تتناسل في خميرة الوحدة والخوف...

ذات ليلة انتصبت فجأة، كانت الصغيرة وراءها تنير لها الطريق بالقنديل، وكانا يستعدان للنوم. قفطان ملف بلون خيوط نور محتضر وسبنية زرقاء انسدلت سوالفها حتى الكتفين. والوجه الوضاح الباسم يوزع غلالة البهاء على الرجلين اللذين زلزلهما الذهول والخوف والغواية، حورية لفظها في وجهيهما غمر الظلام المحيط. صرفت الطفلة وتقدمت مستأذنة ومسلمة. غمغما ردودا لامعنى لها. وظلا واجمين. قالت بجرأة وغنج بأنها تدعوهما للعشاء، عشاء كامل وشددت على الكلمة. أراد العلالي أن يعتذر فلم يقو على الكلام. ما أحس به بيبينو وألجمه عن الكلام لم يكن خوفا. فقد اخترع حكاية دليلة المحتالة لخدمة أغراض خاصة. وهو آخر من يصدقها. لقد جاب القفار وسهر الليالي الطوال وعلمته التجارب أن الشيطان المارد والجن وكل الأشباح ليست إلا أقنعة يتلبسها الإنسان. ماروعه حقا هو جرأة المرأة وثقتها بنفسها، وذلك البريق المتسلط الذي يشع من عينيها. لقد خلقت لتكون سيدة وكل من يحيط بها يخضع لها لا عن رهبة بل عن إقناع. جاءت الطفلة حاملة طاجينا فوق رأسها وقفة بيدها.

بادر بيبينو الذي تحركت شهواته فأخذ الطاجين. وركل العلالي "قم إغسل يديك"، فعل ذلك باستعراضية ليذيب الوحشة التي تثقل المكان. لكنه تلكأ ولم يستجب له، فقامت هي وسحبته من يده حتى السطل وصبت على يديه الماء. وخلال ذلك صرفت الطفلة بغمزة، رصدها بيبينو ولم يعترض. وعندما تحلقوا حول الطاجين، أخرجت من القفة خبزا وبحركة فخمة أخرجت ثلاث قنينات خمر وكاغذا بسطته فإذا هو مليء بمسحوق الكيف. أكلتهما الدهشة، فقامت بتلقائية وهي ترفع غطاء الطاجين "قلت عشاء كاملا".

من باب الاحتراس لم يشرب العلالي في الأول إلا بضعة كؤوس، وبقي متماسكا. شربت هي استجابة لإلحاحهما الشديد كأسين مخلوطين بالماء، وشرب بيبينو بلا حساب حتى لم يعد قادرا على الاستواء في قعدته، كان يقول لها برغم وخز أصابع العلالي في جنبه:

- "أنت لست دليلة أنت أميرة".

تعطلت لغة الكلام. خف توتر العلالي تدريجيا. وفي وهج اللحظة التي خلقتها حين انبرت للغناء وصاحبها للتو بيبينو عازفا بكأسين فوق الصينية، تخلى عن كل تحفظ وبصفاء سريرة كامل، وفي ذروة الانسياق لنداء يعلنه حضورها المتملك، انتصب واقفا وأخذ يرقص مشكلا دائرة حولها، كان يخط إيقاع الغواية ويسبح في ملكوت الشهوة. وكانت هي يُحس ذلك بكل تفاصيل جسده، كينونة فاتنة ومجردة من كل توهمات تناسخاتها المريعة. رقص كالفراشة، تلك التي يكون حتفها في المكان الذي تنقاد لوجهته، لكنها تستنفد لحظة الانخطاف التي هي فيها، لاقلق، لاتوتر ولاتفجع على مصير قاتم مرتقب...

في ماتلا تلك الليلة من أيام جاءت دائما في مواعيدها. وفي قلب الليل وعز النشوة كانت تدعوهما لإتمام الشراب في رأس عين أسردون، أو في القصر، أو تدعوهما للتيه في الجنان، تتنكر في جلباب رجالي وتستحث

خطاهم. كـان الخوف في البداية يطير السكر من رأس العلالي ويخنق أنفاسه، لكنه لايستطيع أن يرفض لها طلبا. ومع توالي الأيام تعود نزواتها. ولم يعد يقرأ فيها وبريبة علامات منذرة بالشر. كان يتبادل معها نظرات محمومة ولمسات ملتهبة لكنها تعرف متى توقف تيار اضطرام الشهوة عند حده.. حاول أن يتخلص من بيبينو، وحدها الخلوة تذيب التحفظ وتبدد بقايا الخجل، لتقول له أخيرا "هيت لك" كان يوشوش لها مواعيد، سيضلل في أوقاتها بيبينو في إحدى الحواري أو يشبكه في مشكل أو خصومة أو كلام ما ويهرع إلى مكان الموعد لكنها لن تأتي. ولا تكلف نفسها حتى عناء الاعتذار عن ذلك حين يلتقيان. ومع تكرار الأمر، فهم العلالي أنها تصر على أن يكونوا دائما معا، فتقبل قدر حبه وقد كتب عليه أن يحمل فوق عذاب الشوق واشتعال القلب وسيل الزفرات والأرق ثقل بيبينو أيضا، كما يحمل ساق في ممشاه ورما فظيعا ومعذبا.

فــريق الانبعـــاث

أكلته رجلـه، لم يقو على مقـاومة تلك الرغـبة العارمـة في الانطلاق التي استـولت عليه، خلع الجلباب الأسـود ثم طواه ووضعه فوق البلغـتين، وجرى وسطهم ملاحقا الكرة المخاتلة، ينفخ الصـبا سرواله القندريسي فيدافع الريح، خفيفا، مرحا، سابحا في ملكوت حريته، لايعبأ بالأحجار التي تدمي رجليه ولا بالعرق الذي رشح غـزيرا وبلل كل ثيابه، ولا بالوجـوه المأخوذة بصعـقة ترجله المفـاجئ من علياء رصـانة الفقـه وكآبة البـلاغة وثقل هيئتـه المسكينة المنهكة. كان يـجري، أصم عن الضحكات وعن التـعاليق السـاخرة، يؤوي لجسده كل ما هربه الورع الزائف وخنقته الفـضيلة، يجري، ويتحرر الغراب الكئيب من ريشه "هل هناك ساعة أنسب للمرح من هاته؟".

كان يونس وبـعد أن ينهي حصـة المساء يضع كـراريس التلاميذ في قب جلبابه، ويشبك يديه خلف ظهره. ويمضي ساهمـا بمحاذاة ساقية تامكنونت حتـى السلخانة. ثم يدخل القـصبـة الكبـيرة من زنقـة الحناجرة. هناك تتنبـه حواسه، فـيثقل خطواته ويملأ تقاسـيم وجهه بالصرامة والتـقوى، لكن طرفي عينيـه يرفان بلا توقف فـيفضـحان هيئـة الجندي التي يتلبسـها. عند المارشي يعود لشروده الحزين، لقد خزن الخيالات الفتانة وهو الآن يستسلم لتجريدها من الثياب، وسط البخـور (لماذا؟) ثم يستسلم لمشاهدة متهتكة. يعـبر ساحة فرنسا غـير عابئ بفرجـة الحلاقي. وينعطف عند ساحة الـكركور نحو داره. بعد صلاة المغرب يدفن بؤسه في كتبه وتأملاته. لقد قبل أن يقدم دروسا في اللغة العربية بالمدرسة الحرة التي فتحها الوطنيون بجهد جهيد، لأنه لم يعرف

كيف يتدبر الوقت، مل الرهبانية، وحلم الرحيل عن القبيلة الجاحدة بالكاد يجمع فلوله في صدره: *"متى يقيئك الحوت يايونس، متى؟"*.

في أيام الربيع حيث يكون هناك متسع من الوقت بين خروجه من الفصل وآذان المغرب، كان يتسلل بين أشجار الصفصاف المحاذية للساقية. يتابع بشغف كبير، وعن بعد، مقابلات كرة القدم الدائرة في ملعب التنس، وكلما مر بجانبه أحد أشاح بوجهه عن الملعب، وافتعل أشياء تليق بشخصه ووقفته تلك. لكنه ذلك اليوم كان يحس بتوتر كبير، استشاط غضبا في وجه التلاميذ ولم يفكر في الأكل طيلة النهار. حين خرج في الخامسة حاول تبديد احتقان قلبه بمتابعة انطلاق الكرة بين الأرجل من خط الشرط هذه المرة. كانت مباراة غير متكافئة بين فريقين، لأن الفريق الضعيف ينقصه لاعب، فدأب لاعبوه يطلبون من كل مار أن يتممهم دون أن يتجرأوا على يونس. ضرب الحصى الذي أمامه برجله، وحاول الابتعاد لكنه لم يستطع. كانت الرغبة هناك، في أعمق أعماقه. دافعها، ابتسم ساخرا في وجهها، لكنه استسلم في الأخير...

كانت فضيحة كبرى، حتى أن مدير المدرسة المحمدية الحرة بن المدني جاءه إلى الفصل في الصباح، واستنكر الطيش الذي استولى عليه، وتكلم الناس الذين نسوه حول النفس الأمارة بالسوء، ووجد الذين سدوا باب الإمامة في وجهه فرصة للنيل منه ثانية، لكنه لم يسكت للمدير أو لغيره. أقسم أمام التلاميذ أن ينقل القضية من كلام النسوان إلى ميدان العلم، فذبج في تلك الليلة رسالة عجيبة، قضى بعد ذلك ليالي في نسخها إلى عشرات النسخ ثم أخرجها للعموم...

بعد سنوات من ذلك، كانت قد تلفت بين الأيدي الكثيرة التي تناقلتها للتفكه على مَرِّ شُهُور. ابتسم يونس ولم يرد أن يتذكرها. وبعد بحث مضن ويائس عُثِر عليها وبشكل غير متوقع قابعة في صدر ذاك الذي آمن حقا بيونس. لَم يستظهرها فحسب، بل منح بهيئته وصوته وهج الحماسة والثقة التي صيغت بهما. تم تطهير الرسالة من لواحقها العراكية والسجالية،

محتفظين بما يمثل في نظر البعض قيمة علمية ينبغي أن يتجدد نقاش مسؤول حولها:

مختصر رسالة الإفحام في الرد على من يحرم كرة القدم

(ينطلق النص من قاعدة فقهية عامة. وهي أن الأصل في حكم الأشياء الإباحة مالم يرد هناك تحريم، ولا مراء أن القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة تخلو تماما من كل ما يفيد إن تصريحا أو حتى تأويلا بتحريم اللعب عموما وكرة القدم خصوصا. بل ان الرسول الكريم يحث الاباء على تعليم الابناء رياضة الجسم: "علموا أبناءكم الرماية والسباحة وركوب الخيل". لأن الرياضة تمنح الجسم القوة والمناعة وتروح عن النفس. فالنفوس إذا كلت عميت كما قال سيد الأولين والآخرين.

بعد سقوط السند الديني ينتقل النص لتفنيد "مايروه "هم" حجة تاريخية ونراه نحن محض تخاريف وسمادير لأساس لها" يقول دعاة التحريم: في بدء كرة القدم كان رأس الحسين رضي الله عنه، إذ تلاعب به القتلة الأوغاد بين أرجلهم بلا رحمة، وتقادفوها يمنة ويسارا. فكل من لعبها فكأنه يستعيد الفعل المنكر المشؤوم. وهذا قول مردود من عدة أوجه:

- *إن كتب المؤرخين الثقاة التي عليها المعول روت محنة الحسين رضي الله عنه ولم تخبر قطعا بهذا، إذ هو من صنيع الوعاظ والقصاصين الذين يزجون أوقات الناس، ويزيدون ويهولون الوقائع طمعا في نقوذهم...*
- *استحالة تداول الرأس بين الأرجل لأنه من الناحية الفزيولوجية يفتقد الخفة التي بها تتطاير الكرة. "وقد قمنا بتجربة متواضعة في هذا الصدد، وضعنا رأس خروف (بلا قرون طبعا) أمامنا. وحاولنا قدفه فبالكاد تدحرج وتوعكت رجلنا. والثابت أن رأس الخروف أخف من رأس ابن آدم".*

- حتى إذا سلمنا جدلا بأن ذلك قد وقع فهو من قبيل الشاذ الناشز والفعل المنقطع. إذ لم تذكر لنا كتب الأخبار فعلا شنيعا مثله. فلا مخافة إذا أن تختلط الرؤوس المقطوعة حشيشا بالكرة. والأمور بمقاصدها.

أما في رده على من ادعى بأن كرة القدم من صنيع الإفرنج الكفار إذ ظهرت بين الإنجليز الضالين المضلين. وقد نهى رسول الله (ص) عن التشبه بالكفار وحث على التميز عنهم. بين يونس كيف فتح الله عليه بالعثور على نص يدحض هذه الفرية التي أشاعها الإفرنج ليتبثوا بأنهم سباقون إلى كل خير، وهو للإفراني في "نزهة الحادي" يقول: "إن الكورة التي يلعب بها يتبعها المابة والمايتان وأكثر وأقل من خلفها ويكثر الصياح والضجيج والهول وينكسر بعض الناس وينجرحون وقد يموتون ولا يبالون وإذا فتشت فلم يوجد فيها إلا شراويط أي خرق بالية ملفوفة".

وتختم الرسالة بتعنيف أولئك الذين يريدون "أن يكمموا الأفواه، ويعلبوا الأبدان، ويحيلوا الحياة إلى سعي حثيث نحو الموت، أناس همهم الوحيد هو التنكر للجسد ومحاربة رغباته، فدعونا نشم الريح بملء صدورنا، دعونا نشرع النوافذ").

لم يكتف يونس بهذا بل سافر في عطلة نهاية الأسبوع الذي نشر فيه الرسالة بين الناس إلى مراكش. وعاد ببدلة رياضية كاملة لفريق (قمصان وجوارب وشرطات). بدلة زرقاء بلون صفاء سماء القبيلة ومياهها الدافقة كما كان يقول. وجاب فيما تلا من أيام كل ملاعب القبيلة، وسجل في مذكرة أسماء من أثاروا اهتمامه من اللاعبين، وضرب لهم موعدا في داره. كان يختارهم يافعين يخلطون في جريهم وراء الكرة بين الجهد والحلم، وحين يلتقطونها لاتكون في أرجلهم شرارة نار بل فتنة ونشوة، يلامسونها بفرحة وتهجرهم بأسى. ودار الإجتماع التاريخي حول صينية شاي. مفعما بالحماس والنوايا الحسنة والتصميم، انفض بتأسيس فريق الانبعاث لكرة القدم وتنصيب يونس -الذي كان المتكلم الوحيد- مدربا، ووضع برنامج

للتداريب. وفي الصباح الباكر انتظم اللاعبون أمام دار يونس أربعة أربعة وأباح هو لأول مرة في حياته الراشدة جسده لنور الشمس. كان يلبس شورطا حتى الركبتين ويعتصر ضلوعه في قميص حسير. مضى بجانبهم فرحا بأعضائه المتحررة من اختناق الجلباب. (هوب. هوب..) صعدوا نحو رأس عين أسردون من طريق بيرو عراب. وهناك أدوا حركات رياضية قاتلة، ونزلوا (هوب. هوب ..) من طريق الكوشات مرورا بالصومعة وحي بوعشوش. وفي المساء، وبعد الخامسة، التقوا في ملعب التنس. باشر يونس أول حصة للإعداد التقني والفني. كانت دروسه مزيجا من الشدة العسكرية والشعر والإستدلالات الفقهية:

هذه الكرة *(يرفعها بيده أمامهم)* هي الحب الذي يلغي الفروق بينكم، واللعب ليس صراعا مع الآخرين، بل هو أساسا صراع مع النفس، إنه سير حثيث نحو معرفة حدود الذات، فالملعب فضاء حقيقة بامتياز. نقي وعادل. يمجد المجهود ويقره، لاينفع فيه ادعاء ولاتصنع. العبوا بشاعرية، العبوا بإيقاع. يجب أن تحرركم الكرة من الاستعجال الفوضوي للحياة. الكرة كالحياة. لعب بالمجهول واللامتوقع، لايمكن أبدا استشراف ما ستؤول إليه مقابلة. الكرة كالرغبة، لا ذاكرة لها. حين تمنحك نفسها تدعوك لاستنفاذ تلك اللحظة بملء قلبك وجسدك، إنك لن تؤبد امتلاكك لها، لن تبصمها، ولن تخلف أثرا، إنها رغبة مباحة للجميع، تأتيك وتهجرك في فضاء شهوة متنازع عليها. لاتتعجلوا الأهداف، الهدف كالإنزال في الوطء، اجعلوا بينكم وبينه طريقا طويلا من القبل والمداعبة، لاتتهالكوا على المرمى، سيروا نحوها بأناة ورشاقة، ينبغي أن تشتهي رقصكم وتستعجل وصولكم إليها...

خاض الفريق بعد شهر من الإعداد مقابلات في القرى المجاورة، فم العنصر وأولاد موسى وسيدي جابر.. خرج منها كلها بهزائم منكرة، فقد واجه أعرابا شدادا عراة وحفاة، يقتلعون الأحجار من الأرض حين يضربون الكرة، يجرون كالأرانب، ويكتسحون كالإعصار. أعراب لم يكن اللعب معهم فتنة بل حربا وعذابا. تذرع يونس أبدا بإفراط الخشونة وسوء الملاعب. فقد واجهوا مناجل وليس أرجلا، ولعبوا بفم العنصر في منحدر صخري.

وفي أولاد موسى وسط غابة من الصبار كانت تضيع فيها الكرة زمنا طويلا. وفي سيدي جابر انتظروا انفضاض السوق ليلعبوا وسط القمامة وحفر أوتاد الخيام والأحجار... وقاوم كثيرا التآكل البطيء الذي دب في الفريق. كثرت الغيابات، خفت الحماس وصار يتجشم في الصباحات عناء الطواف بالدور ليجمع بالكاد بضعة لاعبين. يطرق أبواب الدور باستحياء كبير فيقابل بالصمت الطويل أو بالأعذار التي لاتصدق، وفي أسوأ الأحوال يخرج له أب غاضب أو أم ليسمعاه أقبح النعوت والوعيد... تجرع كل المرارات وصبر، حتى اليوم الذي كانوا فيه سيرحلون للعب في تادلة تعاقد مع اللاعبين على اللقاء بالمحطة ليستقلوا الحافلة. عصر الليمون وغسل البدل وتدبر الدواء والضمادات، وحين وصل إلى المحطة متفصدا بالعرق، يثقله كيس اللوازم، وجد الهباء. من يومها أخذ يتجنب في نزهته المسائية ملعب التنس، يشيح عنه بوجهه، ويمضي ساهما. ينفث في وجه نعومة الأصيل تنهداته الحارة. وصباح كل جمعة كان يرى بجانب ملعب العميان متكئ على حائط المقبرة اليهودية، يتابع بمتعة كبيرة فرحهم وصخبهم، كانوا يحشون بعض الأحجار الصغيرة داخل الكرة لتصدر خشخشة في تدحرجها. ثم يستسلمون بعد ذلك للعب عجائبي ساحر تتحكم فيه الصدفة وحدها، لا غالب ولامغلوب، عرس للعيون المنطفئة والضائعة ترتطم فيه الكرة جزافا بأجساد مليئة بالضوء والتوق للحياة، اقترب من يونس ذاك الذي آمن به حقا، كان مستغرقا كلية في فرجته:

– ماذا يعجبك في لعب العميان؟

– انظر كيف يلعبون بكل حواسهم.

– لماذا ابتعد كل اللاعبين عن الفريق الذي كونته؟

– كانوا يلعبون للنتيجة، فأصابهم الإحباط، كنت أريد منهم أن يلعبوا ليحرروا أجسادهم.

أعرض عنه وتابع اللعب، وبعد حين ضرب كفا بكف "متى يقيئك الحوت يايونس، متى؟".

عيـــون إيـــزا

تقف مستندة على رتاج الباب ساكنة وفرحة حينا ومتحفزة وفزعة في غالب الأحيان، تهجر بالرغم عنها أشغال البيت، لتتابع لعب شميحة مع قريناتها، يعذبها التجاذب الطويل بين الداخل والخارج، فلا تملك دائما إلا أن تهجر كل شيء وتخرج لتتملك الصبية بعينين حانيتين يترقرقان بالحب والخوف معا.. قد تقود الخطى الصغيرة التي تتهجى بها شميحة الأشياء بعيدا، فتجري سافرة -هي الخجولة المحتشمة التي تميد الأرض بها حين تسلط عليها عين رجل - لاتستطيع أن تحرمها من فرحة الخروج. لكنها حين تفعل تحس أنها تأخذ معها شيئا عزيزا وضروريا لوجودها، شيئا لا يمكنها احتمال الحياة بدونه. تحضنها بقوة وتعيدها. لقد جعلتها الصغيرة تعيش كل العذابات اللذيذة للأمومة. وتستعيد كل الإحساسات التي عرفتها مع إسو وافتقدتها حتى حدود اليأس المطبق. وتختبر من جديد قدرتها على أن ترعى دبيب الحياة حين يبدأ نأمة وهنة حتى يستحيل تفجرا بالكلام والصياح والحركات والآلام. ولم تكن فرحتها بشميحة قادرة على مقاومة ذلك الإحساس الذي يخنقها، الجرح السري الذي يحرمها من الأهم: كبرياء الأمومة. انتشاء ينمو مع التخلق المعجز والبطيء للحياة في غياهب الأحشاء. ويتقوى مع الآلام والترنح الطويل في مهب الأمراض وفقدان الشهية والأرق. ويكتمل في لحظة حيازة فرح مستحق ولانهائي فرح أن تكون أهلا لاحتضان الحياة ورعايتها بداخلك. كانت إيزا تعمد إلى كبح جماح هذا الشعور الرهيب بالخواء، بالهروب إلى رحمة استرجاع المسار

الذي أعقب تلك اللحظة التي تسلمت فيها شميحة هشة ضئيلة، تنازع مصير أفول كان يبدو محتوما. كانت أنفاسها وهنة ترتق اختلاجات روح متعجلة ونافذة الصبر...

وصلوا في آخر الليل. ركبت إيزا وهنو إلى جانب العلالي في كابينة السياقة، لأن البنية الصغيرة لن تحتمل هبات البرد القوية. وتجمع شيمون على نفسه في عراء العربة الخلفية إلى جانب إسو صامدا في وجه البرد والاهتزازات المدوخة للحافلة. وفي وجه اهتزازات دواخله بالهواجس والأفكار المعذبة، ركن العلالي الحافلة في رأس الحارة، أطفأ النور وأسكت المحرك. ثم خرج ليكلم شيمون في شأن نزولهم، لايمكنه أن يتقدم دون أن يعرضهم لخطر افتضاح أمرهم. جرى إسو بخفة وفتح الباب، ثم تسللوا وراءه بتوجس شديد. بقي العلالي واجما للحظة، كيف انتهى به الأمر بعد ارتجاجه العميق حين تبين هوية البنت، إلى أداء دوره بإتقان وتواطؤ كامل؟ لكنه رد نفسه -كما سيفعل دائما- من رحلة تبكيت الضمير بالفكرة التالية: لو لم يهيء الله للبنت هذه العائلة الكبيرة، فماذا سيكون مصيرها غير الوأد في إحدى المزابل أو في المحجر أو بجانب ساقية حيث سيرتطم السائرون في الصباح بخرقة بيضاء تلف جنينا أزرق من الاختناق. وجود مخفق تسويه للتو القبيلة بالتراب وتنساه..

عمدت هنو بمجرد دخولها إلى تجميع معالم ولادة صعبة ومستعجلة. ولم تحتج أن تضيف شيئا لإيزا كانت مرتجفة ومحمومة، يلفها في تمددها عياء وسكينة امرأة خرجت لتوها من مخاض قاتل، وفي جبينها لا زالت تتفتت طراوة العرق الذي أسالته ملامسة الجسد لحافة الموت. وعندما أحست بلمسة هنا وهناك أن الديكور اكتمل، خرجت إلى عتبة الباب وأطلقت زغرودة مدوية، جاءت على إثرها الجارات مباركات. وطيلة ثمانية أيام استباح الناس دار شيمون، حتى مسيو لانسو تكلف عناء المجيء لتقديم التهنئة، كان حطاما إنسانيا بعد أن تذرعت المدام بأي كلام وسارت وراء روبير وروزيت، هما يتابعان دراستهما الثانوية وهي تلاحق زمنا ضائعا..

كان شيئا ما كالغصة، كالإحتباس المفاجئ، يكسر فرحة إيزا وشيمون بالتهاني، ويجعل تيارا باطنيا من أسى وخوف يجري في الدار إلى جانب تيار السرور الظاهر. بحثت هنو عن مرضعة فقيرة ونكرة في شجرة أنساب القبيلة مدعية أن البنية نفرت حليب أمها إيزا وطيلة شهور دأبت شميحة تقتسم بالأجر حليب ثدي المرأة مع أخ في الرضاعة، وتقتسم معه أيضا الهزال والأمراض، حتى أن إيزا لم تعد تفارق المركز الصحي واستنفذت هنو كل خبراتها في طب الأعشاب.

ذات ليلة اشتدت الكحة بصدر شميحة. كانت رجل هنو قد انقطعت عن الدار أياما عديدة، سار إسو وخبط باب الخرابة التي تسكن بها حتى كلت يده. وفي الصباح عاد ثانية ليجد بعض الرجال يعالجون الباب بأسياخ حديد، وحين فتحوه وجدوا جسدها مسجى بالقرب منه. كانت يدها اليمنى ممدودة نحوه في حركة استجداء يائس، وقرب اليد اليسرى دلق كوب صدئ عطشه الأبدي. لقد آلم المشهد إيزا عميقا وعذبها طويلا. كيف أن المرأة التي وهبت حياتها لآلام ومشاكل الآخرين، ومدت يدها للناس في أحلك أزماتهم، وعبرت الحياة ترياقا للمكسورين والخطائين والضائعين، كيف يضن عليها العالم بشربة ماء أخيرة؟ كيف تنال منها الحياة التي أعرضت عن حطامها في آخر لحظاتها، تذلها وتجرجرها على التراب من أجل رغبة مبتذلة ولاتصل لتحقيقها؟ وبقلب يفيض باللوعة والحرمان تكلفت بتجهيزها وبمراسم دفنها. وعدا السر المكنون الذي ضاقت دائرته بوفاة هنو، وعدا الأحاسيس الصادقة التي ظلت إيزا تحتفظ بها نحوها، نجح الزمن بعد حين في طمس معالم وجودها، بل إنه انتدب للقيام بدورها في بيت شيمون رجلا إسمه بن دودو، وهو عطار طيب، كانت إيزا قد احتفظت بذكرى جميلة عنه. قال لها بصوته الخافت في زمن مضى فزعت له هو أيضا بحثا عن دواء للعقم: "لاتيأسي من رحمة الرب مهما تقدمت بك السن ولاتنسي أن راحيل وسارة رزقتا الخلفة في أرذل العمر. لاحدود لمشيئة الرب".

جاء بن دودو إلى القبيلة في سن العاشرة من حيث لايعلم أحد. كان نحيفا يلبس جلبابا قذرا ويسحب على الأرض نعلا جبليا. تضاربته حيطان الدور طويلا، واشتغل صبيا في حرف كثيرة طرد منها تباعا لأن المعلمين كانوا يجدون في سلوكه إفراطا في الخمول والسهو، وبالفرنكات القليلة التي كانت تصل يده كان يشتري كتبا يجمعها في قفة ولاتفارق تيهه أبدا، متى تعلم القراءة وكيف؟ لم يقرب البيعة في يوم ما. لكنه لم يكن يعرف التوراة جيدا فقط بل كان يعرف كتب الفقه والأشعار والحكايات. يشاع أنه أغلف، لكن أحدا لم يكترث كثيرا لهذا النقص. إذ لم يكن للنساء أي مكان في حياته. لما اشتد عوده أخذ يسير إلى الجبل ويجمع أعشابا كثيرة، يبسطها بزقاق الغذيرة الحمراء ويبسط بجانبها كتبا تفصل فوائدها. ومن هناك انتقل إلى حانوت بساحة فرنسا. وفي السنة التي غزا فيها الرمد العيون فقد هو دون حزن كبير نور عينه اليسرى نتيجة مخاطر المهنة كما كان يقول. فقد أعد على إثر رحلة مضنية وطويلة في الجبل ترياقا شافيا لآلام عيون القبيلة. أخطأ في تشخيص التفاعلات الكيميائية بين مكوناته، وامتلك طيبة المجازفة بتجريبه على نفسه، وإيمان حمد الرب بعد ذلك لأنه لم يجربه في العينين معا. كان لطيفا يرهق زبناءه بالمجاملة، ويعطي أدويته أحيانا بلا مقابل. وحين انكب على معالجة صحة شميحة وخصوصا ضيق تنفسها، فعل ذلك باستغراق كامل. كان يقرأ ويسأل ويجري التجارب ثم يهرع بخلاصة ذلك إلى بيت شيمون. عفيفا وحكيما يذهلك بأفكاره وبحبه للآخرين وللحياة، ذلك هو الانطباع الذي خلفه عند إيزا، حتى إنها ورغم شفاء شميحة بقيت تدعوه دائما لزيارتهم، حيث كان يجادل شيمون بوقار في أمور كثيرة ويفحمه، إلا في أمر أولئك الزائرين المتشحين بالسواد الذين يأتون في صورة أحبار وتجار وعابري سبيل وأهل وأقارب. يأتون بالأخبار الخاسفة والعظاة، يزلزلون الأرض تحت أقدام محدثيهم ويمضون. وحين يعودون يرعون بذرة الرعب التي زرعوها في القلوب ويؤججونها، يصفون ببلاغة متمكنة جهنم التي يعيش فيها محدثوهم، وإن كانوا لايملكون رهافة الإحساس بها. يجب أن تكونوا حذرين. لم يعد بينكم وبين يروشاليم أكثر مما فات.. آه، يروشاليم

عمـا قريب ستصير لنا دولة؛ لنا وحدنا، شـامخين، أحرارا، نحن نقـدر نفاذ صبركم العـميق. لكن انتظروا... يخـرج شيـمون من هـذه الاجتـماعـات ضائعـا يعتـصر قلبه غمٌّ لاحـدود له. يتذوق عـذوبة ارتطام خطواته بالأرض ويعب الهواء بشـراهة ثم يعود لعـذابه "لم يكرهون الأرض كل الكره، لم؟" لكنه في أحـاديثه مع بن دودو المتـشكك والجاحـد، يستعير نبـرة متـحمـسة للمشـروع الذي يعتـمل في الخفاء. يسأله باتهامـية: "ألا تحب جيروزاليم؟" فيرد بن دود بهـدوء ورقة لاحدود لها: "لسنا وحدنا الذين نحـبها، يجب أن لانكون قساة ولا أنانيين".

وفي ختام كل المحاورات المضنية التـي دارت بينهما. كان بن دودو يقول "التاريخ لايصنع بالحنين وحده"، وبعد أن يذهب يتمالك شيمون نفسه شيئا فشيئا، ويسـتعيد ذاته التي يضيعها في كل مـرة تكلم في شأن الرحيل. كان هناك شيء قابع بداخله، غامض وموارب. يدفعه لقول كلمات لم يقصدها، وإلى الدفاع عن مواقف يغمـه ويقلقه مجرد التفكير فيهـا. كان الأمر يتعدى مـجـرد اليـقين بأن الكلام الذي يـتـفـوه به غـريبـا عنه، إلى الإحـسـاس بأن الحركات العـصبية التي يقوم بها، خـبط الكف بالكف، وسحق الحروف بين الأسنان قـبل النطق بهـا وتصلـب تقـاسـيم الوجه.. تـصدر عن ذات أخـرى تتملكه وتغلف ذاته الحقيقية بالصمت. كان سر إصرار شيمون على مواجهة بن دودو في كل مرة يلتقيان فيها برغم الأسى الكبير الذي يتبقى له من تلك اللقاءات، يكمن -كـما اكتشف هـو نفسه لاحقـا- في رغبة كسـر صلابة وتماسك الكلام السـاحـر الذي يقال لهم علـى صخـرة معـارفـه وسعـة أفقـه وارتباطه العـميق بالأرض، فيدير بقناع حـربا نصره المأمول فيهـا هو طمأنينة اليقين.

يحس شيمون بأنه أقل كفاءة على المواجهة. وأنه يتكلم كلاما ليس قادرا على التحكم فيه. ورغم ذلك، يلاحظ كيف يغدو بن دودو أكثر توترا. تعلو عينه السليمة نـفس الطلاوة الغائمة المحتدة التي تعلو عينه المنطفـئة. وتتشرب نبرة صوته الرقيقة نغمة حزن عميق، كأن كلام شيمون عمق شقاءه وأصابه

في مقتل. حتى إنه يسائله مرارا وهو يهم بالانصراف وبصوت متفجع ويائس: "كيف تصدقونهم بسهولة؟". وبنفس الاستماتة والتوتر والاحتداد، كانا يعاودان الكلام في كل مرة التقيا فيها. ويتجدد الصراع من نفس الموقع، وكأن معركتهما تدور في فلك حاذق يعرف كيف يشفي الجراح ويجدد الأحقاد ويحرض على القتال من جديد.

ذات ليلة استشاط شيمون في وجهه غضبا "كأنك لست يهوديا"، نظر إليه بن دودو نظرة تنم عن الدهشة والفزع ثم انسحب دون أن ينبس بكلمة. غاب طويلا حتى اضطر شيمون إلى الذهاب إليه في حانوته. بلل شفتيه اليابستين وأراد أن يعتذر له، لكن بن دودو أسرع وقد فهم قصده إلى القول بأن الكلام حين تمتزج فيه السياسة بالدين بالأحلام، تشوش الرؤية، ولاتكون الإساءة للآخر وسوء فهمه ممكنة فحسب بل حتمية. إذاك فهم شيمون أنه لن يعود للكلام معه أبدا في نفس الموضوع. وندم كثيرا لإفراط الحماسة والاحتداد اللذين كان يواجهه بهما. وحين هم بالانصراف شد بن دودو على يديه بقوة وقال له: "إنك في قلب حركة عمياء وستعرف هذا في وقت ما"...

قبلة، يد حانية ودموع:

في حمى هيجان مفاجئ، لم يكن قابلا للرد، وبعد برهة من التفكير الحاسم، قال لها بأن تعد نفسها لزيارة الدوار في الأسبوع المقبل وتهاوى على الوسادة، كأنها انتزعت من أعماقه اعترافا فادح الكلفة. كانت تنتحب في صمت، منذ الصباح أحست بأنها لم تعد قادرة على المقاومة، قضت الليل كله وهي تتقلب في لظى مواجعها، الحنين جنون قلبها وحصانتها المنيعة ضد ما ينطبع في المكان من أحاسيس وألفة. طيلة هذه السنوات الطويلة تعلقت بحلم العودة إلى هناك حتى أنها وقبل مجيء شميحة، وفي أعماق وحدتها، كان ذلك الحلم هو الشيء الوحيد الذي يمسكها عن انهيارها الوشيك. لم تكن لحظة ضعف بالنسبة لشيمون، لقد كان في حاجة فقط لاندفاعة ليخرج القرار القابع بداخله، كان يتصرف إزاء إلحاح

إيزا وكأن رجاءها لاصدى له في نفسه. وبقليل من التفلسف يقنع نفسه بأن حلمها ضرب من الهروب الضروري ضد إحباطاتها الداخلية العميقة وخصوصا بوار رحمها. غير أنه كان شريكها الحقيقي في نفس الحنين: حنين يائس، يهب قلبه بعض الشاعرية وسط رصاصية عالم المال وأحقاد ودسائس فرسانه. يلتقطه من قلبه كلما ضاقت به الحياة كأداة سرية بإمكانها تحويل مجرى حياته متى شاء. قبل مجيء شميحة كان يعرف كيف يحتوي نوبات احتدادها، فلفرط ما بكت أمامه لم يعد يثيره البكاء، ولفرط ما كررت نفس الذرائع، وكرر هو نفس الذرائع المضادة، أخذ المشهد دلالة اعتيادية في مسار حياتهما، وصار يتكرر كارتعاشة مفاجئة وضرورية تنفس عن احتقان قلبيهما ولاتتعدى ذلك أبدا للتأثير على وجهة هذا المسار. لكن مع شميحة تغير كل شيء. فقد ارتكب شيمون خطأ حسابيا كبيرا. خطأ لن يكون بالنسبة له مصدر ندم أو تبكيت ضمير. لأنه لم ينظر لنتائجه بشكل مجرد من الأحاسيس الجديدة التي خلقتها شميحة في حياته. كان يعتقد بصدق أن وجود إيزا في بني ملال يفتقد لسند روحي. فالخطيئة التي لن تغفرها للقبيلة هي أنها حرمتها من الخلفة إلى حد أنها أخذت تتصور في أعماقها بأنها لن تكتمل كإمرأة إلا هناك. اعتقد بأن بإمكان الرضيعة المتبناة أن تخلق التصالح العصي بينهما. وفهم تظافر الظروف المواتية التي رافقت تبني البنت كهبة متأخرة يقدمها الزمن تعويضا عن كل المرارات التي سببها لها. لن يستطيع أحد أن يشكك في أمومتها. فقد تعهد طبيب المركز الصحي الرضيعة شخصيا في الشهر الأول، وأعد هو وليمة عظيمة دعا لها المراقب المدني شخصيا الذي اعتذر وأرسل أقرب مساعديه، وفتح بيته لكل جياع القبيلة، لم يكونوا ضيوفا بل شهودا تحيلهم اللقم إلى متواطئين ينسجون في لهفتهم على الأكل واقعا سيتعذر دحضه. مخاوف شيمون كان مصدرها بالأساس -وطيلة سنوات- هنو والعلالي، وافتكر الله هنو، وأبان العلالي عن جدارته بالثقة التي وضعوها فيه. آنذاك لم يعد شيمون ينغص زمنه بالأمر كله. وتناساه.. كان أمانا خادعا شكله على قاعدة حسابات خاطئة وأوهام. صارت إيزا أكثر قلقا وتبرما بالمكان أكثر مما

كانت، وصارت أكثر إلحاحا في أمر الرحيل. إذ انضاف بالنسبة إليها سبب آخر يدعوها لكي تكون أكثر استعجالا في طلبه. اعتقد شيمون أن أمر البنت قد حسم إلى غير رجعة بالأوراق وشهادة الناس والبطن الكاذب وصمت العلالي. ولم يتفهم السبب الذي يرفد إيزا بالوسواس. وبمزيج من الغيرة والشفقة، كانت هي تدرك بعمق أن هناك شاهدا مضادا يتهدد شواهد شيمون التي لاتدحض: قلب الأم الحقيقية لشميحة، وطالما بقيت في القبيلة فإنها ستعيش عذاب الإحساس بأن هناك داخل أحد بيوت القبيلة قلب ينازعها في حق تملكها للبنت. أمومتها هشة، مهددة، آثمة ولن تصمد كثيرا لإعصار الأمومة الأخرى إذا أعلنت عن نفسها. غذت أكثر إجهادا وحزنا، وأثخنت التجاعيد في بشرتها، واعتراها وهن شديد. كانت البنت عذابا وليس عزاء..

لم تتحسن حالتها في تلك الليلة ولا في الليالي التي تلتها، فقد حفر سماع الخبر المأمول بقوة منذ زمن طويل فراغا مزلزلا بداخلها. إن الفقدان المفاجئ لمصدر ألم قديم قد يؤلم بعمق، كما يؤلم الخوف بأن يخلف المكان المحلوم به وعده، فتتكشف الأماني أوهاما في أوهام. يهدد الخبر فسحة الأمل التي تحتمل بها ضيق العيش وصروفه..

كان إسو قد وعدهم بمرافقتهم لكنه تراجع قبيل فجر رحيلهم، فقد رأى نفسه طفلا في درب ملتهب تطارده غيلان نهمة، ورأى نفسه تصيح بصوت غائض وبصره يتوارى وراء حجب ضبابية. وحين صحا من غفوته كانت الذكرى المريرة ببعض تفاصيلها قد انتصبت بينه وبين الرحيل مجددا إلى هناك. فتذرع لهم بأمور الوكالة والدار والحر وطول الطريق وبأي شيء آخر. ورفض مرافقتهم. أما شميحة فكانت فرحة بطقوسية العيد التي ترافق استعدادهم. الثياب الجديدة، صنع الحلوى، الحناء، وقاومت النوم الطويل لكنها سارت إلى المحطة نائمة في ذراعي إسو. ركبوا الحافلة إلى الدار البيضاء. ومن ثمة إلى أكادير، حيث اشتهت إيزا الوقوف أمام البحر لأول مرة في حياتها. كانت تريد أن ترتب إحساساتها أمام مشهده الهادر الجياش

بالأَقْدَام والانكسـار معـا. في تزنيت استقلوا شـاحنة سـارت بهم في طريق حجرية ملتوية. أسلمتهم في نهايتها لبضعة بغال نقلتهم وسط أحراش الزقوم إلى الدوار.. أربع وثلاثون سنة مـضت، لكنها لم تكن كافـية لطمس مـعالم المكان عن عين شيـمون إنه يعـرفه كمـا يعرف كف يده. كـان الدوار حزينا يخنقه هواء راكد وشمس ضارية. من بعيد بدت الدور متفسخة ينهبها الحر والنسيـان. وكل الأشـجار التـي كانت تخـفف من وحـشـة ويبـاب المكان ضاعت في قـدر زوال غامض. من بعيد لم يريا الدار التي خلفـاها وراءهما، لكنهما استحثا خطاهما تجاهها، كانا يدافعان يأسهما وحقيقة الغياب الذي تسـتشـرفه عـيونهـما، وأمـام بقـايا جدران توشك أن تضـيع في الأرض. لم يقدرا على إمساك دموعهما، لم يثيرا أبدا قضية الدار في السنين الطويلة التي قضاياها ببني ملال ولا في الطريق لكنهما كانا يفكران فيها معا بحنين وقلق آسرين. وحـدها معجـزة يمكنها أن تبقى لهـما الدار قائمـة، منيعة، ومـسورة بالصمـت والانتظار الذي لاينفذ. لكن أخـبارا - كـما سيـحكى لهمـا فيـما بعد- راجت عن موتهما، ستدفع أحد أقربائهـما لاستغلال الدار كمستودع للفحم ثم مربضا للبهائم. وحين أقـعده المرض أسلمها لتآكل بطيء، عمقت الهـوام الشقـوق وساعـد ملح البـول الذي يرشه كل مـن احتـبس قربهـا في تسريع تحـلل الجدران، وفي غضـون سنوات ماطرة كـان السقف قـد تهاوى وبدأت الجدران رحلة التضاؤل الحتمـية.. بعد الدار وعلى بعد خطوات كانا وجهـا لوجه مع المقبـرة. وحدها القبـور لا تشيخ، تلك الأحـجار التي ترعى الصـمت والذكـرى والعتـاب. مـربض الينابيـع وسرير خـمـيـرة المنفى، فكم سيلزمـهما من نشيج ليـغسلا قلبـيهما من الجـحود؟ كم سيدلقـان من كلام وأنين متنكرين لشهوة الحياة التي قادتهما بعيدا؟. كم سيتمسحان بالأحجار ليذيبا غمر السخط وليستذرا رحمة العيون الصموتة الفارغة؟.

استـمـعوا الحكايات من مـات ومن رحل ومن بقي ووزع شيـمون أمـوالا كثـيرة. ووسط دموع وشكاوي ما تبـقى من جاراتها القـديمات، نفست إيزا أيضا عن كل أحزانها. كانت تخرج في طوافـها على معارفها من دموع إلى

دموع حتى تورمت عيناها فأسر لها شيمون محتدا -وهو يرى حالتها- بأنه يندم على الساعة التي فكر فيها في المجيء. حدثه الرجال عن أولئك الذين يزورونهم ويأمرونهم بالاستعداد للرحيل كانوا ضائعين، وكان ضائعا مثلهم، يخفف عنهم بكلمات يعرف أن لامعنى لها...

في الطريق، قرب قصبة تادلة، وقد لاحت قصبة بني ملال، انفجرت إيزا باكية وحكت لشيمون عن تلك المرأة المنقبة التي تمر من الحارة في أوقات معلومة، وحين تكون شميحة بالخارج تهرول نحوها وتحضنها بحرقة..

ثـــرثـــرة فوق السطح

لنتخيل مـجرد الخيال، تلك الأصـوات التي لاتسبر، مصب شـهوة ومرح وائتـلاف، وهذيان القلوب في بهـاء الوجـد، ونثار الصـخب فـوق السطح، حبات من غناء وصـياح وكلام نافر من عـباءة المعنى. ثلاثة اصطادهم طعم الكيف والخمر ليـمتحنوا شدة الليل بضربات ذاهلة عن كل مـقصد، والرابع يوزع الأدوار ويعرش في ملاذه السامق ينتظر ارتـطام خطى الفازعين. بيبينو ومسيـو كاكا وبالمجيء اللامتوقع لإسـو يكونون ثلاثة. والرابع، العلالي يهيء بيتـه فـوق السـطح لكل قـادم. فـيكون الملاذ رحـمـة لأولـئك الهـاربين من حمحمة الحياة..

لنتخيل، مجرد الخيال، تلك الجلسات المسكونة بمصائر متوازية قيد لها أن تتـلاقى في غفلة من تاريخ مـريض دون الحقـائق الشخـصيـة التي يراد غالـبا تعمـيمـها، دون تصنع ولاتقـوى زائفة، ولامنـافحة عن يـقين، استراحـة من ضغائن الهويات، واستسلاما لتناغم هادئ..

انبرى بيبينو للحديث. كان ما يجري بفلسطين يسير باتجاه أن يغدو جزءً من صميم انشغلات القبيلة.

– تتعرفوا آ الإخوان جماعة اليهود اللي احتلوا فلسطين.. كانوا فْ للمان تيعذبهم هتلر كل يوم، ف واحد النهار جمـعهم الحزان الكبير ديالهم أو قال ليهم "لازم نهربوا". ف جنب البـحر خرج عصاتو وشق بهـا الما أو قال ليهم "البحر من ورائكم والعدو أمامكم".

ضحك العلالي وضرب كفا بكف فاستشاط بيبينو غضبا:

- ما تضحككش هاذ الأمور موجودة في القرآن.. والله العظيم.. وانت ما تتفهمش في البوليتيك..

- تتعرفوا بن دودو العشاب (حرك العلالي رأسه بتثاقل، فتابع إسو) واحد النهار جاب للوالد كتاب قديم سميتو يمكن "بذل المجهود" كاتبو واحد أسمو الس.. السم.. بن يحيى. تيحكي فيه القصة ديال واحد الزعيم يهودي اسمو داود بن طوحي أو بن روحي والله ما عرفت. قال لليهود ف بغداد بلي فواحد الليلة كلهم غاديين يطيروا لفلسطين. أرض الميعاد. الناس مْسَاكَنْ ثَاقُوا فيه، بَاعُوا حْوَايْجهم أو لَبْسُوا لَخْضَرْ أو قَعْدُوا فُوقْ السّطُوحْ ف ديكْ اللِّيلَةَ. كل واحد تَيْتْسَنَّا الجناح باش يطير حتى صبح الصباح والمسلمين تيضحكوا عليهم، وقال بن دودو للوالد غادي يوقع ليكم بحالهم إلى بقيتوا تثقوا فاولاد الحرام اللي تيجيوا من الدار البيضاء..

- آش جاب هاذ شي للكلام آ إسو. تساءل بيبينو بانفعال وقد اعتبر الجملة الأخيرة إهانة موجهة له.

- لكلام في السياسة. رد إسو ببراءة

- Merde صاح مسيو كاكا.

- واه.. غير كلتو البلاد أوتا تقولوا السياسة كلام خاوي.. قال العلالي باحتداد ظاهر.

عب مسيو كاكا الدخان بعمق: Merde

يتحدثون في كل شيء، فضائح الحب، أخبار المعمرين، يناقشون تفاهات عامة، يختصمون حول الأنواع المفضلة من الخمور والنساء، يحكون الملح والذكريات ويخططون لمشاريع لن يتذكروها غدا.

كان يحلو لمسيو كاكا أن يجرجر بيبينو للحديث عن علاقته الملتبسة مع ماري- أنطوانيت، موضوع لايعكر صفو بيبينو فقط بل يفسد عليه ليلته

كلها، تلك سيدة طيبة ورائعة ما دخلها في الخراء الذي يدور بينهم؛ لكنه في لحظات نادرة يجاريه ويؤكد له مبتسما بأن عقبة وحيدة هي التي مازالت تحول بينهما والزواج: من سيتنازل للآخر عن دينه.. فيستدرك نفسه بسرعة وبصوت أوهنه الندم يهمس لنفسه: سيدة طيبة.. طيبة. ثم يرجوه أن لايعاود الحديث معه في الموضوع، ينتحي إسو جانبا بالعلالي ليقدم له التقرير اليومي لمراودته المعذبة لإيطو بنت حيون العطار، كان يخشى أباها ويكرهه، ولم ينجح طيلة شهور في مخادعة حصار أمنع من تحوطات الحراز والاتصال بها رغم خطط العلالي ونصائح بيبينو الذي يكره هذا الصنف من العذاب بلا جدوى. ويراهن إسو على أنه لو سار إلى زنقة الحناجرة وضاع في أكوام اللحم لنسي عيون إيطو وجد جدها. هناك حفنة من المني ترقد في سلسوله لو تحرر منها لأراح.. يأخذ العلالي على بيبينو بروده، ويؤكد له بأن العشق عاطفة لايمكن أن يفهمها لاهو ولاغيره ويستدل بقول الشيخة:

"كَلْت عْلِيكْ الشُّوكْ
ولَحْت رَاسِي ف الزَّرْب
أَو بَاقِيَّة تَنْتعَذَّبْ"

يضحك بيبينو بكل الخراب والجوع والضياع الساكن في عتمة فمه الأدرد: كلام خاوي، آحبيبي. فيحتد العلالي ويقول له بأن الغالية والمباغي حجرا قلبه. فعل وهو يعرف بأن بيبينو لايطيق أبدا أن يذكره أحد بأمر أسرته وخصوصا في لحظات متعة. هدد بالانسحاب وكاد أن يجرجر غضبه وأساه وينزل السلم. لو لم يمسكه العلالي من يده ويقعده بجانبه ويعتذر له. كثيرا ماكرر له بأنه على حق بشكل ما فزمن الفقسة التي يعيشونها بدد كل شيء. هو مثلا طلق زوجته ليس لأنه لايحبها وإنما لأنه لم يعد قادرا على عيش نفس الحياة الرتيبة المكتنزة بالدموع والتوتر والشكاوي وعفن المشاكل.. حين كان الرجال رجالا كان الحب. بيبينو مثلا حاشاه قملة أمام

عنترة أبو الفوارس الذي يضرب ثلاث آلاف على اليمين ومثلهم على الشمال، ومع ذلك كرفسته عبلة ودوخته. تاه في الصحراء وركب المستحيل. لم يكن العلالي مستعدا أبدا للتنازل. أن تكون بطلا يعني أن تختار بين أن تحمر خجلا من نفسك أو تموت. والحب صنو الموت، لم يكن يهم عنترة لبن نوق العصافير بل كلمته كرجل. ثم يحكي عن الرجال الذين اعترضوا مدافع وطائرات فرنسا بأجسادهم. لم يكن يحركهم وهم نصر مستحيل، ولم يكونوا يدافعون عن النساء ولاعن الأطفال أو المنازل أو الأشجار أو الأرض بل عن شرفهم كرجال، سيذكرهم يوما ما التاريخ وستستمع الأجيال القادمة لحكايات إقدامهم أو نكوصهم ، كان بيبينو يضيق بهذا الكلام الذي يبدأ عن الحب وينتهي بالبارود. بينما يحرج مسيو كاكا ويحس بضرورة قول بضع كلمات من أجل فرنسا اللعينة، يتنحنح ويشرح كيف يكون الخوف والتراجع في بعض الأحيان علامة على بعد النظر. الموت مغلق والحياة مفتوحة. ولا يعقل أن نمنح دماءنا للآخرين يغتسلون فيها لنحسب رجالا.. انفجر بيبينو: طز.. يغمز العلالي ثم يلتفت نحو إسو ويدعوه ليحكي لهم مرة أخرى الفيلم الذي شاهده مؤخرا. كان حدثا جليلا في حياة إسو. إذ تجرأ وزاحم الناس وأخذ ورقة وانزوى بمتعة قلقة داخل البلكون. ليلتها قدمت السينما فيلمين واحد لمحمد عبد الوهاب والآخر لرعاة البقر وانبهر إسو بالألوان وبألغاز العالم المتحرك أمامه، استسلم لفترات متقطعة من النوم، حتى اشعلت الأنوار، ثم خرج مع الخارجين، بعدها سيحكي كيف كان محمد عبد الوهاب يغني فحاصره الهنود الحمر وبدأوا يرشقونه بالنبل، فهرب فوق حصان أسود ودخل إلى الحانة ووجد هناك رجلا يعلق نجمة فوق صدره يراود ليلى مراد عن نفسها وهي تتمنع، فأخرج محمد عبد الوهاب مسدسه وقتله ثم أخذ حبيبته وهرب معها وهو يغني والهنود الحمر يجرون وراءه..

– ياسلام..

الليل، وهذا الصـخب، وهذا التـبصـر في لذة مـحلوبة من لاشيء، وتلك الحكايات الماجنة، وتلك النفـوس المشتـتة في العـتبات، وذلك النهـار المنسي والمتروك لوضوح فج لايشـتهي، وذلك الفجر المتحـفز كطعنة غادرة. القيء، والأحلام الهاربة، والأسى العـقيم، والشجارات الودية: تعسا لأجـساد تتآمر بالصداع والشحوب، تعسا للضوء المتعجل دفقا من الخروم..

أصحاب الأخدود

يحملون القبيلة في ثنايا جلابيبهم ويسيرون على عجل، كأنهم هاربون في الجنان يحررونها فتستند هي على شجرة زيتون قريبة، تتأملهم في شرود، وقد تبتسم في تجل وإشراق مفاجئ لبعض كلامهم، لكنها سرعان ما تلملم ترويحـــهـــا لـلنفس على هـدوء ورزانة نادرين. يزدرون النائمين. الذين لايمتلكون إلا باغتصاب، يزدرون الحاجة والأحلام الصغيرة وكل ما قد يجعلهم يخطئون خروجها بالمظهر الملائكي إياه، يلمحونها صاعدة تنثر البهاء، وتهيء للأرض طقس تطهر، برنين خطواتها تقول لها مالم يقله عاشق لمعشوقة، مالم يقله خطاء في مقام ثوبة يحتضنونها ببسمة لم ترتسم في الشفاه، بابتهاج لاتحتمله دروب الضنك فتصدع بالمواجع. وتكون الجنان في ذروة نسج خيوط دعوتها، تحيك غوايتها بريشة الروائح العطرة ومداد سواقس العين، وتتكئ في خفر المشتهى كضرة هيأت لزوج متنازع عليه نشوة لاتقاوم..

يمضيان في تطاول لوعة حبهما وتكتمهما خيمتان لبهائها وتفردها. لقد انتهى بيبينو إلى اقتسام حبها مع العلالي وأبدى هو أيضا نفس الترقب واللهفة على لقائها، وسكنت كلامه وخيالاته وتسللت حتى إلى فلتات لسانه، لكنه تميز عن العلالي بفهمه البدائي بأنه لا يملك شيئا لحبه. فقد شكله على قاعدة إنكار مطلق للذات لايخامره أدنى أمل مضلل في امتلاكها في يوم ما. لذا كان يستنفد بعمق لحظات قربها باعتبارها أقصى ما يمكنها أن تنعم به على حبه البائس والمستحيل. لحظات أعلى من الأبدية، لأنها ليست تعلة ولاطورا في حلقة أطوار تقود إلى حظوة تامة في حياتها.

كان الاقتراب منها فقط غنما فريدا لامطلب بعده. اقتراب تعود أن يطهره من رغبات حبه الأخرس. ورغم ذلك كان العلالي يعلم بلا قلق ولا ضغينة ما يدور بخلده. لم يكن غريما، فقد أدرك هو أيضا من خلال تصميمها على ابتعادها في قربها، بأن حبها بلا مسافة، يسع قلبيهما معا، بعيدا عن كل لهفة أو أنانية قد تخلقها الغيرة حين يكون امتلاك المحبوب يائسا. بل لم يحب بيبينو كما أحبه في تلك الأيام، فقد رأى كيف حوله خفقان تلك الحجرة الصلدة الميتة في صدره، فغدا أكثر رقة وتفهما، يمنح نفسه ممرات لتذوق الأشياء التي طالما ابتذلتها في عينه المنفعة وحدها. ولايُلْهِمُهُ في خطواته تقويمه القديم للحياة باعتبارها ضجر في ضجر..

ذات صباح قادتهما إلى كهف الصينية الرابض في دغل الزيتون المحيط برأس عين تامكنونت، لم ينبس أحدهما بكلمة في الطريق، كانت أشعة الشمس تتهالك جذلى على الخروم التي تركتها الأغصان المطبقة، فتنثر في المدى بقعا تفسد على الظلال نسكها، وكان الخوف يوالي ضرباته في صدريهما. فالكهف كما هو معلوم للقبيلة ديوان أثير للجن، يغمغمون فيه بكلامهم الغامض، ويحركون الأشياء وأنقاضها، ويهيئون للإنس حياة لصق حياتهم، حياة تشتعل بالهزء والمفاتن.. لكنهما لايملكان لأمرها ردا، عاودت العلالي بشكل خاص كل مخاوفه تجاه المرأة، لذا ما أن دخلوا الكهف حتى تكالب على كؤوس الخمر، أراد أن يفطم نفسه بسرعة عن عالم الوعي والمخاوف، وأوقفته برفق فيْ مستهل ركضه المحموم. رجته أن يأتيها بكأس ماء من العين. ورجته أيضا أن يقطف لهما بعض حبات المشمش من الحقل المجاور. سارع العلالي إلى الانفلات من وحشة المكان، انحدر نحو العين غسل بتمهل شديد الكأس مرات عديدة، وحين ملأها انعطف نحو حقل المشمش، وبعد أن قطف ما تسعه جيوبه تتبع المسرب الذي يقود نحو الكهف، هناك ارتج لصيحة منبعثة من الأخدود المحاذي للمسرب "لا... أخويا"، قرفص حتى تمالك نفسه، وزحف نحو الشدير الذي يحجبه عنه، من هناك رأى وهو لايرى ستة رجال متداخلين في ضيق وعتمة الأخدود،

خليط من الحرفيين والفلاحين، عرفهم للتو واحدا واحدا، وكان سي محمد الفقيه يتكلم كلاما عاما عن ظلم الاستعمار في البلدان العربية معززا ذلك بالشواهد والوقائع، والآخرون مطرقون برؤوسهم السمع الشديد، فتستطيل بلاغته المتمكنة في صمت المدى من حوله وتسوره بالهدوء والسكينة. وحين قال بقليل من الاحتداد "الرجل الذي يستحق أن يسمى رجلا لا يرضى الذل والمهانة، بل يقاوم ويقاوم". لايعرف العلالي لماذا داهمته بالضبط صورة يد طفل الإداري الفرنسي وهي تمتد إلى مؤخرته، انتابته قشعريرة، واستيقظ الدم في عروقه، رددوا نشيدا وانسلوا واحدا واحدا منحدرين تجاه القبيلة وبقي ساهما في مخبئه تنهبه الأفكار التي سمعها. وحين لملم نفسه وسار إلى الكهف، تمتم اعتذارا عن تأخره الطويل، ولم يعد للشرب ولا للكلام. وفي المساء اعترض سي محمد حين خرج من المسجد، أراد أن يعرض عليه انضمامه لهم لكنه لم يقو إلا على تحيته، فجرجر خطاه إلى غرفته وقضى الليل كله وهو يستعجل الفجر نافذ الصبر يدافع انخساف نفسه أمام صورة لجوجة. الواسطي وهو يركله، والقطرات الفظيعة المتسللة من سقف المرآب حيث كانوا يقطعون الأخشاب، وليالي الحرمان الأقصى والأرق...

في الصباح هرع إلى المكان، اختبأ وسط الشدير حتى توسط النهار لكنهم لم يأتوا، وفي الليل استدار نحو الحائط. لم يفهم بيبينو سر انطوائه المفاجئ على النفس. فآثر الصمت. وحاولت هي أيضا في زيارة خاطفة معرفة ذلك، لكنه تذرع فقط بصداع خفيف في الرأس، ثم سحب الغطاء حتى حجب وجهه. لقد فتح كلام الفقيه الكوة المرعبة بداخله، ولامس الغامض الذي طالما تطلع إليه، واستل منه ماكان يجعل يقظة آلامه محض تعنيف للذات لامخرج منه، هناك أشياء لم يفهمها، وأشياء أخرى عليه التوسع فيها. لكن الهدف واضح لالبس فيه. في الصباح سار إلى نفس المكان وعاد بنفس الخيبة، وأمسكه عن اعتراض الفقيه ومصارحته برغبته تردد عصبي، وقال لنفسه أن الاجتماع الذي شهده مَوْقُوتٌ أسبوعيا أو

شهريا أو بحسب الظروف، لهذا فكر في خطة أخرى بسيطة لمعرفة وقت الاجتماع. أخذ يقف في الصباح الباكر راصدا باب الفقيه من رأس الزقاق. وحين يخرج يتبعه من بعيد حتى حانوت الخياطة، وبصبر كبير يجلس مستندا على حائط الفرن المقابل ويتابع يدي الطفل وهما تشبكان بلا كلل خيوط إبرة الفقيه القابع بالداخل، لقد خفره كظله في زيارات للسوق أو للأقارب، وحين يضرب في الدروب بلا هدى، وحتى في ولائم يخرج منها الفقيه يمسح بطنه بيده ويتجشأ والعلالي يطحنه الجوع والعزلة. قبل أن تقوده خطاه ذات صباح نحو عين تمكنونت، جرى العلالي أمامه واختبأ بعيدا عن الأخدود حتى اكتمل مجيء كل الأعضاء ثم زحف نحو الشدير بتوجس شديد. تحدث الفقيه هذه المرة عن الحزب والزعيم بشيء من التوتر "لايمكن لهذا الأمر أن ينجح إلا إذا توحد المغرب في كلمة واحدة من أقصاه إلى أقصاه"، وأخرج جريدة "العلم" من داخل جلبابه وقرأ منها بعض المقاطع، ثم أخرج رزمة أوراق ملفوفة بدقة. ولوح بها في يده "علينا أيها الإخوان بحسب تعليمات القيادة أن ننقل مجال عملنا إلى القرى الجبلية المجاورة.. علينا أن نوصل إليهم الجريدة والتعليمات والمناشير.. وهذه الأوراق يجب أن تصل إلى الإخوة في واويزغت غدا إنشاء الله"، من يتكلف بها؟.. تعرفون الطريق مع أشغال بناء السد مراقبة جيدا، هناك عدة نقط تفتيش "من؟" خيم صمت كصمت الدوالي على الأخدود، نكست بضعة رؤوس، حاولت أخرى بعيون سليطة أن تراوغ حرجها بتأمل حرج الآخرين وتأمل البعض الآخر أغصان شجرة الخروب التي تظل المكان. وحده الفقيه كان يتابع المشهد بعيون سمحة ومستحثة، وحين طال الصمت وكرر بيأس "من؟". انزلق العلالي بخفة من مخبئه وانتصب أمامهم "أنا". ماجت كتلة نافرة مروعة، ولم يسع ضيق المكان هياج الرجال ولا تدافعهم للوقوف، إلا الفقيه بقي هادئا يدعوهم بحركة من يده إلى الهدوء ومعاودة الجلوس كما كانوا...

كان العلالي هو آخر عضو تسلل من الأخدود، انحدر جذلانا يود من فرحه لو يلثم الأشجار واحدة واحدة، كما لو انجلت أختام قلبه، كما لو عثر في شرود خطاه عن مسرب قصده. قال لهم لست جاسوسا، وإن كان الموت دليلا على صدقه فهو مستعد أن يموت، وقالوا له -بلا حشوم- بأنهم لن يأتمنوا سكيرا ماجنا يعاشر الأرذال على أسرار الوطن، فأعلن التوبة. أوقفهم الفقيه وقال له بعينين تتقصيان أعماقه وبصوت رقيق نافذ: "لانريد استقامتك يابني وإنما إخلاصك" فرد العلالي: "جربوني" نهض الفقيه وربت على كتفه "سنرى..."..

طيلة تلك الأيام فكر العلالي بشفقة ومودة في بيبينو. لن يكون سهلا عليه إخراجه من حياته. كان يمثل بالنسبة له صورة ما تطمح ذاته أن تكونه، متخيلا أو بديلا مأمولا: غواية القدرة على خيانة التاريخ الشخصي، والهزء الدائم بما يجعل الآخرين ثقلاء، تذلهم وتعذبهم الحياة. كانت علاقتهما -من جهة العلالي- أكثر من رفقة عادية لم يمتنها الكأس والمرأة فقط، بل وبالأساس رغبة عميقة وخفية في التماهي والحلول. كان بيبينو يشهر في وجهه بطولة مضادة ومجدا غريبا عن أحلام الناس، مجد أن تكون سيد التفاهة، وأن تتباهى بنقائصك الخاصة. وفي أحد شهور رمضان فوجئ به يشعل عقب سيجارة فاستهجن الأمر حقا، لكن بيبينو وببسمة ماكرة فسر له كيف أن الشرع يبيح لمن كان على سفر أن يفطر، وهو على سفر دائم، ليس سفر الجسد -كما اعتقد العلالي باستنكار- بل سفر الروح، الجسد مقيم وهي مرتحلة هائمة.. صده برفق عن المجيء المتكرر، وواجه كلامه بوجوم يبعث على اليأس، حتى اقتنع بضرورة تدبر حياته بعيدا، فلم يعودا يلتقيا إلا بشكل عابر، لكن ذلك لم يكن أساسيا، كان عليه أن يحارب بيبينو بداخله، وأن يطهر نفسه من تعايش شخصين نقيضين بداخلها، بشكل غامض كان يدرك أن تجاهه نحو الناس من جديد سيمحو تدريجيا حاجته الملحة للبرودة التي يتآمر بها بيبينو على مشاغلهم ووساوسهم، وللألفة المدهشة التي يعاشر بها الألم والضياع، كم سيلزمه من إصرار ليبني حياته من جديد؟ كم سيقاوم من حقائق كشفها في جسده؟...

تأخذه الحماسة، تغلف كل هواجسه، حتى لاترى إلا حلاوة الانتظام من جديد في صف الجماعة، يسكنه تسليم مطلق كتسليم إسماعيل للتضحية الفادحة التي سيق لها، العزلة قاتلة والمجهولية أكثر، لكن ذلك وحده لا يفسر رغبته المتوترة في انقذاف مطلق خارج ذاته، كان يحمل القبيلة بداخله كصعاليك الجاهلية، تمزقا لاهوادة فيه. هناك في أقصى العزلة والمدى الرحب الصامت، تحضر محبوبة ومكروهة، يشد إليها الحنين والذكرى، وتبعد عنها نشوة المجهول والتيه، أم ترعب بالحنو والجحود، رحمة وعذابا. كان قراره جاهزا بشأن بيبينو، سيهجر عراء فرد واحد من أجل العباءة المترفة والآمنة للجماعة. لكنه لن يستطيع أن يهجرها هي بنفس التصميم والسلام الداخلي. لم يفكر فيها بنفس الطريقة. كانت مصدرا لعذاب واضطراب كبيرين. جزء حميم من ماض يريد أن يدير له ظهره. ضياء تلفه عتمة مكينة. حاول أن يتدبر لنفسه أعذارا سرعان ما تبددها نوبات شك مفاجئة، حتى انتهى به الأمر إلى الانصراف إلى حياته الجديدة، تاركا لها هي وحدها حق صياغة قدر حبه. وتصريف أمر تلك الأحاسيس التي تداهم قلبه بقوة..

بعد ستة أيام دعاه الفقيه في عز الليل، وحول كأس شاي ناقشا كل تفاصيل الرحلة إلى واويزغت، احتياطات الطريق وإسم وعنوان المرسل إليه وشفرة التفاهم، ثم سلمه لفافة مناشير ملفوفة بإحكام شديد، وأخرج من جيبه منشورا وقرأه عليه، حتى لايدفع الفضول العلالي لإفساد هيئتها. كما فسر له بحرج خفيف، دس اللفافة لصق عضوه السري وخرج مع آذان الفجر متعثر الخطى واجف القلب يهرب في مشيته المتعجلة والمتفردة في خلاء وصمت الحواري سره المفتضح من كل العيون غير المرئية التي ترصده. وبعد عذاب إغفاءة صغيرة سار إلى المحطة، واندس وسط حصادة كانوا يجادلون صاحب شاحنة في أمر نقلهم إلى أزيلال، وحين اتفقوا، قفز هو أيضا فوق العربة الخلفية. ورغم الاحتباس الثقيل في صدره، ورغم الوجوه القاسية المنحوتة بلفح الشمس وضنك العيش المحيطة به وبوداعة مزيفة، أدار معهم كلاما مرحا. ومن باب المزاح سمح لنفسه بأن يضع فوق

رأسه ترازة أحدهم وتناساها فوقه. كان خائفا بعمق حتى أنه كلما انحدرت نظرة أحدهم نحوه تصعق دواخله وتتفطر أحشاؤه. مروا بعمال تأكلهم الشمس والغبار، بجرافات تصارع الجبل، بفرنسيين أنيقين يراقبون العمال في غير رضا وبغابات موحشة ومتكاثفة تذوب شمس الصباح خضرتها العميقة. وحين رأى رجال الدرك أغمض عينيه من الدوار الذي خضخضه ونازعه القيء. لكنهم أشاروا للسائق بحركة أشبه بالازدراء: تقدم. وأخيرا ترجل في واويزغت بخطى فاشلة هدها الخوف، وسأل عن الرجل فاقتاده طفل إلى منزله. تبادل معه سريعا شفرة التعارف وسلمه اللفافة. وحين خرج ليتدبر وسيلة تعيده إلى بني ملال. كان مزهوا يملأه رضا عن النفس لا يوصف. لقد حاز من جديد مكانته في الجماعة. في صباح اليوم الموالي مر قرب حانوت الفقيه وحياه بابتسامة تأشيرا على أن الأمر قد قضي على أحسن مايرام، فبادله الفقيه التحية بأحسن منها، وأرسل وراءه الصبي يدعوه لتناول طعام العشاء عنده...

كان الفقيه محرجا يمضغ اللقم بسرعة، ويتفرس وجه العلالي من حين لحين بعمق. وبعد تناول الشاي تنحنح وأخرج لفافة أخرى من تحته وقدمها له، أخذها ولم ينبس ببنت شفة: "أرجو أن تتفهم الأمر يا بني" قال الفقيه بضيق. وأضاف "لقد نقلت بالأمس أوراقا بيضاء فقط"، بقي العلالي صامتا، "كان علينا أن نختبرك وأن نحميك في نفس الوقت" امتقع لونه، "لايمكن أن تؤتمن على أسرار الحركة الوطنية بسهولة.. هذا هو القانون.. أرجو أن تتفهمه". نبتت الوحشة من جديد في صدره لقد أسقط كلام الفقيه حجرة الومض التي أضاءت حياته، منهوبا بضربات شك وربما ازدراء، انعكست على وجهه كل الكثافة اللزجة للخيبة، كان يريد أن يفر أو أن يدفن وجهه في صدر الفقيه ويبكي. لكن هذا الأخير ربت على كتفه وقال: "لقد حزت على الثقة، هنيئا". وبين له كيف أن نفس المناشير تنتظر من ينقلها إلى هناك. وليس هناك من هو أجدر منه. تسلمها ولم يعترض. لكنه لم يفهم الضرورة التي جعلتهم يفكرون في أن ترافقه امرأة إلى هناك.

واكتفى الفقيه بالقول: "ستجدها في المحطة منقبة ولابسة إزارا أخضر، تتصرف في الطريق كأنها زوجتك في واويزغتِ ستفترقان. لأنها ستذهب إلى مهمة أخرى".

لم يعر العلالي مسألة المرأة اهتماما كبيرا. وعبر مسح أولي دقيق وصارم للساحة رأى امرأة واحدة بإزار أخضر تنتظر أمام شباك تذاكر الحافلة الخارجة إلى أزيلال. كانت تقاطيع جسمها تشي من وراء التكتم الحاذق للإزار الملفوف عليها بنضج واكتمال فذين. وكانت المحطة خالية إلا من بضعة رجال متكئين على الحائط يغشى أبصارهم نور الصباح الباهر، ويقتسمون بضراوة ظاهرة بضعة إسفنجات تتقطر زيتا، وحشدا من العصافير المتراقصة والمتشابكة في صباحها الفرح. سلم عليها من بعيد بإشارة من رأسه. وذهب توا إلى الشباك وأخذ تذكرتين، تابثا ومصمما في الظاهر. قلقا وخائفا في الداخل، يستغور بعيون زائغة كل علامات الساحة المطمئنة، لم يكن هناك مخازنية ولافرنسيون. لكنه لن يعرف الاطمئنان. حين عاد نحوها بالتذكرتين، جذبه شيء عميق في عينيها فحول النظرة الفارغة والسريعة الانكسار التي سلم بها عليها إلى تحذيق فج ومواظب، اشتباه، توهم، ربما، أغضت حياء، خط الكحل الرفيع الذي يحد عينين نجلاوين لاتحدان. والجبين العريض الذي يسكر خيوط الصباح الذهبية. والحاجبان خطان من ظلمة فاحمة. تعرشان في وجه قُدًّ من ظلمة وضياء، وخلف النقاب الهفهاف تتحرك تموجات أنف أشم وارتعاشة فم ملتهب يهب النقاب بعض البلل الغض. غلبه الحياء، فسارع إلى أخذ القفة من بين رجليها، ثم أدخلها إلى الحافلة، ليس الوجه بغريب عنه.

جاء السائق وأدار المحرك بتأفف، ثم اشتبك مع المساعد في حديث غاضب، كان يلوح فيه بيديه ويعب دخان السيجارة بقوة ويضرب من حين لحين عجلة الحافلة برجله. وكان هدير المحرك المتصل وزجاج النافذة يطمسان صخبهما. فيتابع العلالي مشهد الحركات العصبية المفرغة من كل دلالة بمتعة طفولية مسلية. جاء شيمون فهرع لتحيته. كلاهما بدا فرحا بهذا

اللقاء. رفض شيمون مطلقا أن يكون العلالي قد أدى ثمن تذكرته، فطلب من كاتب الوكالة أن يعيد له النقود. وخبط على كتفه: "باقي ما بغيت ترجع تخدم" فأجابه بسرعة وحسم "قريب.. قريب إن شاء الله" ومد له يده شاكرا ومودعا قبل أن يخوضا فيما قد يسبب له بعض الحرج.

منحته السياقة العصبية والطريق الوعرة في الخضخضة المتوالية للحافلة متعة ملامسة الجسد اللدن النافر، كانا في شبه خلوة بالمقعدين الخلفيين، فقد انطلقت الحافلة -بالإضافة إليهما- ببضعة مسافرين في المقاعد الأمامية سرعان ما استسلموا للنوم أو للمتابعة الشاردة للطريق، ومنحته هي بحضورها تماسكا واطمئنانا لم يعرفهما للحظة في المرة السابقة. جمعت الحافلة في تيموليلت رجلين وامرأة. دخلوا صاخبين ثم أغواهما هما أيضا الصمت السيد. تنحنح العلالي وبحروف متقطعة أخرج سؤالا دافعه منذ أن سلم عليها "إسمي العلالي، وأنت؟" كانت تمسح الكحل عن طرف عينها اليسرى. فبدا أنها لم تسمعه ولم يعاود السؤال. تعمد في انعطافة حادة للحافلة أن يدفع جسده لملامسة جسدها بقوة. آنذاك داهمته تلك الرائحة الحميمة، ألق نزيف الطين، وشذى صباح الحقول، ائتلاف الخزامى والنعناع والزعتر حين ينتابها شطح النسيم، رائحة الأرض حين تتفجر في جسد انفصامها البعيد. هزته الرائحة كما لو أنه في ذروة جنسية كاملة. تحسسها بقصدية هذه المرة. تناومت، فأخذ بيدها نافذ الصبر. ثم سألها بخشونة وتصميم "إسمك؟" كما لو أن رنة ضحكة صاحبت انفلات يدها من يديه، كما لو أن تقطيبة عتاب صامت التمعت بين عينيها، حولت وجهها عنه. وتركته لاضطرامه، حاول أن يتابع الطريق، لكن إلحاح الرائحة لاحقه فدعاها بضراعة أن تقول له من هي. وببحة أنثوية مثيرة وبصوت يدافعه الضحك قالت له:

- "جارتك... بغلة القبور أو دليلة المحتالة".

حــــرفـــــة الأدب

ابن لـرجل (*لم يستسغ ابدا كلمـة " أب "*) لا يعرفـه، ولأم هدها المرض وأ قعدها وراء خـيوط المنسج في عزلة تامة عن الـعالم . وبين اخوات يمعن في الانشغال بأ زواجهن ، سيعـرف إسماعيل حلاوة وفداحة أن يكون الإ نسان حرا. لم تكن أمه الوحيدة التي يهمها أمره ـ تملك القدرة على فعل أي شيء له. العجز واللامبالاة المنيعة لأخواته تجاهه ، طالما رجتهن أن يعتنين به فينصرفن إلى أزواجهن . ولاتملك إلا أن تصعـده بعيون يائسة تملأ الدموع . كل الأشيـاء الرائعة التي اكتشـفها أو تعلمـها أو تذوق حلاوة طعمـها، كل الخطى التي قـادته إلى الجنان القـريـة وأطلقت العنان لخيالاته وأوهامـه، كل جلده المثير إزاء المرض والألم والغم، وعبوره محـذقا في الوجه البغيض لعالم قـذف فيـه وحـيدا، كـانوا من إنجـازاته الذاتية، فـقـد منحـه العداء الغـامض الأسـباب الذي أحـسه من حـوله وهو بعد يـحبـو قوة ذاتيـة كـبيرة جـعلت الدمـوع تنطفئ في مآقيه والصـراخ يغيض في صـدره. ومنحتـه تلك النظرة الباردة المحـايدة التي يرقب بها الأحـداث بما فيـها التي تتهـدد ذاته. تعلم من برك الماء الآسن، والطين، وميـاه السواقي، وغـيران النمل وأعشـاش الطيور.. وكبر كـزهرة برية لاتدين ببقائها إلا لصـدف رحيمة أعطته بـدل أبوة بيبينو الغـادرة وعـجز أمـه وإعـراض أخـواته وصلف أزواجـهن حنان الأيدي التي انتزعته من يدي بيبينو وأهدته الخبز والحلوى والتقطته من التراب والوحل بل تطوعت فـحـملتـه إلي المركـز الصـحي حين تسـوء أحـوال صـحتـه. عـاش إسماعيل في كنف إحساسي جماعي بتـبني ليس حاجياته الصغيرة فقط بل وجوده في الحـياة نفسـه، فقـد أراد بيبينو أن يهب رأسـه قربانا لذروة شـهوة

عارمة (حسب ما خيل لمنقديه) وشاءت الصدفة أن يهبه قربانا للجماعة التي أنقدته، وبعد أن يجاوز هشاشة الحاجة المطلقة للآخرين سيحس إسماعيل بثقل دين الوجود هذا الذي عليه أن يوفيه بخجله وخفوت صوته وانكسار نظراته وتنكيس رأسه أمام كل من هرع في تلك الليلة نحو عين داي. وجوه مضغوطة بالفاقة والتعب. رمتها ريح المجاعات المتعاقبة وشراهة المعمرين للأراضي نحو المنحدر الزائغ قبالة سور القبيلة. والذي منح الأكواخ المحلقة اختلالا صميميا تتداعى فيه من تلقاء ذاتها كزهرة اكتمل ذبولها، فيذرو أصحابها القش من فوق رؤوسهم ويقيموها من جديد. في الحق يبدو المنحدر بكآبته وروائحه ودخانه وخصوره الضامرة ودجاجه الملحاح الذي يطارد قوته ولو في قلب البراز، والوقت المهراق فيه انتظارا يائسا ومللا، ضربا من التآمر على قبيلة عرفت بالغنى وبترقب الصبح للود بالمزارع..

كان على إسماعيل أن لايتنكر للحظة طافية أبدا في زمنه الخاص. وأن يملأ وجهه بالعرفان لكل العابرين، ويعيش حياته كخصي ذليل يتقصف في مدارات حكاية لم يستطع تذكرها، لكنها امتلكت صلافة الإيحاء بكل تفاصيل الطقس التدنيسي الذي رافق مشهد نحره. الخمر، القيء، ويد الأب ترتعد في نشوة توشك أن تهديه مضرجا في دمائه قربانا لإله غير مكترث وشحيح افتداه بزجاجة خمر...

أزواج الخيبة

بعد أن تذوقا مخاطر الاعتماد على النفس وتهددهما الجوع والإنذار القاسي للمخزني الذي اكتريا منه عش حياتهما الزوجية، عادت زهرة صاغرة إلى النوالة واستسلم الكاتشور لسياط المهانة، وتبعها بعد بضعة أيام من الانتظار ونفاذ الصبر، وقد فلسفت له الحاجة خطوات تنازله المرير. لم يسبق أن وصل بطل إلى المجد والشهرة بدون مصاعب وإحباطات. لقد فهم ذلك منذ أن تفتقت موهبته وتحدد مصيره الرياضي بصرعه وسط محفل عام لرجل سكران. بضعة شهور فقط تكفيه ليحدد في باريس موعد مقابلته مع مصارع يوناني. وستأتي الأوراق والفلوس والاعتبار. لامجال لإضاعة

الوقت، جري في الصباح وطقطقة أصابع اليدين طيلة النهار، أكل جيد ونوم طويل وهادئ. هكذا سيهيئ مقابلته الحاسمة. ومن جهتها حرصت زهرة على توفير ظروف ذلك في النوالة بشذى داخلي كبير، واحتفظت بمظهر وقور ومتعال في سلوكها مع إخوتها، مظهر امرأة قطفت فاكهة جمر الجسد المتقد وسط نساء محرومات.. وهذا ما أغاظ أمينة بالضبط، ودفعها للهرب لبضعة أيام مع فتى فارع القامة، عنيف، وسيء السمعة، عادت بعدها تنتحب وتضعهم أمام الأمر الواقع. تحدثت عن فضائل سرية لزوجها يتجاهلها التحامل العام. وجربت الانتحار بأوراق الدفلى وبدواء البرغوث. حتى تمكنت من انتزاع شهادة حسن سيرة وسلوك لهركيل جلاد الحمير (هذا هو لقبه) دخل بها النوالة، قدم هدية صغيرة للغالية، ولاعب إسماعيل، وتقرب من الكاتشور. جاء في البداية لتفقد أحوال زوجته وأطال الجلوس، وفي المرة الثانية منعته شدة الظلام من الخروج فنام عندهم. وفي المرة الثالثة أقعده مغص عنيف وطال أمر استشفائه ونقاهته حتى نحت موضعه داخل النوالة بشكل لامنازعة فيه. بوجه شوهه الجذري وضربات المطاوي و أظافر البغايا كان هركيل يعترض المارة. فرنكات فقط. الأخبار الموثوقة تقول بأن السيرك على وصول، ستتيسر الأحوال. فرنكات لاغير.. لا غير. سيردها فرنكا فرنكا. ثم يحكي عن مجده القديم، حين اشتغل مع السيرك أثناء مروره الخاطف بالقبيلة جلادا للحمير التي تقتات منها الأسود، وخصوصا عن غرامياته مع راقصة الحبل العارية إلا من شرميطة مذهبة يتألق فيها عريها الفاضح، يحكي عن جحيم القبل والبكاء والعهود، ويتفنن في وصف دراما الفراق، وبقبضة تلوح في الفراغ، ووجه يعتصره الندم كان يردد: "بأية مسامير خفية تبثتنا القبيلة الملعونة داخلها؟" وبما أن السيرك تأخر كثيرا واضطر هركيل جلاد الحمير للعودة مرارا إلى نفس الأيدي التي قرضته في المرة السابقة، فقد انتهى به الأمر وبتواطؤ مع سامعيه إلى التسول بالحكاية إياها وخصوصا لدى الفلاحين الذين ضاعت حميرهم في المرور السابق للسيرك. كان يطمئنهم بأنه لن يمس حميرهم الجديدة بسوء في المرة القادمة. لم يكن هيركيل جلاد الحمير يقل ترفعا وكبرياء عن الكاتشور، لكنهما

بأخلاق ونبالة الفرسان تعودا في الحيز الضيق على احترام أحلام وفخر رغبات بعضهما البعض، ونكاية في زهرة وأمينة وبعد كلمات غزل مقتضبة سمعتها من فمه في عين داي. جاءت رقية بزوجها أيضا إلى النوالة. كانت الإقامة مسألة أيام فقط. فضلا على أن السيد بوقنّوفة لن يرضى أبدا بأن يترك زوجته نهب عيون رجلين لايثق فيهما، فقريبا ستصله أموال إرث أحد أقربائه. كان أطولهم، يبدي تفقهها في كل شيء، ويقاطع كل من تكلم أمامه بدعوى أنه يعرف غيبا ما سيقوله، تعود في جلساته مع الناس أن يبشرهم بالرجل الفذ الذي سيكونه، يضمد الجراح ويفرج الكرب ويأخذ ديونا ويتعاقد مع شركاء وخدم.. لم لا: فمن يمسك الآتي بقبضة يده؟ ومن أغلق أبواب الحلم المشرعة؟ وفي اختناق النوالة بالرؤية الصراعية للمستقبل كما يشكلها الكاتشور وهركيل أدخل السيد بوقنوفة رؤيته الحالمة لمستقبل باذخ وأميري مفرغ من كل منازعة..

نكاية في الجميع، ونكاية في هوس الطول الذي قاد خلجات قلوب أخواتها في الحب، تزوجت عائشة بسي أحمد التحفة، الشهير بالشاعر الحزين، فتى قصير جدا وذميم جدا، أحب فرنسية في صباه، حبا أضاعه في سعي محموم للتماثل مع كل ماهو فرنسي، بحيث أنه شفي من حبه اليائس ولم يشف من النموذج الفرنسي الذي سكنه، يعتمر بيرية ويحجب عينه بنظارات سوداء ويتدبر بدلته مهما تجشم من تضحيات. كانت الفرنسية هي لغة تواصله المحبوبة، ولايتكلم بالعربية إلا اضطرارا. لم تكن تفارق يده رواية "التربية العاطفية" لفلوبير، فالنقص الذي يقرفه في المجادلات العقيمة للمثقفين المحليين هو عماهم عن الأهمية الحاسمة للجانب العاطفي في تكوين النشء، مما جعله في الأخير يعتزلهم. كان يعبر الحواري شامخا بوجهه ينشد قصائده للغرباء فقط، ويقاطع من لايعرف قدره ومن لاينادي عليه بالتحفة. فهو ولافخر، يعتقد أن زمن القبيلة لم يجد بمثله، تعرفت عليه عائشة في أيام كان يبحث فيها عن عذاب ملهمة يستكتبه قصائد رجته عدة مجلات باريزية أن يبعثها لها. ولأن الشرارة التي قدحتا عائشة بمرورها

أمامه خلقت قصيدة لن تكتمل إلا بوجودها قربه، فقد لاحقها وعرض عليها الصداقة ثم العلاقة الغرامية ثم الزواج، قبل أن يلتحق بها في النوالة أوقات الأكل والنوم فقط، ثم ينصرف إلى مخاضه الصعب حتى يفرج الشعر شدتها...

كانت الغالية ترقب بمرارة جنون بناتها وهن يجمعن كل خيبات القبيلة داخل نوالتها. وترقب صفاقة وجسارة أزواجهن وهم يحرسون حقوق زوجاتهم التي ليست أكثر من بضعة قصديرات وشراويط بالية. وبوازع من هذه المرارة بالذات اختارت منفاها وراء خيوط المنسج، تأكل وتنام وتقضي حاجتها في طست هناك. كانت تكره اللحظات التي يكون فيها الهدون والحايك في بدايته، مما يمكنها من رؤية الوجوه الممقوتة لأزواج بناتها. تستعجل مرور هذه اللحظات بخبط محموم للخلالة في يدها، فتنمي النسيج بسرعة وهي في الحق تنمي جدار عزلتها عما يجري بقربها. في أوقات ضيقها العصيب كانت تستنفر كل طاقة قلبها على المسامحة والغفران، لتتوهم مجيء بيبينو في هيئة وهالة المخلص، تحجب كل نقائصه التي لا تحصى بفضيلة واحدة، ظل الرجل الذي سيوفره لها، منذ أن أخذ إسماعيل إلى عين داي ليذبحه لم يصل النوالة. كانت تسمع عنه أخبارا لفرط ما تكررت لم يعد قلبها يقدر على تصديقها. كان أبدا سكرانا مبهذلا وسمجا تلفحه شمس الهجير ويدثره غبار الحواري، يضرب في متاهات القبيلة طالبا شيئا لايعرف كنهه إلا وهو...

عند السياج القاسي:

وقف مشدوها، أشارت يد "أبوك.. أبوك" ثم شردت في متابعة الخيل وهي تتشرب الريح وترفس المدى بقوائم من غبار. كان على إسماعيل أن يتبينه بين أمواج فرنسان ينفثون وجدهم المكبوت في خيوط بارود رفيعة، بين رجال في الخيام يهللون أو يتأففون، بين الصهيل والانخطافات السريعة وسحب الغبار والطلقات السديدة أو الطائشة والزغاريد. يقاوم تلاطم الأجساد القوية بجسده الصغير، ويتقدم لاهثا حتى يوقفه السياج، يشبك

فيـه يديه الصغيرتين. وبعينين يملأهمـا الشوق والحنين يتـابع وجوه الفـرسان المهيبة، التواقـة لامتداد في الضـياء. أين هو؟ ماأن تتـعلق عينه بأحـد الوجوه حتى تهـجره لآخـر. كـان يفتقـد بسـرعة رعـشـة نداء الدم وبريق الشـوق الملتـاع... ولو ترجلت عـينه من سمـوق بذخ الفـرسان فـوق الخيل وسـارت بعـيدا عن المطـلق إلى هناك حيث يقف في رأس المضمـار رجـال كالحـون ومعفرون بالتراب يحشون بلا كلل البنادق الفارغة بالبارود. لو سرحت عينه إلى هناك لرأى بيبينو يزاحم باقي الفقراء من أجل تلقف بندقيـة فارغة. لكنه لم يفعل، وعنـد المغيب عـاد منكسـرا إلى النـوالة، وحـدث أمـه عن رؤيتـه الخاطفـة لأبيه وسط الفرسان فـحضنته وبكت. ليلتهـا سيحلم به إسمـاعيل. كـان فوق حـصـان أبيض يتقطـر وجهـه حيـوية وبهـاء. يدير حـربا خاطفـة ومظفرة ضـد أزواج أخواته، ينجـو منها سي أحـمد التـحفة فـقط. فبـسبب رهافتـه وإمعـانه في التصـرف معه ومع أمـه بلياقـة أو بسبب ضـعفـه الشديد بالمقـارنة مع باقي أزواج أخواته، ظل إسـماعيل يكن له أحاسيس إعـجاب وتقدير خاصين، إلى درجة أنه كان ينتظر مجيئه إلى النوالة بشغف كبير. بل يمكن القـول أن التأثير الأول في حـياة إسـماعيل كـان هو من ورائه. يدخل النوالة ببسـمة عريـضة يحيي الجـميع بحركـة من يده ثم يسيـر باتجاه المنسج ينحني على يد الغـالية يلثمـها "احتـراماتي مدام"، ثـم يقبل إسمـاعيل "أهلا برجال المستـقبل". بعد ذلك يسير نـحو الصندوق الخشبي حيث حـاجياته، يفتحه ويضع كتاب "التربية العاطفيـة" فيه بخشوع وابتهال. لم يكن يغضبه شيء أكثـر من أن يمس كتـاب حياته الأثـير بسوء. في أحـد الأيام استـشاط الكاتشور غضبا، كان يتصرف في النوالة بشرعية قيدوم الأزاوج. وقال لسي أحمد بأنه أدمى قلوبهم بتقديسه لتلك الأوراق، ألم تكفه كل هذه السنوات ليـقـرأه فـيـريح ويسـتريح؟ تشنج سي أحـمـد. وكان عـزاؤه الوحـيـد أمـام الإهانات. كمـا سيكرر دائما هو أن بعض الرجال كـالأفكار تماما يأتون في غيـر أوانهم. انسحب بعد أن أخـرج الكتاب من الصندوق والدمـوع تتزاحم في عينه: "تحـياتي". سيتـبين إسماعـيل في لحظات موغلة في المسـتقبل حين يستـحضـر كل الأفكار التي حفظهـا عن ظهر قلـب من فم الشاعـر الحزين،

وبشفقة بالغة بأنه لم يقرأ ولو سطرا واحدا من رواية فلوبير. وأن معرفته بالفرنسية لم تكن تزيد عن بضع كلمات يحفظها بطريقة سيئة، لكنه بالمقابل يقر له، بأن أجمل قصائده تلك التي لم يتمكن من الصدع بها. كانت بداخله تملي عليه إيقاع حياته. كما أن أجمل أفكاره ليست تلك التي يقدمها في نقاشاته، وإنما تلك التي تسقط سهوا من فمه...

بعد الشاعر الحزين، وقبل أن يتلقفه يونس الرواندي، سيفتح حسن الردار مجرى للأهواء والعذاب في قلب إسماعيل الصغير، فتى في العشرين طعن بيتم قديم خرب حياته قبل أن يفقه الظلام الذي قدف فيه، اكتشف فضائل البطالة، وصار يتباهى بها، وبالتواطؤ الغريب للظروف اليومية التي تمنحه كل ما يحتاجه. كان ذلك قبل أن تتفتق قدرته النبوئية من قلب غموضه الصامت، فيتنافس الناس على إرضائه، بداية حذر امرأة كانت تبسط فوق حصير قمحها المبلل لتجففه الشمس: "بعد قليل سيسقط المطر" رفعت المرأة رأسها إلى السماء الناصعة الزرقة وابتسمت بشفقة حانية. لكن السماء تغممت في لمح البصر وبددت القطرات الثقيلة سريعا القمح وبسمة الشك التي قوبل بها، ثم صار حسن ينثر نبوءاته هنا وهناك، يفك سر المستقبل المرتسم في الحاضر، وينطق الزمن الأبكم، ويبسط الأحداث القادمة. كما تبسط الحروف العصية. وذات صباح قال لمسيو لافو الذي يجمع الأطفال في شاحنته ليقايض تعب نهار بمتعة الركوب الخرافي فوق إعجاز الحديد "ستنفجر هذه العجلة" وأشار نحوها. جمع مسيو لافو ضحايا مصيدته المتحركة وسار ليعود بعد ساعة ليحذق في وجه حسن بعيون حجرها الهلع: "لست إنسانا بل ردارا". من يومها كاد الناس أن ينسوا إسمه الحقيقي. ولم يعودوا ينادون عليه إلا بالردار. تقرب منه إسماعيل بتقديم خدمات صغيرة له في البداية، ثم بمؤانسته في ساعات عزلته المديدة، يجلس طيعا بين راحتيه، يتقاسم معه الطعام والأحلام وشرنقة الرهبة التي نسجها الناس من حوله. كان مثله، جذوره ضاربة في الغموض، لا أب ولا سلالة تتعقبه وترهن خطواته، يبهره المجهول الرابض في ثناياه، فحيث يقف الناس

عـاجـزين أمـام جدار الـراهن، كـانت له هو عين في أقـاصي القـادم ويد في العدم، كـان أعمى عن طريقه هو لـكن ومضات خـاطفة تفضي له مـفاصل في طرق الآخرين، قال لإسماعيل "ستتعب كثيرا" وحضنه وبكى. لم يقدر الصغـير فـداحة مـصيره ولم يـعد الرادار أبدا لإضاءة ظـلمة مسـربه الطويل. يمشي ويمشي في أثره. يتـدبران قطعة صـابون ليغسـلا ثيابهـما في مـياه عين داي، يدليان أرجلهما من على الجدار ويستمتعان بالجماع الصاخب القاسي والوحشي للحمـير في فَنْدَقِ البهائم القريب من السـوق. يشاهدان الحلاقي. أو يذرعان زنقة الحناجرة جيئة وذهابا، وهما يضبطان بمتعة طفولية لم تهتك براءتها بعد لوعـة الجنس سلم تنقيط للعاهرات، يبدأ من الساق حـتى الشعر. وينتظران اللحظة الـتي يحرر فـيهـا مسـيـو برينو صاحب مكـتبـة "لليبـرتي" سيجارته الفخـمة من يده ليهربا ما بقي فيها من دخـان في صدريهما.. لقد علم الردار إسـمـاعـيل هذه الحـيـاة الهـادئة الخـفـيـفـة التي جـوهرها الدعـة ومحيطها السير في الطرقات. والحلم بالأشياء البعيدة، ورؤية الأشياء المتناثرة بغير شهوة امـتلاك. وحرر كل مجرى حياته القادمـة من كل الآلام العقيمة للغرور والرغبة في الظهـور، ومنحه غمر الإحساس بحرية متـواصلة ومتمنعة عن كل احتواء...

ذات صباح وبحـركة بدت لإسماعيل غـادرة، سيدفعه الردار للاغـتسال في مـياه العين وسـيـأخذه إلى المدرسـة المحمـدية الحـرة، سيـؤدي عنه واجب التسـجيل، وسيشـيعه حتى باب القـسم بعد أن سلمه لوحـة وطباشير ودفـترا صـغيـرا. في الغد جـرب إسمـاعيل نسـيان تـعريجتـه الخـاطفة على اخـتناق الحـجرة وتبـجح المعلم، لكن الردار صـده بعنفه وسـحـبه سـحبـا إلى هناك، وحين هم بالدخول إلى الفصل سيشيعه إسمـاعيل بعينين تجللهما مسحة من الحزن والغمـوض تماما كعيـون الشهداء، نظرة ضائعة، تتـقصى الدافع الذي جعله يضحي به هكذا لشظف الحروف وقسوة المعلم وكآبة النظام...

خبــــر:

(قرب قبة سيدي عبد الحليم وبإمكانات تذوب خجلا وحرجا في تأمين مستلزمات كأس شاي وقرطاس شمع للإجتماعات الليلية والسرية داخل الكهوف المظلمة، استطاع الوطنيون أن يبنوا بيتين سيسمونهما المدرسة المحمدية الحرة، وبإصرار كان يبدو يائسا دخلت المدرسة صراعا مع المدرسة المختلطة لليهود والنصارى، بكل بذخها وهالتها وهدوئها، بأطفالها المنهكين بالنظام الصارم والنظافة، بشجر اللبلاب الظليل وأزهار حديقة المدير التي لاتموت، بزليج الأقسام الداكن والنوافذ الواسعة المشرعة في وجه رحمة الله، بأناقة معلميها وحذلقتهم وقدرتهم على ابتزاز الاحترام المشبع بالرهبة، بمراحيضها الطاهرة، والأمهات الواقفات أمام الباب الكبير يمضغن الكلام في انتظار شهقة السعادة الغامرة المصاحبة لرنين الجرس والخروج المظفر للصغار... كان صراعا عابثا، دخلته المدرسة الحرة بالمكابرة وحدها، لتفتح بالقلب وحده مسارا في درب الحرية الطويل وما عدا ذلك كان كل شيء هشا ومرتجلا. الحيطان العارية المدبية، الحصر القديمة الواهية والمعلمون الفقهاء الطيبون في قسوتهم، الذين دخلوا عالم البيداغوجية بالعصا الطويلة والقدرة على إشعال الصخب، والألف ما ينقط، والباء نقطة من تحت، بجلاليبهم البيضاء المعفرة بالتراب وبقع الزيت، وجديتهم التي لاغبار عليها. والأطفال نهب القذى والقمل والبرغوث والجوع والعري والأمراض المعروفة وغير المعروفة. الأطفال الذين لأحد ينتظرهم أمام الباب. ولم يكن هناك باب بالمدرسة، فقط سياج من القصب أسقطه الأطفال برذاذ بولهم).

الحب بالفصحى والعامية

جرت النظرة الأولى والحاسمة في زنقة العطارة. تواجها في الحيز الضيق، وبعد لحظات تردد أفسح يونس بكياسة المجال لتمر، وبحركات بطيئة، جذلى. وببسمة حاذقة موحية ونظرة تدعو ببذاءة إلى اقتفاء أثر لن يخيب، مرت أمامه. سارت تتهادى بعجيزتها الممتلئة، السخية. كالومض، أحس يونس الرواندي بأنه جسد غير قابل للتخزين في صورة، حلم، انخطاف يثمر في عتمة الليالي. سار يتنحنح وراءها ويكح لكنها مضت غير مكترثة بالإشارات المرسلة حثيثا خلفها. دخلت دارا بزنقة الحطابة وبعد قليل أطلت من الباب وقد تحررت من الإزار، تنهدت طويلا وبادلتها مسرورا تأوهات دعوة ملتهبة، ثم انسحبت...

في بضع ليالي سيراجع يونس قلبه ليتأكد من أن الأمر لايتعلق بنزوة أو طيش شبابي عابر. وسيدافع نفسه لكي لا تنقاد خطاه يوميا إلى هناك. كان يحتاج لكثير من الجسارة حتى يغير مسار نزهته المسائية المعتادة، في البداية تظاهر بابتياع حاجة، بالبحث عن شخص أو شيء ضاع في الطريق. وحين استنفذ كل التعلات الممكنة، صار يمر قلقا زائغ البصر يثبته في أبواب لاتعنيه. ويمرره خاطفا حول باب قصده، وينوء تحت صدعه الآسر. كان يحتاج بعض الوقت لتجلل يقظة عين القبيلة التي تتفرس حركات الأيدي والحواجب وتتقرى الخطوات بخدر العادة والتكرار، لذا كانت أولى رهانات يونس في حبه الذي لايمكن تلافيه، هو أن لاتلوكه الألسن وتتفكه بمحنته الجديدة المجالس، سيفكر -ومن وجهة نظر تكتيكية بحتة- في إيجاد موقع قار داخل الزنقة يسوقه إليه كل مساء هدف معروف للجميع، وبقدر مايقوم

الموقع بدور تضليلي سيمكنه أيضا من محاصرة تجليات المحبوب والشروع في مقدمات المراودة. فكر في المسجد القريب. وصرف النظر سريعا إذ دونه معركة وحجاج وسباب مع فقيهه، لن تسعف يونس أعصابه للإقدام عليها. وفكر في كراء أو شراء دار بالزنقة، وبدا له الأمر إسرافا لامبرر له، سيرجئه إلى أن تضطره الظروف للتفكير مرة أخرى فيه. كد ذهنه حتى وهبته لحظة رحيمة مشهد أحد تلامذته وهو يقبل يد بقال الزنقة، ويجلس وراء تلال الحناء والتمر والشريحة والحمص، استفسره في الصباح فعلم أن البقال والده، فهب -بمجرد الخروج- إلى الحانوت غاضبا ومط شفتيه ونفخ أوداجه، فالتلميذ رغم جهوده مازال يتعثر في الأبجدية ولايفقه الحساب ويتكرفس على القرآن المجيد. وليس من وصفة لمعالجة فقر ذاكرته إلا أن يتفضل هو رغم ضيق وقته الثمين بإعطائه دروس دعم وتقوية سيرتجلها -مادامت الظروف تضطره لذلك- بجانب الحانوت. وفي كل مساء صار يونس يجد في انتظاره بجانب الحانوت كرسيا فارغا وكأس شاي وتلميذا معذبا. يهب بقرفصته المحكمة وحيائه وانتباهه المتجدد بتجدد اهتمام معلمه الشارد به المشهد ملمحا جديا لو تحكم يونس في تراقص حاجبيه واحمرار وجنتيه ولخبطته في الكلام حين تطل من الباب لتذيبه بومضة جمال تملك في كل تجل سر إعادة ابتكاره من جديد. بسمة، حركة، آهة. إشارات تزداد جرأة وافتضاحا تعبر رأس التلميذ الذي فطن للسبب الذي يجعل صرامة المعلم تخونه، فصار يخرج بعض طيشه في تواتر لحظات الغفلة والتوهيم. لكن وبعد نهر جار من التوسلات والدعوات المرسلة على بعد، لم تنجح هيئة يونس المعذبة إلا في ابتزاز إطلالاتها بالمظهر المعجز نفسه، لتمن على الحارة بنظرة فاترة حزينة وأنفاس مكروبة ثم تنسحب، ينصرف ولاشيء يدعوه للشك في أن النظرة العابرة والفارغة التي تمن عليه بها هي من صنيع الحياء والذلال وأنها تمارس نفس التضليل اليقظ الذي يقوم به تجاه فضول الناس. سار وراءها مرات عديدة قضت فيها حاجات وتلكأت طويلا في الطريق، لكنه يحتفظ بالمسافة ذاتها التي تفصله عنها، يرتب كلمات ناعمة ويعيد ترتيبها من جديد ويمنعه خجل مزمن من الاقتراب منها. وبعد أن

تدخل الدار يتـذرع لنفـسه بالظروف غـيـر المواتيـة، يمنيهـا بالسـعادة الآتيـة، لاريب، والتي كـان سيفـسـدها عليـه التعـجل وقلة الصـبـر. لم تنضج تِينَتَهُ المحبوبة بعد. حتى أنه وبعد شـهور ظل حبه يراوح في نفس الخجل والزفرات والنظرات الضـارعة إلى أن صـادف -بتـواطؤ عجـيب للمـدرسة مع همـوم قلبه- أحد تلامذته في رفـقة محبوبته. كانا يبتـاعان الصوف، لم يجرؤ على السـير وراءها خـوفا من أن يثير غـضبـها. وفي الصـباح، أثنى على اجـتهـاد إسماعيل الكازاوي رغم أنه التحق بالفصل مـتأخرا. وقال بأنه فخور به جدا جدا، ودعـاه لمرافقتـه بعد الحصـة، اشترى له الحلـوى، وقال له بأنه رآه أمس رفقة فـتاة لم يعرفهـا، وشدد على الكلمة الأخيـرة، فاستجـاب الطفل بنباهة وأخبـره بأنها حليمـة بنت المباركيـة صديقة أمـه، وهو يمر عليها كل أسـبوع لتساعده في شـراء الخيط لمنسج أمه التي لا تثق في أخواته وأزواجهن فتـبعثه هو. إن الطفل الذي تصوره يونس -في البداية- ساذجا وبريئا استطاع وبعد أيام من رفـقتـهمـا أن يفهـمهـا طائرة. إذ كـان يحلو ليونس في كل مـرة أن يستدرجه بل يكرهه بإلحاحه للحديث عن حليمة، ولما كانت معلوماته عنها فقـيرة إزاء شره مـعلمه للأخـبار فقـد أخذ يختلق من نفسه حكـايات عنها وعن أمـهـا، يؤجج اسـتـرسـالها نـظرات يونس المضـاءة بتلذذ يصل حـدود الانتشاء. بل إنه وبدربة شيطانيـة كان يفهم تلميحات ورموز مـعلمه المحمومة بهدف تهـيئـته للقيـام بدور "مرسـول الحب" فيتـلافى سهامـها دافـعا يونس لاختناقات حرج لم يـفلح في تجاوزها رغم أن الطفل حر وطوع يده، بل إنه اختبر فـيه فضيلة التكتم اللازمة لمثل تلك المهام. كان في أعـماقه يخشى أن يضـيع الصـفة النادرة لهـذا الإحـسـاس الجديد الذي اجـتـاحه، إنـه يخصـه لوحده، سري، صامت، غـير مقروء، يهبه سعـادة مغطاة عن فضول الناس. إحساس عميق يتغذى من اللهفة والعذاب، وهبة الظهور المعجز للمحبوب، والقلق اللذيذ، الذي يتعذر سبره وتفهمه ولو بقلب بريء كقلب إسماعيل..

كانت فـرصة لاتعوض، فـقد هرع إسمـاعيل نحـوه وأخبره بأنهـا أعطته نقـودا ليـشـتري لهـا مـجـدولا من الحـرير. اجـتذبتـه الفكرة بـقوة لاسـبـيل

لمقاومتها. فسار متشامخا في الظاهر، يعتصر يد الصبي في يده من القلق التاوي في قرارة نفسه. انتقى له أجمل مجدول عند العطارة، ثم اختلى به في الدار فكر في أن يرفقه بالكلمة التالية "وددت لو وهبت روحي خيطا لأناملك الرقيقة" وبدت له العبارة مائعة. متسرعة، غير مزهوة بذاتها بلاغيا، مفتقدة للنبرة الملائمة ولاتفي بالأثر المزلزل الذي يتوخاه منها، ثم إنها -وهذا هو الأهم- لاتقدم صورة مهيبة عنه، تفرس في بعض كتبه وسجل الأبيات التالية:

"قلت لخود كاعب عطبول

مياسة كالظبية الخذول

ترنو بعين شاذن كحيل

هل لك في محملج مفتول؟"

شرح لإسماعيل النص كلمة كلمة، وشدد بالخصوص على محملج التي تعني "تعني ماذا؟ الخيط"، ثم أمره بتهجيه حتى طاع في فمه، وحفظه كلمة كلمة، وساعده على تفخيم الحروف حين النطق بها، ولقنه الحركة الاستعراضية التي سيقوم بها حين ينشد الأبيات ويرد لها النقود قائلا بصوت رقيق خافت بأن المجدول هدية من معلمه. ثم أعطاه فرنكا وقبله في جبينه. باستثناء النقود التي تركها إسماعيل في جيبه فقد أدى بأمانة وشفافية مرهفة كل مالقنه له يونس، وسمع حليمة وهي تسبه "الله ايحملج ليه الراس"، ثم أمها وهي تسألها عنه فتجيبها" ذَاكْ الأَصْفَرْ الأعْوَجْ اللِّي تَيقْعُدْ فَ الحَانُوتْ وتَيرقَصْ لِيَّ حْوَاجبُو". لكنه امتلك حكمة عدم تبليغ ذلك لمعلمه، بل إنه تفهم حاجات قلبه فاختلق وصف بسمة أزهرت في وجه حليمة المحتفي بالهدية، بما أن يونس سيرسله مرات عديدة محملا بهدايا متنوعة وأبيات شعر صلدة وغامضة لم تواتي الشجاعة إسماعيل ليقول له بأنها تعرقل مسعاه إلى قلب حليمة إذ تستثير غضبها وسبابها البذيء حتى أنه أخذ يبقيها في صدره، وبما أنه وبأداء خدمات خاصة وعديدة لحليمة وأمها تمكن

من أن يصبح من أهل الدار، فقد طور قدرته على الإنشاء والخيال في الطرق المتعرجة للأهواء، وتفنن في وصف الحركات والكلمات المترعة بالوله وابتدع الحكايات المفحمة للمحبوبة التي تتلهف لقاء الحبيب ولاتستطيع، وتمكن من أن يبقى يونس ولشهور أسير دثار عذوبة الكلمات دون أن يعرضه للصدأ أو الكلل. ولكي يترصد أحسن عش الزنابير حرر نفسه من إكراهات الفصل، يذهب متى يشاء، ويتغيب متى يشاء، كان يترع في البراءة التي افترضاها فيه فيتكلما أمامه بلا تحفظ. ويتعهد حلم معلمه وسط دار مقفر لا يطبخ فيها إلا الباذنجال والطماطم والفلفل، دار تستوطنها البذاءة والفجاجة والتفاهة، يبصم حبا في صدر حجري، ويؤثث ألقا عذبا في قلب الجحود، ويتابع هدفا يائسا، إذ جاهرت حليمة أمامه بأن معلمه لايسوى زغبة واحدة في شارب الجزائري الذي تهواه، وكانت أمها أكثر رحمة إذ استحثتها على منحه من حين لآخر بسمة أو حركة تبقيه في مدخر الإحتياط إن أخلف الجزائري عهوده، ثم مسدت جدائل شعرها واستغرقت في ضحكة ذات فحيح شيطاني. كانت إذا وقفة المساء والآهات المعذبة والنظرات السخية التي تلتهم الحارة، والهيئة القلقة المتبرمة والضارعة لرجل آخر غير معلمه. ولم يحزن ذلك إسماعيل فقط بل ملأه كراهية لحليمة ونازع رغبة في بسط الحقيقة أمام يونس، لو لم تريه بإستثارة تلذذ غريب آثار الضرب الذي وجهه لها الجزائري أمس. فأيقن أنه لو كان يحبها لما فعل ذلك، وآثر أن يترك للظروف ولغضب وعنف الجزائري مهمة إعداد خاتمة سعيدة لعذاب معلمه..

ذات مساء، وبما أن الحياة تختص قصص الحب بملح الإنقلابات المفاجئة والمشوقة، وعلى إثر عودة خائبة ونوبة هياج وعويل طلبت منه بكلمات متعثرة وسط اختناقات بكاء أن يدعو معلمه ليزورهم متى شاء. طار إسماعيل بالخبر قبل أن تتراجع. لم يكن يملك لقلب معلمه أكثر من هذه الهبة، لم يبك يونس رغم أن بضعة دمعات أبرقت في نظراته وأوشكت أن تتدلى من الجفون، لو لم يتداركها الكبرياء ويكفكفها، فاكتفى في حميا

الفرح المباغث بإحتضان إسماعيل، كانت شهور الرعشة والسهر والبوح الأخرس والأحلام العطشى تفك أستارها وتولي، حاول أن يسيطر على توتره بالتأكد أولا بأنه لايحلم. فدعا إسماعيل بإيماءة أن يعيد الخبر وطلب تفاصيل أكثر، كان يريد كلاما نقيا مغسولا من الشك ونزق الأطفال، ثم هل سيسير إلى الدار بتكتم وتسلل العاشق أم بوضوح الخاطب على سنة الله ورسوله؟ لم يستطع إسماعيل أن يمنحه جوابا حاسما فاضطر إلى العودة إلى الدار لاستقصاء الأمر. كانت تريد المعقول بلا بهرجة. وفي الغد ستكون الزيارة للتعارف وقراءة الفاتحة فقط، لذلك لاداعي أن يستصحب المعلم معه أحدا. لم يعرف يونس النوم طيلة الليل، انتابته الهواجس والشكوك، سار إلى الحمام في الصباح. وحين خرج عرج على زنقة القصب واشترى جلبابا وبلغة وطربوشا، كان يمسك بناصية حركاته بصعوبة من تأثير التوتر والإنفعال، وبقدر ما يقترب المساء كان وشاح من الصفرة المتقعة يجلل وجهه حتى أنه سيسير إلى الدار في هيئة صنم مفرغ من الدم والحيوية وبهجة الحواس. وجد المباركية في انتظاره فوق حصير فظ تعاون هو والرطوبة ورائحة العفن ووجه المرأة القاسي على دفع دفق من الخوف والشك في جسد يونس، وفيما كان يحملق في يدها المعروقة وبسمتها المتخابثة وفمها المرتجف بكلمات ترحيب مصطنع يسمعها بالكاد، خرجت حليمة وسلمت عليه بأطراف أصابعها وانسحبت. ورغم أن تجلي المحبوبة منحه لحظة اطمئنان في تفاقم قلقه فإن نظرات المباركية اللماعة بتوقد يسهب في سبر أغواره، أبقته مجمعا على نفسه فزعا ومفعما بالإنتظار والصمت البئيس. وبعد شرب كأس شاي لطف قليلا جفاف حلقه، أجاب على سيل من الأسئلة المتعلقة وضوحا وتورية بوضعه المادي، وخرج فرحا بصفاء ونقاوة هبات نسائم الأصيل وبالدعوة المفتوحة لزيارة الدار متى شاء. كان يملك كل الأعذار لتفسير أعراض حليمة عنه، فاكتفى وبحسن نية بعذر الحشمة فقط، حتى أنه وبتكرار نفس المعاملة في زياراته المتوالية، لم يكن يكبت شكوكه إلا بالسبب نفسه، كانت تمد له بأبهة أميرية نفس الأصابع وتنسحب لتدعه وجها لوجه مع أسئلة المباركية التي لانهاية لها، بل إنها

صارت تتغيب عن الدار في أوقات زيارته وتترك لأمها حرج تبرير ذلك. وحده إسماعيل كان يعرف بأنه في الوقت الذي كان فيه يونس يكره نفسه على مجالسة المباركية وتصديق أعذارها وحكاياتها، كانت حليمة في أحضان الجزائري تتذوق حلاوة الغيرة حين تستثار في صدور الرجال...

محصنا بصبر لاينفذ ومسلحا بعامل الزمن الذي كان يتصوره إلى جانبه، وبعد أن ذابت الوحشة التي ينبتها في صدره وجه المباركية المبقع كرمانة فاسدة، صار يونس يتحرر من رصانته ويقبل على مبادلتها بعض المباهج الصغيرة كالمُلَحِ والحكايات الساخرة وبعض أخبار القبيلة، ودفعها للبوح بكل المرارات التي تقاسيها منذ أن ترملت، واستمع لنصائحها بشأن الأشياء الكفيلة بإستمالة قلب بنتها نحوه، من أنواع الهدايا الفادحة الكلفة، مرورا بالكلام الحلو وصولا إلى ضرورة تخلصه العاجل من شيطان الفصاحة الذي يتملكه. يجب أن يكلمها بكلام تفهمه لا بألغاز. ونظرا لأن الناس تكلموا كثيرا حول بيت السوء والمهازل الذي رهن فيه يونس قلبه وشرفه، وعمد السيد المدير إلى مقاطعته، وصارت قهقهات فاجرة تتعقب خطاه، لم يكن مستعدا فقط -وقد استثيرت حماسته المعهودة وروح التحدي فيه- للتخلي عن الفصاحة في كلامه، بل وأيضا عن الشرنقة المملة والمتصنعة للنخبة وأعرافها الفاسدة. سينصت لنبض الجماهير والزخم الحي لجذور الشعب. هناك في المزارع والأعراس والمآتم والبيادر ومعاصر الزيتون ورحي الماء، في حلقات العيطة وأحيدوس والطقطوقة وأحواش، في مزارات الصالحين والمواسم والمقابر، ترتفع هادرة هامسة الحقائق المتعهدة بالنضح المر للشقاء، ثمة في الحارات الكئيبة والدواوير الخانقة والأنهار الميتة والأشجار التي هدها الحر والسهوب الرمادية ترن بهجة الحياة كنجمة صباح... كانوا متجهمين، يتداولون كلاما خافتا، تصله منه وشوشة محتدة، وحين يحذقون في وجهه يفعلون بنبرة وعيد. كانوا يريدون أن ينهوا الأمر بأسرع ما يمكن. تنحنح كبيرهم، وأذن له بالحديث:

قال: تريدون الحركة شمسا باهرة

قالوا: وهي كذلك

قال: المطلوب منا أن لانرى شيئا وأن لانبدي رأيا

قالوا: المطلوب منك الحركة والعمل فقط وعدم الخوض في مالا يعنيك

قال: إنكم ترهنون حريتنا في تراتبيات وتعليمات ومكاتب ولجن

قالوا: الفوضى لاتجلب الإستقلال

قال: حين دخل الإستعمار كان عليه أن يحارب شبرا شبرا قبيلة قبيلة..

قالوا: تلك مرحلة مضت، لكل مرحلة من المقاومة مستلزماتها..

قال: كانت المقاومة عفوية شاملة وطويلة النفس

قالوا: والآن منظمة ومدروسة وموجهة..

قال: لايحتاج الشعب إلى دروس ليقاوم

قالوا: تكلم عن نفسك فقط

قال: يبدو لكم الشعب قاصرا

قالوا: نحن نحارب فيه التخلف

قال: يبدو لكم كل شيء فيه ناقصا وعفنا ومنحرفا

قالوا: هناك أشياء كثيرة من مخلفات الإنحطاط

قال: تبدعون للشعب يتما قاسيا وتدفعونه للبحث عن نفسه في مرايا الكتب والخطب والبلاغات..

قالوا: نريد أن نبعث مقومات شخصيته الحقيقية والتاريخية.

قال: بتنكركم لغناه وتعدده، ترون في الثقافة الشعبية فولكلورا، وفي الدارجة كلاما سوقيا، وفي عاداته وتقاليده انحرافا، تريدون شعبا من كتاكيت تفقس البيض عليها لتوها، وهوية من عجين طوع أيديكم

قالوا: إنك تتنكر لتاريخ الحركة الوطنية..

قال: ومن يجرؤ على ذلك؟ أتنكر لتاريخ تكتبه النخبة وتمليه المصالح والأهواء

قالوا: أنت خائن

قال: لنخبة تبحث عن تسوية. نعم

قالوا: أنت كافر

قال: بمشروع أعرج، ينشد استقلالا سيضيع..

قال كبيرهم: خذوه..

تحيط به عصبة هائجة، يعلو الصياح "إلى المحرقة.. إلى المحرقة" يدفعونه يتشبت بشرفات النوافذ فتخونه، بأغصان الأشجار فتفر منه، بالغيم فيتبرأ منه، يتحين فرصة يغافل فيها السيل الذي يغمره ليهرب فلا تأتي. يحاول الصراخ فيغيض صوته في صدره، كانت الجدران مضرجة بالعيون الحمراء النهمة، والدروب تستنفر تحت الأقدام غبارا رماديا، وفوق على خاصرة الجبل اتكأت الشمس في برودة حياد ساحق، لاحت طلائع المحرقة، ألسنة نار تتنابح في الجهات الأربع، نار بيضاء تدمي البصر، ورجال أقزام ينقلون أسرابا أسرابا الحطب من الجبل، ويلقون به في لجة النار بتلذذ غامض، دفعوه، يتشبت بأخاديد أعماقه، فيخرج صوته هذه المرة هادرا "العبوا الكرة.. العبوا الكرة" يستوي فوق النار، يدب اللهب في أهذاب جبته البيضاء ولايصل جسده. يتأجج حماس الأقزام في نقل الحطب. يبسط يديه نحو السماء، فتندفع من جهة واحدة جموع محتدة ومسلحة بالهراوات والحجر والمناجل. تتعهد حليمة فوق الأكتاف، وتردد وراءها الشعارات، وتنفث غضبا مقوضا، يسحق الأقزام تحت الأقدام، ويسقط الدعامات التي تفصل الناس عن النار، ويمد سواعد مفتولة تنتشله من قلب النار... تغيب عن المدرسة، كان يحس بصداع في رأسه، وبفتور غريب في باقي أعضائه.

ولما حـان موعـد الزيارة تحـامل على نفسـه ولبس ثيابه، وجـرجـر خطاه إلى هناك. كـان يريد أن يرسي شراع حـبه المتـعب في شاطئ آمن، سيطلب من المبار كيـة أن تحسم أمره مع حبيـبته المنشغلة أبدا بحـاجة ما في وقت زيارته. رتب كلمات لن يملك الشجاعة ليتفوه بهـا، وجد المبار كية لوحدها كالعادة وقد جاءت لتـوها من الحمام، صعدته بوجه سلخ بمدية الماء السـاخن وعيون ممحيـة، كـانت تشكو هـي الأخرى مـن تعب ودوخـة، وكـان قلبـهـا يرف كجنـاح طائر ذبيح، دعتـه ليتـأكد من السـعار المختلـج في صدرها فـمد يدا مترددة، خجولة، مرتجفة، أخذتها بيـدها ووضعتها مباشرة في المجرى الجاف الذي يفصل ثدييها الرخوين المتهدلين كفلفل بلدي، حاول أن يستلها لكنها كانت مصرة على الإحتفـاظ بها، بل بدت أكثر إصرارا على ذلك في الأيام التالية، تتصنع نفس العياء، وتقول له "في يديك البركة". كان محرجا يهب يده قـربانا لطقس غامص، ويـستـعيـذ بالله من الشـيطان الذي أودع بلسمـا غـريبا في يده. ذات مـساء لم تقنع المبـاركـية بهـبة اليـد الباردة فـوق حيـاد الثياب، ففـتحت عراوي الدفينة ودستهـا مباشرة في التجويف المعتم ورجته أن يمسد لها صدرها، ومن فرط تأوهها وترنحها تحتـه غشيته شفقة بالغة فود لو قطع يده ووهبها لهـا، مدت يدها نحو سراج الغاز وأطفأته وبحركـة فيها عنف وتصمـيم رغبة سيئ فـهمها طويلا، جـذبته نحوها واعتـصرت شفتـيه وضلوعه ولهاثه..، افتضت جسدا لم يلهج بإسراره بعد، ودهشة تفتقت في غيـاهب غريزة مقـبورة، ولهفـة أولى ابتلعها تطـريز دلاء جلد وأسلاك عظام وعطش وحشي... لملم حوائجـه وانسل خارجا، لم ينبسا ببنت شـفة. كان ندم مـريع يعتـصر قلبـيهـما مـعا. ظـلـت رائحة الماء المهين النفـاذة تجثم فـوق صـدره كالغـصة، رغم أنه نفض ثيـابه وعب بشـراهة كل الريح القادمـة في تجاهه، كان مخنوقا، ضائعا. لكن في تلك المنطقة النائية المعتمة التي تتحرك بصمم وتتقهقـر بغل ونية انتقام، في أعمق أعماقه، كـان ثمة انتشاء خالص وبسـيط يقوض الاناخـة الثـقيلة لإحـسـاسه بالذنب ويـفلسف ما وقع (ومـا سيقع مرات عديدة) في إطار ضريبة الوفاء للمـحبوب، ويفسر مثل المبار كية تماما إصراره على مـعاودة اشتباك العـتمة بحس شريف للتضـحية: هي تفكر

بأنها تبقيه بذلك رهن إشارة بنتها. وهو يفكر بأنه بذلك يقوي مكانته عند حليمة بوجود أمها في صفه. ولا أحد منهما واجه الشيء الغامض، الشائق، الحرون بداخله الذي يملي عليه لهفته ولهاثه..

كانت نهاية عذاب حب بلا جدوى في ذاك المساء القاسي، فتحت له المباركية الباب وانسحبت، لم تمهله حتى يتمم تحيته المعهودة. ولم تمنحه تلك الضحكة الذاعرة اللعوب:

"وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى

وإن لم يزر لابد أن سيزور"

كانت حبيبته وسط غلالة من دخان الشواء في حضن رجل فظ ذو شارب كثيف وسحنة غاضبة، قدم له نفسه بأنه "الجزائري" فرد يونس "متشرفين.. متشرفين" وقال بأنه هو وحليمة قررا الزواج ثم باسها من فمها، رد يونس "مبارك مسعود"، وأردف بأنه مضطر لتوديعهم، فعرضا عليه قضيب شواء: حلاوة التعارف، لكنه رده شاكرا وخرج. أدركته المباركية قرب الباب وقالت له "فَكَّرْ فِيَّ أَنَا للِّي نْدِيرْ لِيكْ لَعْقَلْ" أزاحها بيده، وخبط الباب وراءه. خرج بعزاء واحد هو أنه ورغم قوة الرجة لم يستسلم للخراب الداخلي الذي اجتاحه، وأنه كلم الجزائري كلام رجل لرجل. دون أن ينقاذ لنخوة كاذبة، وسوء تقدير لنفسه، فيزج بها في معركة خاسرة..

ضرب كفا بكف "متى يقيئك الحوت يا يونس، متى؟.

تحولات بيبينو العجيبة

لاشيء يؤلمه أكثر من العزلة، لا الجوع، ولا الضياع، ولا فظاظة عالم الليل بوسعهم إدراك الزوايا الغامضة للأسى والقلق في نفسه مثل ما تفعل هي. كانت تجبره حين يتلاشى العالم من حوله على الإرتداد إلى أعماقه، حيث يستقيظ عنف مجهول وصاخب يعري روحه ويدفعها لعبور مصفاة قصاص داخلي مرير. لم يتوقع بيبينو أن إعراض العلالي عنه سيبعث كل قلقه المنسي، وكل وجع الأحاسيس التي تتفجر في جفاف ليالي عزلته، بنقرة خفيفة معلومة كان يملك حين تقفر في وجهه الطرقات وتصد الأبواب ويختفي السحر المجهول لحضور الآخرين، سر الخلاص. لكن العلالي صار يقابله بوجوم صخري أو تجتاحه فورات غضب كاذبة لأتفه الأسباب، أو يتعمد ألا يفتح له الباب رغم تأكده من وجوده، كأنه يقول له بصريح العبارة "عُومْ بَحْرَكْ وَحْدَكْ". لقد خذله العاشق الغيور، ولا يذكر أنه راود دليلة عن نفسها أو مد نحوها يدا تحركها الشهوة أو حذق فيها بعينين نهمتين. حتى في تلك اللحظات الفاصلة التي سار فيها العلالي إلى رأس العين ليجلب الماء وبقيا لوحدهما في كهف الصينية، ثم عاد ساهما، مخذولا وأمسك الكأس بيد مرتعشة، لم يترام حبه اليائس من قبر نكرانه ويتلبس نظرة حركة أو حتى كلمة تفضحه، كان يضع قلبه مغلولا في صحراء يأسه الصامت، مخافة أن يستثير دودة الغيرة في صدر العلالي..

كاتما تأثره، وملاحقا بتبكيت ذنب لم يقترفه وبانتظار قلق لريح مصالحة ترتق ما انفصم بينهما، سينمو بداخل بيبينو حس غزو الحياة وحيدا من جديد، سيطارد في متاهة الأزقة، ووسط الحشود، في غور الليل، في

المقاهي، وفي عنف الحياة المتخفي، دربة يقظة، متفهمة، دقيقة، جعلته في ما مضى يلتقط ما يقيم به أوده مهما اسودَّ العالم في وجهه، فكر في السفر إلي مراكش لكنه وفي اللحظات التي يقضيها بالمحطة متحفزا، متوترا، يحس وعلى نحو غامض بأنه مشدود إلى المكان بخطوط خفية وتلذذ سري..

حين تقفر الحياة من حوله، كان يفكر في ماري-أنطوانيت، يسير نحوها بمسكنة لاحدود لها، يسمعها خطابا كارثيا عن متطلبات عائلته التي لاتحصى وأحواله الصحية المتردية وطعنات الزمن الغادرة التي تستهدفه هو بالأساس دون خلق الله، ويعتصر رموشه لعلها تجود عليه بدمعة مفحمة. خطاب سمعته ماري- أنطوانيت كثيرا وتألمت له طويلا، حتى صارت تستمتع بتفقهه العجيب في أنواع الأمراض وأصناف العذاب والمشاكل التي يمكن أن تحفل بها حياة بشرية، وكان ينتزع منها دائما بضعة فرنكات وبسمة تواطؤ ساخر بل وكلمات تشجيعية عن فضائل الصبر ومجابهة الصعاب ثم يلثم يدها مودعا، يسبل عينيه بأسى ويسير بهيئة محارب يؤوب لخوض غمار معركة ضارية، وحين يبتعد كثيرا يقهقه بظفر..

لم يعد يفكر أبدا في غصة النوالة، خط دائرة حمراء عن الجهة التي توجد فيها، وحتى في لحظات ذروة سكره كانت علامة "قف" تومض أمام عينيه، لم يكن يعوزه الحنين ولا الرغبة في احتضان إبنه الوحيد، لكن أولاد القحاب أفسدوا كل شيء بينهما، لقد روجوا بأنه كان ينوي خنقه قرب عين داي. ألبسوه أبوة آثمة غادرة ووحشية. هناك فقط بضعة كلمات تحز في نفسه، عليه أن يقولها له، لكن ليس لآن، سينتظر إلى أن يكون قادرا على فهمها..

القـــواد:

في الزوايا المعتمة لزنقة الحناجرة يقف، متكئا علي الحائط، اليد اليسرى في الجيب، واليمنى ممسكة بعصبية -السبابة والإبهام فقط- لفافة تبغ من النوع الرديء. والشعر الفضي المذهون بالبريانطي المنسدل حتى الياقة،

والشارب الخفيف المميز في الوجه الشاحب المعذب كزهرة ذابلة، والمنديل المربوط حول الرقبة لإمتصاص سيول عرق دائم يفجره اضطرام داخلي لا يفتر. والسترة الطويلة حتى الركبة والسروال الفضفاض. والألوان الفاقعة، ومقدمة الحذاء الأحمر الطويل، والجسد الضئيل الغارق في تلافيف الثياب، الرأس وحدها تطفو في اهتزازات متلاحقة حين يعب الدخان وينفثه. في الزوايا المعتمة يقف كمهرج، يخفف بهيئته المرحة الكآبة التي تغشى المكان. في تلك اللحظات التي يبدو فيها لامباليا ومعرضا عن العالم من حوله، يعفر حيوية الحياة بإهماله الأقصى، ويجابه حركة الزقاق الضيق بثباته الشخصي، كأن غلالة الدخان المحيطة به هي عالم تأمله الوحيد، يكون في أشد حالاته يقظة وتحفزا، وتكون عينه الصقرية، تمسح الزقاق حتى أدنى حركة، فجأة، وبخفة عنكبوت، وبعد دهس عقب السيجارة تحت الحذاء، وبإشارة حازمة وآمرة، يدعو أحدهم للمجيئ، فرق كبير في أساسيات المهنة بين أن تتقدم نحو الضحية أو تدعها تأتيك متعثرة، مستثمرا كل مخزون القلق والترقب الذي يغلف المكان. وبعد المصافحة القوية. التي تمتزج فيها حرارة اللقاء بإختبار أولي للقوة والتماسك، لعب حاذق ومتقن بين الوعد والوعيد، الرحمة والعذاب. وبكل الوقار والثقة الذي تمنحه هيئته؛ وبنبرة رسولية متقنة، وبعد استهلال عابر حول لَفُورْم، ولَفَمي، سَفَا، كل شي مزيان. شُوفْ، وَاللّه غير شَفْتَكْ أُوحَبِّيتَكْ. المحبة من دْيُوهْ. غْزَالْ أو ضيقَة، البْزَازْلْ رُمَّانْ مَاتَعْدَرْنيشْ فيهم، الزين تحفة آي آي آي، اللُّور مَرْصُودْ، لِيكْ وَحْدَكْ، وَالُو غيرْ شِي بَرَكة، بَاشْ مَا سخَّاكْ اللَّه، المحاسبة ما مزياناش بين ليزمي. بإسم الله، ميرْسِي. سِيرْ قدَّامي، البَابْ لَخْضَرْ دفْعُو وَدْخُلْ، بُونْ شُونْسْ...

وحين تخرج الضحية مفعمة بالخيبة والضغينة ومحتقنة القلب على رسول المحبة الغدار بعينين ذابلتين، هجرهما ألق الشهوة، بعد تبدد كل الإستعارات والمجازات الزائفة، تكون الأرض قد بخرت الدعي الذي تبرأت الغزال الحيزبون من وساطته..

وبعد أن أَلّبتْ قلوب العاهرات عليه واحدا واحدا على طول الزقاق، إذ لم يعد يأخذ أجر وساطته المزعومة، بل يقنع رواد الزقاق بأداء مسبقا ثمن الوصال كاملا، فيترك العاهرات مع الرواد في شجارات لاتنتهي. لقد نغصن عليه وقفته إذ صببن الماء الخانز والبول على رأسه من فوق السطح، وضربنه بالحجارة، وشتمنه بكل النعوث، وتركن الأبواب مشرعة لتلقي الرواد، وفي الأخير سلطن عليه بعض العشاق المتعصبين. تكلفوا عن طيب خاطر بكسر يده، وتجريده من ثيابه، ومرمدته في التراب كلما لزم الأمر ذلك، فقطع بيبينو رجله صاغرا من الزقاق..

القـــمار:

في الظلال السخية حيث يتوسد الحصادة مناجلهم وحاجياتهم، وبين أوتاد الخيام في الموسم أو السوق مجانبا اعتى مد بشري، وقرب الحافلة التي وصلت لتوها، يرج المدى من حوله ربح، ربح، ربح، ابتسامة لا تقاوم تعضدها لحية بيضاء فارهة، ويدين معروقتين ومشمرتين تحضنان كنزا وهميا تتعذر رؤيته بغير الإقتراب الحميم رْبَحْ، رْبَحْ، رْبَحْ، وتكتمل الحلقة المغوية حول بابانويل المحلي والنهاري، ضبط محكم لكل علامات الدهشة والحيرة والرغبة، ثم صياح لامعنى له، كأن الشيخ واقع تحت تأثير الجن أو يعاني نوبة صرع، رذاذ زبد أبيض يتطاير من فمه، ورعدة باردة، تستحث لونه وتضعه على مشارف الإغماء، استرسال في تعزيم بكلام مبهم في ما يشبه مونولوجا داخليا قاسيا، في إعراض غريب عن الجمع الذي وجهت له الدعوة للإقتراب، هو ذا التوتر اللازم لإجتثات أدنى آصرة تربط الجمع بالواقع، والزج به في أتون تحليق غرائبي. يغيم وجه الشيخ ويسود، وتنطفئ عيناه، ويصير الوجه كومة رماد... فجأة وبعربدة وجودية ملغزة وضدا على جنائزية الحلقة التي تابعت بكل الدهشة والحزن اللازمين نزول الشيخ إلى الجحيم وانبعاثه المظفر، فجر ضحكة مجلجلة، واستل من كمه خيطا رفيعا شبكه بطريقة مخصوصة في الأرض، وأمر أحدهم بوضع أصبعه داخله، وحين سحبه بقي الخيط عالقا به، فنفحه فرنكا رْبَحْ، رْبَحْ، رْبَحْ، لَشُونْسْ

كِي دُونْسْ. وأخذ يهز عجيزته، ويضرب الأرض برجله، رقصة احتفائية بالحظ الغامر، بالوميض الهاتك للبؤس العام. جَرَّبْ زَهْرَكْ، اللِّي مَاعَنْدُو زهر خَيْرْ ليهْ لَقْبَرْ، ياأمة محمد الزَّهَرْ وَلاَّ القبر، لعب بفرنك تَرْبَحْ زُوجْ. لْعَبْ بْزُوجْ تَرْبَحْ رَبْعَة، جَرَّبْ، جَرَّبْ زَهْرَكْ.. تدافع الجمع بفرنكاتهم وأصابعهم، لكن الخيط الخادع يضيع كالسراب، وتبقى للأصبع صفاقة التراب، وللنفوس أسى الحظ النكد وتلك الرغبة الملحاحة في الثأر للفرنك الضائع بمعاودة مكلفة حتى البكاء، وفي مقابل اليأس العام، كان الشخص الأبله نفسه الذي ربح أول فرنك يمضي من انتصار إلى انتصار، وكلما شبك الخيط في أصبعه، رفع وجها يشع بالبراءة والسذاجة وابتسم للجمع ببلاهة، كأنه يعتذر لهم عن الحظ المخاتل الذي يأبى إلا أن يحالفه هو، وبعد سيل من المحاولات المحبطة، تخفت الأيدي وتنكس الرؤوس، ويرين صمت حزين على الحلقة، وتترقرق دموع لماعة في بضعة عيون، ويكتم البعض حقدا كبيرا على الرجل الكذاب، ويتماسك البعض الآخر ضد إحساس بالتعب ورغبة في السقوط، فيرتجل الشيخ بضعة دعوات خيرة يختمها بدعوة عامة لقراءة الفاتحة، ينجزها وحده، ويفض المجمع. لينبت في مكان آخر، فيسرج من جديد المدى من حوله. ويدعو لتجريب حظ لن يحالف أحدا، إلا ذاك الذي يتصنع البلاهة، ويلازم الشيخ كظله أينما سار. لقد أحرق قلوبا وزود أحزانا، وجعل رجالا يبكون الخسارة كالأطفال، ودفع آخرين لسب الله، بل أنه كان سببا في انتحار حصاد جاب بلاد زيان وعاد بجسد كالخرقة وبضعة ريالات أخذها الشيخ فرنكا فرنكا، وخلف جملة من الأمراض الإجتماعية. كتلك المراودة المعذبة بإسترسالها المكلف لشيء لم ير أبدا في القبيلة: الحظ، وحالة أولئك الرجال الذين يجازفون بعشاء أولادهم. أو يعودون بقففهم فارغة من السوق، مع كل ما يستتبع ذلك من خصومات عائلية. قبل أن يفطن الناس للمصادفة الغريبة التي تجعل ذلك الأبله يربح دائما، ولكنهم حين رأوه يتحول إلى وحش ضار يستل مطوى ويشهرها في وجوه من طالبوا الشيخ باسترداد ما خسروه، فهموا كل شيء، وتعلموا أنه في تلك

اللحظة التي يعرض فيها الربح نفسه برخص، ويكون يقينيا كالتراب، يكون أيضا مستحيلا كماء الحياة.

الرجل السوداء:

في السقاقي المحيطة بساحة فرنسا، استطاع أن يلملم في كل مرة من حوله بعض العجزة والمحبطين والمشردين والسكارى وأنصاف المجانين.. وكل من يشتغل في نفسه حس وطني غير مكلف، وبمساعدة أحد قدماء المحاربين، شارك في الحرب العالمية الثانية وبعد أن جاب كل الجبهات وفي طريق العودة انفجر لغم تحت الجيب التي تقله، أطار عينه اليسرى وكل عقله. وبرغم آفة النسيان التي تجعله ينسى حتى اسمه وموقع قدمه، كان مساعدا لايمكن الإستغناء عنه بالنسبة للقبطان، فقد تنازل له عن حذاء عسكري صلد ووسام وبعض الزخارف الأخرى، وتولى قيادة كل المهام، من التدريب الذي ليس أكثر من زحف على البطن داخل السقاقي، وتصويب ببنادق انتزعوها من أيدي العجزة، ومناورات مملة ومرهقة، تنتهي غالبا بخصومات حول من أرسل طلقته الصوتية الأولى (طخ.. طخ.. طخ)، إلى رئاسة قسم المخابرات، وحراسة الدخيرة المكونة من بعض مطاوي "قرن الغزال" وكيس حجر ورصاصات فارغة. وبعكس العسكري الذي كانت شرعية قيادته فاقعة في جسده: العين المطموسة، والعقل المحلق، كان على القبطان بناء أسطورة شخصية تفوق الحكي الفوضوي للعسكري عن حرب ليست حربنا. لذا وارتكازا على بعض الندوب في الوجه خلفتها ضربات مطوى، وأثار ضرب بعصا في الظهر، وعلامات عنف أخرى، سيحكي القبطان عن حرب الريف والتمترس بين الحجر، والبرودة القاتلة، والضربات المتقنة والخاطفة، والتعثر المفاجئ، والسقوط بين يدي العدو، وكل ماتلا ذلك من مشاهد تعذيب مروعة. تدفع ذكراها القبطان للتشنج في ما يشبه نوبة عصبية. وبرغم التجلد الشديد والقساوة الساحقة تمرق بضعة دمعات من عينه تدحض كل محاولة للشك أو الغوص في التفاصيل الفاضحة. ثم يفرد يده، هذه اليد المعروقة المخسوفة صافحت يد سي عبد الكريم الخطابي، والله.

تتحلق حوله أسراب المقاتلين في الليل الطويل، يحدثهم عن الرسائل التي تصله من جهات عليا، وعن المال الكثير الذي سيصله. ثم يشرح لهم لماذا يمضي متنكرا هكذا في هيئة كازاوي حازق ومبهذل. ويصف لهم السلاح وكيفية استعمال البندقية والمدفع وحتى الطائرة. وبعد شهور من الإعداد النفسي والإديولوجي والتقني، كان فيها القبطان أمير الليل وسيد مشرديه، فكر في أن يقوم ببعض العمليات الآمنة لكي يبدد الملل ونفاذ الصبر الذي صار يخنق جيشه الصغير..

في بضعة ليالي، سترفس حدائق المعمرين، وستضرب بعض الأبواب بعنف، وستقلب صناديق القمامة، وسيجد صاحب مكتبة "لاليبرتي" قطه الأثير مضرجا في دمائه بعد أن تقاذفته أرجل فظة ومتوحشة، حتى أن جلسات المعمرين ستصير مسكونة بهاجس هذه الرجل السوداء الآثمة التي نغصت لياليهم وعاثت في أشيائهم، وسيجند بيرو عراب بعض العيون الحاذقة، وقد تبين لأركان الحكم المحلي أن حركة مقاومة تتبرعم عبر عمليات صغيرة في ليل القبيلة البهيم. وحين ستتمكن دورية من إمساك القبطان وبعض اتباعه متلبسن بالتبرز في مداخل مؤسسة عمومية، ويدعى المراقب المدني من قلب نومه العصي ليرى المجرمين، لم يستطع أن يمسك ضحكة حانقة متشنجة. ثم عاد من حيث أتى..

المجـــدوب:

جمعتهما ذات ليلة بضعة كؤوس. خرجا بعدها سعيدين، خفيفين. ومضيا في دروب القبيلة بلا هدى. يروضان ليلا موحشا وقاسيا. كانت رفقة شمام المغني الإستثنائية تهب بيبينو نشوة سرية خالصة وفخرا لن يزول. كان الرجل ذائع الصيت محليا تردد نساء القبيلة طويلا أغانيه وخصوصا أغنية "القصبة". ويترصدنه من فوق السطوح ومن الأبواب والتوافذ والكوات بشوق قائم وعواطف متأججة ودعوات مكتومة. غير أنه وبسوء تقدير للحياة وهي تتهالك عليه برخص، لم يعرف كيف يستثمر شهرته "ماديا ولَذَتيّا" فهو يهب جسده الصفصافي اللدن البض لبغايا مترهلات، لم

يَكُنُّ يحضيين من بيبينو إلا بضرطة أو بصقة ازدراء.. في تواطؤهما المرح تلك الليلة ساقت لهما الريح القادمة من دار الدباغ أصوات دفوف تضرب وأذكار تتعالى في عذوبة رائقة. وجرتهما رغبة ملحاحة وأرجل مترنحة نحو مصدر الأصوات. اعتبر أهل الدار دخول شمام تكريما لهم فاستقبلوه بحفاوة بالغة. وتدبروا له مكانا وقدموا له كأس شاي؛ تشريف لم يحظ منه بيبينو بأي شيء فأسرها في نفسه. تفضل شمام بغناء بعض المقطوعات من أغانيه الشهيرة في الأوقات التي تتخلل نوبات الجدبة، فزاد في حث العيون المغوية والمصعوقة للنساء على تطويقه واقتسامه بشبق نهم. حين عاود أهل الحال رقصتهم العنيفة وسط الزغاريد وأخرجوا قللا فخارية يرفعونها في الهواء ثم يعترضونها برؤوسهم لتتفجر شظايا ودماء. وحتى يحوز هو أيضا قليلا من الثناء، ودون أن يعرض رأسه لخطر مناطحة الفخار الجنونية. أسر لشمام بأن يعترضه إن هو أيضا هم برمي القلة في الهواء. ثم دخل دائرة الجدبة وترك بعض الزبد يتطاير من فمه. وولد في جسده رجفة مخيفة. وفي ذروة نشوته أخذ وسط إعجاب عام قلة كبيرة كان يتحاشاها أهل الحال. وحين هم برميها فوق رأسه، أمسك شمام بيده بقوة وحسم وأقسم بشرف أولاده الذين لم يلدهم بعد ألا يفعلها. فتراجع بيبينو آسفا ومتأسيا بجولة أخرى قادمة. سيعترضه فيها شمام أيضا، وخلد الجمهور لصمت خذلان مبين. كانت الجولة الأخرى أكثر التهابا والتفع بيبينو بالحمية والزغاريد التي استهدفته هو بالأساس إذ تهاوى أكثر الجدابة صلابة. وبقي وحده يراوح في الدائرة بالقلة بين يديه، تستحثه العيون والأصوات. كان شمام ضائعا في نقاش قاتل مع رجل يجلس بجانبه، تردد، بحث عن مخرج، لعن الظروف وإعراض صاحبه القاسي. ولم يجد بدا من أن يهب رأسه لاختبار فادح الكلفة. حذق في شمام اللاهي بعينين حجرهما الهلع والإدانة. ورفع القلة في الهواء وللمحة كالومض وقبل أن تصل القلة رأسه تذكر منبر البيعة.. سيصارع الموت لمدة شهر؛ وحين سيعافه ملاك الموت مرة أخرى، سيخرج إلى فضاء الدنيا الرحب وسيبحث عن شمام، وقد انضاف ثأر آخر عليه أن يوفيه للقبيلة الغادرة..

8 دسمبر 1952

الصباحات لاتشبه بعضها..

الذين رأوه وهو يخرج في ذلك الصباح، اتفقوا على أن نذير شؤم كان يربض في قلب تخلق النور البطيء في سرابيل الغبش. تكشفت السماء صافية وذات زرقة باهرة ومريبة. وبعد حين أطلت الشمس شاحبة منهكة، وتدحرجت مكرهة على طول الجبل. وكانت هبات ريح باردة ينفثها الثلج الرابض من قمم تاسميط وغنين، بغل دفين تناوب ضرباتها السديدة في الحواري المقفرة، لقد خرج بقميص أبيض خفيف رغم لسعات البرد، وسروال أدكن شمره عند الكعب وانتعل حذاء رياضيا منح خطواته بعض الرشاقة والخفة رغم الإجهاد الذي كان يبدو على وجهه -كما تبين لكل من رآه في ذلك الصباح- .

وحدها رقية الهجالة انفردت برواية تفصيل مؤثر داخل التواطؤ العام على بصم مصيره في خطوات آخر تجل له بالزنقة. قالت بأنه وقبل أن ينعطف في رأس الزنقة توقف وبرؤية أثقلت بكل التياع وحزن الوداع الأخير مسح الدور واحدة واحدة. بل أنها اشتبهت في دمعات قالت إنها ترقرقت في عينيه قبل أن يولي ظهره. كانت فاطمة -أو دليلة المحتالة كما يصر العلالي على تسميتها- تعرف بأن الشيء الأكيد في الرغبة العامة والدائمة لتلبيس آخر حركات وكلام ونظرات الأموات دبيب الموت القدري، هو أنه توقف بالفعل في رأس الزنقة وملئت عيناه بأسى الخذلان. لقد دأب منذ أن تسلم شغله من جديد في وكالة شيمون بلولو على الخروج في تمام الساعة السادسة

صباحا. ودأبت هي على الوقوف فوق السطح حينئذ لتتبادل معه تلويحة يد و بسمة طافحة، تدافع كل إكراهات النهار "كم يكون النهار كئيبا" يهمس لها، "كم يكون ثقيلا" ترد حين لايريان بعضهما. لاتعرف هل هو الذي خرج قبل وقته المعتاد، أم هي التي تأخرت قليلا عنه؟ لقد هرولت نحو السطح لتراه يولي ظهره صاعدا عقبة المقبرة فتابعته حتى ابتلعته زنقة اولاد سعيد.. هل كان يعرف؟ في جيب قميصه الملوث بدم الطلقة القاتلة المتيبس الناصل، كانت هناك عشرة فرنكات وبضعة حبات حمص وصورة الزعيم ملفوفة داخل ثوب حريري. كانت الصورة المقتطعة من إحدى الجرائد القديمة باهتة ومتقصفة، تشع منها نظرة الزعيم المهيضة الحزينة ذات الجاذبية الباهرة كعيون الشهداء. وفوق عنقه ارتسمت قطرة دم مخسوفة تسللت من الثوب الحريري وانطبعت فوق الرقبة القصيرة. كأنها تبصم بينه وبين الزعيم قران دم ولوعة وخذلان..

البكاء، الأرق، الصوم، والعزلة. كل صنوف العذاب لم تكن قادرة على إذابة إحساس مريع ومعذب بالذنب. يعتصر قلب فاطمة ويحيل زمنها وحشة ويبابا. هي التي نصبت له فخا وقادته إلى حتفه. زارها الفقيه مرات عديدة ليقول لها: "الأعمار بيد الله، ودمه لم يضع هدرا بل غدى نهر المقاومة". كلام بارد محنط، لايصل الجرح الغائر. يردده الفقيه بحياد مؤلم. أثناء تغسيله، كانت مسحة وردية تطفح من خدوده، وشفتاه المكتنزتان ترشحان ببسمة فرح عميق. لم يكن حزينا، ولا ممتقعا. كل من رآه في رقدته الأخيرة خيل إليه بأنه يغط في سكينة نوم عميق وهادئ. بصيرة الشهداء بالجنة الموعودة ترى في وجوههم. كلام مشاع، مموه، يرتطم بالسطح ولايصل الأحشاء. رياح القلب الهوج المدمرة تحفر بروح شديدة التصميم. من مات مات. كم من الناس يموتون جوعا ومرضا وتفريطا قاسيا في كل يوم؟ هل يمكن أن تنسى؟. حين أزاحت النقاب عن وجهها وهما في الحافلة استبد به لحين فرح طفولي ونشوة غامرة، مالبثا أن بددتهما الأسئلة الملحاحة التي تدافعت في صدره بروقا متراقصة وعجلى، تتابع صور

شـائهـة، ولـم يكـن هناك بـد من استـرجاع إصـرارها الـشـديد على الذهاب للشـرب في كهـف الصينيـة، ثم ظمـأها المفـتعل، وذهابه ليـجلب لهـا الماء. يومهـا فسر ذلك برغـبتـها القاتلة في الاسـتفراد ببيبيـنو، فقاوم غـيرة فتـاكة ومطبـقـة، دفـعتـه بلا هوادة إلـى نحت مصيـر آخـر لذاته ضـائع في همـوم الجمـاعة... تجمع علي نفـسه، صموتا، جـريحا، يمور بالغضب المشـتعل. لم يكن سوى لعبة بيـنها وبين الفقيه. حتى كلام اللوم لم يـعد له معنى. الدموع الصامـتة لاتكفي للاغـتسال من خـذلان الأوهام الموجعـة، والأحلام غطاها العفر. حاولت أن تستدرجه فيما بقي من الطريق للحديث، لكن الكلام كله قـد غـيض في مـهـوى سـحيـق، فانزوت مـتـرفـعـة، شـاردة، وكـاملة.. في واويزغت مد لها مودعا يدا باردة وعجلى. سارت نحو دوار آيت بوجبيري، وسار سـاهما نحـو الدار المعلومة.. ودون أن ينبس بكـلمة سلم الرجل لفـافة المناشير وعاد نحو المحطة. لم يثر إنجاز المهمـة فيه لا مشاعر الرضا ولا الفخر. وعـاوده إحسـاس قديم ومـعـذب بالخواء واللامـعنى. سيفكر فـي بيبـينو من جديد لكنه لم يجـرؤ على الذهاب للبحث عنه. وبحث في الخمـر عن عزاء غير مجـدي. وقنع في الأخير باعتزال الناس والتنسك في بيته. جـاءه الفقيه مـرات عـديدة لكنه لم يفـتح له البـاب. كـان انكسار ثـقتـه فـيـه غيـر قـابل للترميـم. ووقفت هي منتحبـة ساعات طوالا بجانب البـاب الموصد. كانت تقـول له وهي مخـتنقة بالبكاء بأنهـا تعرف أنه مـوجود بالداخل وتـرجوه أن يتفـهـم طبيعة التنـظيم. ثم تعترف لأول مرة بحـبها له ثم تبكي، كـأنه انتزع من صدرها سرا لاينبغي البوح به. آنذاك يكون هو مـتوترا ومختنق الأنفاس، يهم بفتح الاب ولا يفعل، ويدافع شوقا عارما ومستميتا، لكن من يضمن له بأن اللعبة لن تدوم..

ذات صـبـاح خرج وسـار نحـو وكـالة شيـمـون بلولو. لم يجـده هناك، فاضطر لانتظاره حـتى حضـر. لم يكن في حاجة لاسـتجدائه، كـما أفهـمه شيمـون ذلك بنبرة عتاب شديدة، فـالشغل ينتظره من زمان. كانا سـعيدين بارتباطهـما من جديد. وحرص شـمون على أن يتناول معه طعـام الغذاء في

داره. هناك سيرى العلالي شميحة لأول مرة منذ تلك الليلة. سيمسكها بأنامل مرتعشة. ويلثم خدها بحنو متشنج. كان وجهها الصغير المدور يشع في بحبوحة طفولة هنية وصفاء خالص..

عاد من الوكالة في الليل، وتلمس خطاه في عتمة السلم الصعب بتوجس شديد، حتى ارتطم بكتلة لدنة وثخينة وأنفاس لاهثة ومتسارعة. حاول بانتفاضة يائسة أن يحرر جسده. لكن اليدين العنيدتين أمسكتا بتلابيبه، وفي أقصى ضياعه وبلبلته سمع صوتا عذبا أليفا: "لماذا تهرب مني؟". تراخت أعضاؤه المتصلبة، وجذبه شوق لايقاوم للتهالك في الحيز الضيق والمهدد على الصدر المتحرق للقياه. كان انخطافا مفحما وهبه مواساة كاملة لكل جراحاته. لم يعد لكلمات العتاب معنى، ولالترديده الفج والبليد أي جدوى. حتى كلمة التحية خرجت من فمه همهمة وهنة اغتالتها لتوها شفتان ملتهبتين ومطبقتين. أنذاك أدرك في قرارة جسده المغوي بأنها قدره مهما كابر واصطنع من هجر..

أحمد الحنصالي:

في البداية وصله النبأ عن طريق شيمون بلولو، ثم رأى التعزيزات العسكرية تتوالى. سحب الغبار، قعقعة السلاح. وجوه الضباط المروعة والمتشنجة. الحركة الدائبة في بيرو عراب. الكلاب المدربة والمتحفزة للإنطلاق في الدروب الجبلية الوعرة. الحواري المقفرة من المعمرين أو المذروعة بخطوات عجلى ومتوجسة، موكب "بونيفاس" الذي يصل وسط جلبة الرعب والصياح في أبهة المخلص من العذاب المحيق، الطائرات المحومة حول الجبال، الوجوه الغريبة المتنكرة في ثياب البدو والمندسة في الطرقات ووسط التجمعات. وسمع عن المداهمات الليلية التي تعرضت لها بعض الدور، وعن دوريات التفتيش، وعدد القتلى الذي تنفخ فيه كل ساعة الإشاعة ومبالغات الحماسة، وقرارات حظر التجول بالليل ومنع التجمهر بالنهار. كانت طقوسية الحرب تخيم على القبيلة. ولم يصدق بأن كل هذا الاستعراض الفظ للقوة يقام من أجل رجل واحد. قيل بأنه انتزع بندقية من

مـخـزني وقـتله ثم سـار يـبـذر الرعب والقـتـلى على طول الجـبل المـمـتـد من القصـيبـة حتى سـد بين الويدان.. عدا الإسم ويقـينية القتـل الذي حرك كل هذه الآلة العسكرية الجهنمية، تبدو حقيقة الرجل ملتبسة وضائعة بين البلاغة الاستعمـارية التي أخضـعتـه لتمـرينات سيكولوجـية رديئـة، كانت حُمَادى اكتشـافاتها أن الأمر يتـعلق ب"وحش متعطش للدماء" لا بإنـسان، وبهوس شديد لقذف الحـدث في التفاهة اليومية لجنس بشـري لايعرف بعض أفراده الشواذ كيف يسيطرون على غرائزهم البـربرية، ماانفكت تتساءل بتصنع فج للبـلاهة عن الأسـباب التـي تدفعـه لاقـتراف كل هـذه الجرائم الفظـيعـة في صفوف الفرنسيين بالضبط. ثم تشيد بالأهالي الذين هرعوا "بتلقائية لمطاردة الوحش". وبين الجدال العقـيم لذويه وحروبهم الصغيرة حول مـن غرس فيه مبادئ الحـزب وحرضه على حمل السلاح؟ من وشى به وقدم رأسـه لفصيل الإعدام وأخذ المكافأة؟ وتصوييات المتفـقهين في التاريخ الوطني وتدقيقاتهم العلميـة، وشروحاتهم المسـتفيضة حول مـلابسات انطلاق المقاومة الـعفوية، وتحفظاتهم الشديدة تجاه التمـرد الأرعن الذي لم تنضج ظروفه بعد، وأقاويل المتشككين في الجلسات الخاصة والحـميمية: يقال بأن المخزني الذي أخذ منه البندقية بعد أن قتله ضبطه مع زوجـته، لقد هرب الحنصالي بروح من لم يعد له مـا يخسـره. الأسر والأحـزاب والجـمعـيات والمتـخـصصـون والمقاومـون والثـرثارون والرواة.. كل مدجج بحكـايته الخـاصة حـوله، ومتـمتـرس وراء حجج لايرقـى إليها الشك. حـتى أن "التشـامير" الأبيض الـذي خرج به إلى الناس يوم قبض عليه. والذي ضرج بدمائه بعد ذلك، كان أوسع من قميص عثـمان، يتحـمل كل الأيدي التي تنازعتـه مطالبة بحقـها في الثـمن الثأري لدمه..

خبـــر:

(افتتاحية ماروك- بريس 16 ماي 1951)

ست جثث.. هذا يكفي

هل سيتمكن وحش تادلة من الفرار لمدة أطول أمام الآلاف من مقتفي آثاره، إن الأمر لايتعلق بإمساك متهم وتقديمه للعدالة، والعمل على تصفيته بعد إدانة قانونية سليمة بل بقتل حيوان ضار.

الكثير من الدم قد أريق لكي نحاول إمساك قاتل -ذمته مثقلة بستة قتلى- حيا، فنعرض أرواحا أخرى للخطر، لقد دفع رعب جرائمه الفظيعة إلى القول بأنه وحده "مجنون دموي" بإمكانه اقترافها، ماذا نعرف؟. فالمحللون النفسيون بحسب علمنا لم يتفحصوا حالة هذه القاتل المتعطش للدم، ولا أحد يعرف دوافع هذه السلسلة من القتلى. وفي كل الحالات يجب أن نسجل بأنه يختار ضحاياه من بين الأوروبيين خاصة، وأنه يطلق رصاصه بلا مبالاة وببرودة على الرجال والنساء والأطفال. وثمة عامل آخر لايقل مبعثا على الحيرة والارتباك، إنه يقتل بدون هدف نفعي، إنه لا ينهب ضحاياه بعد قتلهم. فالنقود لاتهمه أبدا. يضرب بقوة ويختفي بحثا عن ضحايا تسوقهم صدف اللقاءات. إنهم يطمئنونا بأنه لم يعد يتوفر إلا على سبع أو ثمان رصاصات، الله أعلم.. ويخبروننا بأن بنادق أخرى -بالإضافة لبندقية القاتل- قد سرقت، لذا مهما وقع، يجب إيقاف المذبحة بأي ثمن، فلا شيء يعدي أكثر من الجريمة.

من المؤكد أن، المنطقة المتوحشة التي كانت مسرحا لهذه الجرائم لاتسهل البحث. رغم أن القبائل البربرية التحقت بشكل تلقائي بقوى الأمن لتساهم بفعالية في هذه المطاردة الضخمة، لكن لماذا لم نستعن بالكلب البولسية؟

فمن شأن حاسة شم هذه الحيوانات الثمينة أن تساعد على تسريع "الهيلالة". أخيرا من المحزن وبعد جريمته الرباعية التي ولدت حزنا مريرا بين سكان تادلة، أن لانكون قد فكرنا في منع المتجولين العزل من الوصول إلى المناطق التي تجري فيها وعلى امتداد كيلومترات عديدة مطاردة المجرم الخطير، فلو اتخذ هذا الاحتياط لما كنا نتأسف اليوم علي موت مهندس شاب من الدار البيضاء وبنت أحد زملائنا، اللذين كانا زوال أمس يتذوقان بجانب واد، وبين طبيعة محتفية، فرحة صيد هادئ، فهل يمكن أن يؤخذ هذا الإنذار القاسي بعين الاعتبار من طرف سلطات مسؤولة).

في ذلك الصباح وهو يصارع عقبة المقبرة الفظيعة، وهبات الريح القوية التي تنفخ قميصه الأبيض من حول ضلوعه، كان يبدو من بعيد كزورق رفع بلا رجعة المرساة وفرد شراعه الأبيض في وجه الريح ليخوض أمواج بحر عات. أمس أبلغته فاطمة بقرار الإضراب العام يوم الإثنين 8 دسمبر، احتجاجا على مقتل الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد يوم الجمعة الفارط. ورغم أنه قاطع الاجتماعات الحزبية السرية. كان قد تحامل على نفسه ذات مرة لكنه لم يستطع أن يصمد لمزيج متظافر من الضيق والخجل والشك خنقه واضطره للإنسحاب، فإنه اعتبر نفسه ملزما بتبليغ القرار كأي من الأعضاء النشيطين، اتصل على عجل بكل التجار والحرفيين المحيطين بالوكالة، وحرضهم على الإستجابة للقرار، ووزع بضعة مناشير، وأقنع شيمون بلولو بضرورة تعطيل عمل الوكالة مخافة أن يكسر زجاج الحافلات بحجر المضربين. وبما أن عدة شاحنات عسكرية قد وصلت واحتلت مفاصل الدروب الاستراتيجية ليترجل منها جنود سود، سيتشاغلون طيلة النهار بمسح بنادقهم وفكها وإعادة تركيبها استعدادا للمذبحة القادمة، وهم يرطمون ويرقبون المارة بعيون تملأها شهوة دموية ونهم حاقد. وبلغ المقدمون والشيوخ للناس تهديدات البيرو الشديدة. فقد قرر المكتب المحلي للحزب الاعتماد على كل المخلصين للتواجد منذ الصباح الباكر في الأماكن الرئيسية لتحصين المضربين مما قد يعتمل في قلوبهم من خوف ونكوص.

كان فيض من الحماسة يغلف قلبه، وإلى جانب العرق الذي نضح منه في جهد الصعود كان هناك عزم قوي يشع من حركاته وتقاسيم وجهه. لقد فتح عينيه على صورة الحنصالي المعلقة في الجدار المقابل لمكان نومه. والتي كان قد اقتطعها من عدد جريدة ماروك- بريس الصادر غداة مكنت الخيانة الفرنسيين من القبض عليه، وجه فيه القساوة الفاتنة والصرامة العنيدة لوجوه رعاة الجبل. فيه وضوح، تصميم، وهدوء غريب وساخر كأن لم يزلزل العالم من حوله. وجه صقيل بالكاد نمت فيه شعيرات خفيفة في الدقن والشارب وتشامير أبيض بئيس. رجل من طينة أولئك العابرين الذين لم يرهقوا الحياة بالمتطلبات والشكاوي. كان يرقب آلات التصوير وسحنات الجنود الغضاب الذين يطوقونه بدهشة يائسة ومن عينيه المتقرحتين من فرط الأرق الإجباري. كان يشع عدم اكتراث هازئ بتفاقم عزلته الموحشة وخلو محيطه من نأمة حنان أو شفقة وبالقصاص المرير الذي يقاد له. كان ينعم في سلام داخلي هنيء. إنه أنجز ما عليه. يصعد الحشد المتدافع لرؤيته ببهاء من يوشك أن يدخل في طيات حلم رائع، لقد خاض حربه وحده وبصم التاريخ بصورته إلى الأبد..

انتزع صورة الزعيم من الحائط ولفها في ثوب حريري ووضعها في جيب قميصه. وتأمل لآخر مرة صورة الحنصالي، لماذا أخذ صورة الزعيم وترك صورة الحنصالي معلقة؟ هل كان يبحث عن شاهد؟. دخل القصبة من زنقة الحطابة، أبواب البيوت والحوانيت مسدودة. وقلق آسر يجري تحت الأرض، حاول أن يتصنع لامبالاة رحلته اليومية نحو الوكالة. ولم يستطع، كانت كل خطوة يخطوها تندمغ بوقع وخطورة توغل في المجهول.. اجتاز شاحنة عسكرية تطل منها فوهة مدفع، وعند ساحة الكركور وجد بضعة تجار قلقين ومترددين أمام حوانيتهم المسدودة، وغير بعيد منهم وقف أربعة جنود صامتين ومتحفزين كأنهم ينتظرون أمر الهجوم. أفهمه التجار بأنهم انتزعوا من نومهم في الفجر من طرف المخازنية الذين هددوهم بالحبس إن هم أضربوا. لكن من يضمن لهم بأن سلعتهم لن تحرق أو تقاطع من طرف

الناس إن هم كسروا الإضراب؟. لم يكن من حل لجبرتهم وترددهم، رغم كلمات التشجيع على الإضراب التي أسرها لهم، لذا تركهم وسار نحو ساحة فرنسا كانت أبوابها الأربعة مغلقة بالجنود، فكر في الرجوع، وتمالك نفسه بسرعة وتقدم. لم يكلموه وإن لمح بطرف عينه نظراتهم الحانقة والمهددة، كان شيمون بلولو ينتظره في باب الوكالة مسكونا بقلق عصبي، لقد هدده المراقب المدني شخصيا، لكنه حين جاء إلى المحطة لم يجد لا السائقين ولامساعديهم ولاحتى المسافرين. كانت المحطة مقفرة والحافلات مصفوفة تنعم في سكينة وصمت نادرين. ماذا بوسعه أن يعمل؟. هدأ العلالي من روعه: "إن المراقب يرى بأنك لن تقدر على تحريك كل هذه الحافلات وأن تخرج الناس من دورهم ليسافروا". كان من المفروض أن يجلس هناك ليراقب المحطة، لكن الصخب الذي تعالى من جهة زنقة القصب والمارشي، والفضول ولذة تملي كل حواري القبيلة المضربة، دفعوه للسير نحو مصدر الأصوات. كان التجار هائجين وثائرين، يجمعهم الجنود في إحدى الركن بأعقاب البنادق، لقدحضر المراقب المدني فوق جيبه السوداء وسبهم بأقبح النعوت وهددهم بالحبس، ثم أمر أتباعه بوضع علامة في أبواب المتاجر التي يضرب أصحابها، وقابله التجار بالصفير والصياح ورددوا الشعارات الأبدية لاحتجاج القبيلة:

"طَاليكْ يَا رَاسْ الْغُولْ
هَذْ شِّي مَا شِي مَعْقُولْ"
"مَاطِيشَة بْلاَ مَلْحَة
طَاليكْ خَاصُّو سَلْخَة"

رشقوه بالحجر وأخرج بعضهم صور الملك والزعيم وأشهروها في وجهه، فانسحب غاضبا ومتوعدا، حاول التجار أن يمنعوا بالقوة وضع علامات فوق أبواب متاجرهم، لكن الجنود تصدوا لهم وجمعوهم في إحدى الركن إلى أن تنتهي العملية. كان مد التجار الذي تغذى بكل الوافدين أقوى من

ف : 1464 تاريخ لستلام: 20/6/2006

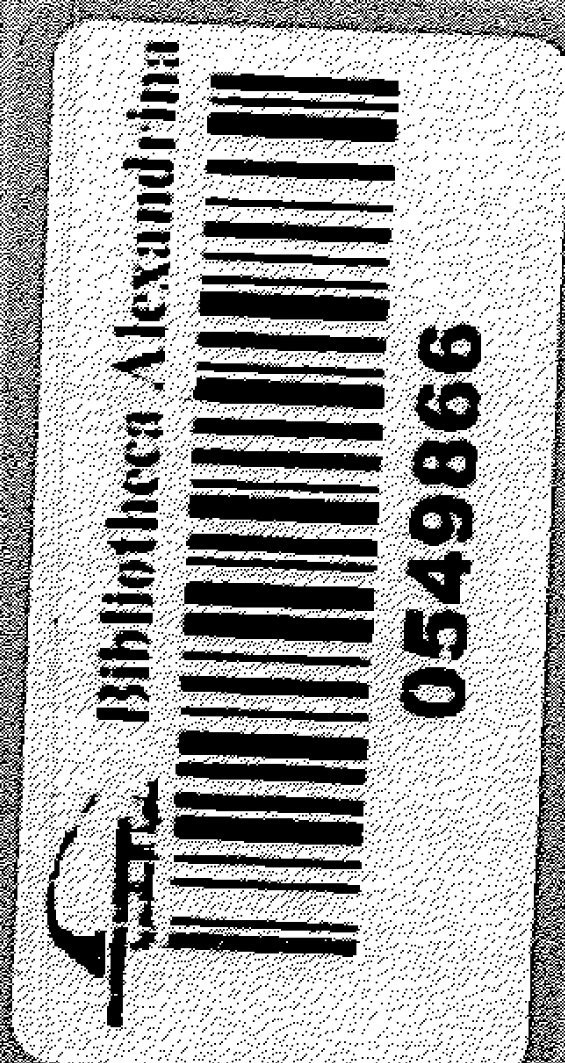
غضب الجنود ومن أعقاب البنادق. إذ تمكن من تفكيك تلاحم السواعد التي كانت تطوقه. فتجارى الناس ودلقوا الصباغة في الأرض وترامى بعضهم، وصفعوا الملكفين بوضع العلامات. آنذاك بدأ الجنود الضائعين وسط الحشد يطلقون رصاصهم في الهواء لإرهاب وتفريق الهائجين. استل أحدهم خنجرا وطعن أحد الجنود في خصره، فعمد هذا الأخير وتحت وطئة الألم الشديد إلى إطلاق رصاصه كيفما اتفق، تهاوى بعض الجرحى وتدافع الآخرون نحو منافذ الهروب، جرى العلالي مع الهاربين وتبعهم الجنود الغاضبون الذين اكتشفوا حشرجة زميلهم المدرج في دمائه، خرجت النساء فوق السطوح ورشقن الجنود خلسة بالماء الساخن والجمر المشتعل وأواني الطبيخ مما عطل حركة المطاردة الدموية، جرى العلالي في متاهة الأزقة المتداخلة، وبقدر ماكان يتقدم كانت الأبواب تبتلع الهاربين بجانبه حتى انتهى به الأمر إلى الجري وحيدا. اقترب من ساحة فرنسا، لو تمكن من الوصول إلى الوكالة لنجا. لكن صوت ارتطام الجزمات الصلدة التي تتعقبه دفعه لتغيير وجهته. دخل زنقة بو القنادل، هناك وقفت امرأة وطفل، كانا يصيحان بصوت رقيق ومجهد "يحيا رجال الوطن". توقف. لم يقو على رمي رجليه إلى الأمام. انبهار تام، ثمالة نخوة، غابة كثيفة من الأسلاك الشائكة تسد الزقاق في وجهه، ورجفة صحوة تسري في كل جسده. تراءى له عالم كان متواريا في أعماقه، نظر إلى وهج الوجهين. كان دوي الزغاريد العذب وهتاف الطفل يصله كأصوات رحمة انبلجت من السماء، إنهما له، احتفاء غامر لاحقه منذ زمن بعيد، وهاهي لذة تحققه الخاطف ترتسم الآن في جبينه ونظرته. كما لو أنه يستقبل ضوء فجر جديد. للحظة سيكون ذلك الرجل الذي تمناه دائما، سامق، معتد، بطل. لن يذكره الطفل هاربا ومووليا ظهره بل صامدا ومشرعا صدره، لن يخذلهما، سيكون جديرا بالزغاريد والهتاف، اقتربت الجزمات العسكرية الصلدة فاستدار نحوها، حمى صورة الزعيم بكف يده، واستقبل الرصاص..

بنـــي ملال

.1995 - 1991

تقنين الوجود، وفرض انضباط تام وأعمى، هو الجحيم عينه بالنسبة لأناس كانوا كالنسيم، يتدبرون حريتهم بإلحاح في عتمة التاريخ، يمازحون الحزن، ويجهزون خطاهم لكل الاحتمالات، مسيرة تبعثر في الجهات الآمنة، خيام مطوية، وبهائم موهوبة للفرار، وحنين يلتذ بالنشيج وأحلام العودة.. إرث خفة ورشاقة ارتداد آمن، وحكمة عدم المجازفة بدخول معارك خاسرة. لقد رأت القبيلة سلامتها أبدا في الفر والإدبار. وربحت حروبا كثيرة لأنها واجهت أسنة وسيوفا شديدة ومتعطشة للدماء بالخواء الصقيل. كينونة شبحية، تتبخر في الريح، وتسكن الصدى، وتعاشر الهباء، وتعبر التاريخ كما تعبر الظلال الأشياء...





لوحة الغلاف :
ساحة المطلق القديم
حسان بورقية

ردمك : 9981-25-060-0